عطش
الشيطان

الناشر

النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

المدير الفني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

حسين الشحات

التصميم الداخلى

وليد محمد

دار النخبـة

للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى
- الحي الأول- مدينة الشيخ زايد -
الجيزة - مصر

تليفون: ٠٠٢٠٢ - ٣٨٥١١٩٦٩
٠٠٢ - ٠١٢٨٨٦٨٨٨٧٥
E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الأولى
1438 هـ - 2016 م
جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:
2016 - 26050
ISBN: 978 - 977 - 6580 - 19 - 0

محمد هلال

رواية

عطش الشيطان

٢٠١٧

في قرية قديمة مثل قريتنا، يقبع التاريخ في شوارعها، وفوق جدران مبانيها، وعلى سطوحها، وداخل قبورها وحقولها، مرددًا حكاياته العجيبة، يُحدثنا عن ثلاث مرات نصبوا فيها الخيام، وذلك في عرف القرية شيء غريب!

أولاها، فعلها الإنجليز لطاردة الموت وعزل الموتى... ثم فات زمن بعيد وفعلتها حكومة البكباشى عبد الناصر لمن أكلتهم نيران الحريق الكبير... وثالثها عندما جاس "الخواجات" خلال الديار والغيطان.

فمن خيام الوباء، وحتى خيام الأمريكان، حدثت في قريتنا الأعاجيب، وذا ما أتلوه عليك.

١

هاتف الصباح الحزين

بعد عشرين عاماً من فتح قبر أمه فى وضح النهار، لحظة تعامد الشمس فوقه تماماً وإدخال رأس زوجة أبيه، الصبية العاقر كى يزول مابها من عقم- عملاً بوصايا الأجداد- ليعمر بطنها بجنين ترجوه ولداً.

وبعد أكثر من ثلاثين عاماً من وقائع ليلة شتوية مجنونة افتقد فيها الناس معالم السماء، وأُغلقت في وجوههم الصارخة أبوابها، وعم الكون دخان كثيف لا قبل لهم بإزاحته، ليلة إشتعال الحريق الكبير وانبعاث رائحة أكوام البصل المشوى بكثافة رائعة ودمار بيوت القرية.

عاد إليها وكان قد قتل أفكار العودة رغم رياح الشوق التي تهب علي روحه في أحايين كثيرة، حاملة ذكريات الطفولة وميعة الشباب بتفاصيلها الدقيقة وحنينه الدائم لها، وكأن حياته- رغم ازدحامها- قد توقفت عندها.

*****

أيقظه من نومه الذي احتال حتى اقتنص منه سويعات قليلة، صوت الهاتف . بعدها أصبح رنينه في وقت مبكر مصدر إزعاج روحى غريب، يردد قبل أن يجيب: «اللهم أجعله خير».

أيقظه هاتف الصباح لينعي إليه موت جده ويؤكد من بالطرف الآخر: الجثمان لن يدفن قبل أن يراه ويقبله فوق الجبين، فتلك وصيته في لحظاته الأخيرة قبيل صعود روحه إلي بارئها.

فجأة ودون مقدمات تبخر ماء الحب من أنهار قلبه، وجفت وديانه الخصيبة، وجدبت حقوله الرائعة.

كان موت جده صدمة مروعة أفقدته يقينه، قلبت موازين النقاء وهددت حياته الروحية التي مكنت لنفسها ورسخت في حناياه منذ أمد بعيد.

ورغم عدم اكتراثه بالموت كحدث إلا أنه حزن حزناً شديداً، فقد كان يملأه يقين غريب أنه لن يري جده ميتاً أبداً! بل كان يؤكد لنفسه بأنه حتمًا سيموت قبله، وربما أهل القرية جميعا...

لماذا؟! لا يدري ولكنه إحساس جواني تدير شؤونه الروح وليس الشواهد المادية، مبرره الوحيد لهذا اليقين الراسخ الذي لا يقبل حياله مناقشة أو تعديل، هو أن جده باب من أبواب الرحمة لأهل القرية لن يغلقه الله أبداً، فبدعائه يرفع عنهم الكثير من البلاء.

كان يري أن ذنوبه مهما عظمت فإنها ستذوب أمام دعواته له، كما ينماع الملح في الماء ويذوب الثلج في لهيب النار.

وكان دائما ما يذكر أقوال جده، خاصة تلك الواقعة اللطيفة التي عرفها منه كل من يعرفه: «كان جدي ـ باركه الله ـ حينما يشتد به الوجد، يهز جوف السكون ويملأ روعة الليل هاتفا: «طيّب يارب».

كان العوام من أهل الدنيا يستنكرون عليه ذلك، ولكنهم لا يجرؤون علي مصارحته بما يعتمل في نفوسهم، لحسن سيرته وهيبته ونورانيته، لكنهم يستنكرون!

- ضاحكته يوماً قائلاً: القوم لا يفقهون!
- قال باسماً: ليس هذا عيباً، ثم قبلني فوق جبيني.
- قلت: ولا أنا!
- ابتسم قائلاً : الله طيب، ولا يقبل إلا الطيب، ولذا أدعوه ليطيبنا، حتى يقبلنا.

ثم ربت فوق كتفي بحنان دافق، وقبّل فوق صدري جهة القلب، وقال:

- لا تقل أنا.
- سألته: منذ كم من السنوات وأنت تدعوه بذلك؟
- تعجب دهشاً وقال: منذ زمن بعيد، مذ عرف الحب طريقه لقلبى.
فى براءة شاب تحيره أسئلة كثيرة يراها أكثر الناس جريمة ربما تخرج سائلها من الملة، فيسكت عنها مرغماً أو خشية العقاب،
- سألته: كل هذا العمر وأبواب السماء مغلقة فى وجه دعواتكم، أليس ذلك عجيباً؟!
إحمر وجهه الأبيض اللون المستدير وقال غاضباً :
- استغفر ربك ياولدى، أى شيطان ماكر يوحى اليك بهذا الكلام الخرف!
واغرورقت عيناه بالدموع وهو ينظر الى السماء مستغفراً ومعتذراً عن سوء أدبى، وخاصمنى بعض الوقت .

*****

كانت حكايات جده، عن بداية القرية والأحداث التي مرت بها، قد أخذت في ذاكرته حيزاً كبيراً، وكأنها متحف لتاريخها، ما أن يدخله أحد حتى يدهشه ما فيه.

وكان كثيراً ما يسأل ليستوضح ويستزيد من ذلك التاريخ كبار السن من الرجال والعجائز والنساء، ورغم تباين الروايات وربما الخرافات فقد كان ينصت جيدا، ويبدي دهشته لمحدثه، وكأنه يسمعها للمرة الأولي. ولم تفلح الخبرات المتراكمة عبر السنين أن تطفئ أو تبهت وهج تلك الذكريات والأحاديث، وكأنه يتعهدها بالرعاية، ويعيش فيها ومعها!

*****

أكثر من ثلاثين عاماً مضت وهو غريب عن القرية فى منفاه الإختيارى، بددها هاتف الصباح الحزين، تملكه التوتر والإرهاق النفسي وكأنه قد خرج من قريته يحمله الغضب على جناحيه إلي غير رجعة، بالأمس فقط.

وبينما الحيرة تعبث به، هتف زاعقاً: ما الذي تفعله بي يا جدي الحبيب، لماذا ترضي الذل لأشبه الخلق بك؟! رضيت لي الذل والهوان حتى تركت القرية لوجوههم البغيضة، وها أنت مرة أخري تجرجرني لأري تلك الوجوه.

ما هي الحكمة، في هذا الذي قضيت عليَّ به؟!

ثم أنخرط في بكاء مرير، متمتماً: ماذا أفعل، ماذا أفعل؟! هل أرفض وصيتك فيتعفن جسدك وتحل عليَّ اللعنات؟! أم أضع حبل الذل حول عنقي مرة أخري؟!

مرة أخري رن جرس الهاتف يستعجله ويؤكد له أن جميع من في القرية ينتظرون قدومه، بل ويستنكرون عليه كل هذا التأخير مهما كانت الأسباب، فذلك ضد كرامة المتوفي، فما بالك إذا كان الميت جدك الذي نعلم حبك الكبير له؟!

ضرب جبهته بقبضة يده زاعقاً: إيه يا حسين يا ابن النبوي عبد الله لابد من الذل مرة أخري، لابد لك من رؤية وجوهاً، الموت أحب إليك من رؤيتها. لا يدرى كيف قفزت الى مخيلته صورة عم عبده صاحب الأعاجيب والألاعيب- كاتب الفندق الذى كان حسين ينزل فيه بجوار مسجد الإمام الحسين فى بداية رحلة الغربة- وهو يسخر من افعال الناس قائلاً:

- زواقيل، كلهم زواقيل أبناء زواقيل، صدقنى ياولدى.

وعندما سأله حسين عن معنى تلك الكلمة الغريبة قال بعد مراوغة وجهد: «لصوص، سراق، هجامين، بلطجية، من إختلاس النظر لامرأة شهية محرمة، وسيل لعابهم على مفاتنها وحتى سرقة الأوطان أو بيعها وتمكين عدوها منها، رغم إدعاء الشرف والنزاهة والوطنية وتقوى الله، مروراً بمفردات كثيرة لا تحصى كلها خطف وسرقة وظلم الإنسان لأخيه، رغم إدعاء الطاعة والخوف من الله وأنهم يحسنون كثيراً! كل من عليها زواقيل صدقنى ياولدى.

كان حسين قد هجر البلدة، وأقسم بأغلظ الأيمان أنه لن يعود إليها أبداً حياً أو ميتاً، مهما كانت الأسباب ولو كان في ذلك معصية الله وجميع خلقه!

بل كتب وصية يضعها في أحد جيوب ملابسه، كلما غدا أو راح يؤكد فيها أنه تبرع بجسمه بعد وفاته لطلاب الطب، وذلك حتى لا يحار من يموت بينهم في أمر دفنه، ولا يختلفون حول إخبار أهله والذهاب به إلى قريته، أو أن يدفنونه في مقابرهم أو حتى مقابر الصدقة.

*****

في الطريق إلى القرية، تمني لو حدث مكروهاً للسيارة أودي بحياته، ولكنه تراجع عن تلك الأمنية مستنكراً ومتسائلاً: وما ذنب هؤلاء الركاب؟!

وأحس بمأزق غريب، كيف سيري وجه زوجة أبيه وهي بالتأكيد ستبكي لفقد جده، وهي التي فعلت ما فعلت بقبر ابنته أم حسين.؟!

وهتف في نفسه: مجنونة، إنسانة مجنونة، حقاً أمام الرغبة الحارقة تضيع الرحمة ويتحجر القلب!

هجمت علي ذاكرته تفاصيل الخروج من القرية وحواره مع جده ووالده وجدته، وتعجب من تصاريف الزمان، فما كان يخطر على قلبه أن يترك قريته، حيث الدفء الروحي الذي ينعم به بجوار جده والدراويش وحلقات الذكر وأعاجيب الشيخ الأخضر وأفكار الشيخ أصيل الغريبة المجنونة، وهمسات الحاج عبد اللطيف الحنونة كنسمة صيف طرية، وكلمات الشيخ فؤاد الساحرة، وبطولات الشيخ عبدالله الفدائى الأسطورية فى أرض فلسطين ضد المحتل اليهودى، وغيرهم من رجال الله الذين يسيحون في الأرض حبا وعشقا.

ولكنه القدر المحتوم الذي يتحكم في تصرفات الإنسان بل وأنفاسه. وذلك بعد أن وقف الجميع موقفا سلبياً واستسلامياً إزاء تصرف زوجة أبيه وأهلها، حين فتحوا خلسة وفي سرية بغيضة قبر والدته لتنظر فيه زوجة أبيه

العاقر بدعوى أنه إذا نظرت الزوجة الثانية العقيم في قبر الزوجة الأولي الولود.. سيكون ذلك سبباً في ذهاب عقمها وستحبل ويعمر رحمها وتنفتح بطنها.

لم يكن موقف جده سليبا فقط، بل منعه بشدة من الانتقام لكرامة قبر والدته من زوجة أبيه وأهلها، مبرراً ذلك بأن الروح صعدت الي بارئها ولا يضر الشاة سلخها بعد ذبحها، وإن ما حدث عادة سيئة تعودها الجهلاء، وقال فيما قال: يا ولدي إن الذئاب تفعل بالموتى، أكثر من ذلك بكثير فلا تبتئس.

- الذئاب حيوانات مفترسة لا عقل لها.

- من البشر من هم كالذئاب لا عقل لهم.

- الذئاب تفعل ذلك لأنها جوعى.

- الجوع يا ولدي أنواع عديدة أقلها قسوة جوع المعدة.

- ولكن إذا رأينا الذئب يحفر قبراً، هل نتركه أم نطارده ونقتله إذا أمكن ذلك؟!

- لو فعلت ما يعبث به الشيطان، في رأسك فسيحل عليك غضبي، وتكون قد عصيتني يا أشبه الخلق بي.

- وكرامة ابنتك يا جدي؟!

- دع عنك هذا الحديث يا ولدي، فالنفس إذا لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

كان موقف والده أكثر سلبية من موقف جده وكأن التى فتحوا قبرها لم تكن زوج له في يوم من الأيام، لم يهمس لها بشيء ولم تهمس له، لم يشتركا في دفء، في حب في مودة وهو الذي كثيراً ما كان يضحك مؤكداً أنه داخ السبع دوخات حتى وافق والدها علي زواجهما!

قال والده ببساطة شديدة، كان لها وقع الصاعقة علي نفسه: كل الناس

يفعلون ذلك. فأقسم في نفسه أن يترك البلدة ولو الي الجحيم ولا يعود إليها أبدا.

ضمته جدته «ضياء النفوس» إلى صدرها بحنان دافق وبكت بكاء شديد وكأن ابنتها قد ماتت لتوها، وليس منذ ما يقرب من عام، وبكي هو الآخر بكاءً حارقاً وأخبر جدته بما انتوي عليه من هجران القرية إلى الأبد وأنه قد جاء ليودعها، فأنفجر بركان البكاء من جديد، وقالت جدته «ضياء النفوس» ترجوه أن يعدل عن فكرته: لا تجعلني يا ولدي أعاني مرارة الفقد مرتين، يكفي فراق المرحومة.

ثم جذبته إلى صدرها مرة أخري بجنون، وكأن شيئا سيخطفه منها وجعلت تقبل رأسه ووجهه وهي تقول بصوت واهن متقطع: يا غالي يا ابن الغالية.

همس في نفسه: حقا المرأة مخلوق رقيق ولذا لم يختبرها الله بقتل ولدها، كما فعل مع الرجال وإلا ماتت كمداً قبل قتله.

- ما عدت أطيق الحياة هنا يا جدتي، أشعر بذل شديد.

- اسم الله عليك من الذل، هذه يا بني عادات غبية تعودها الناس ضعاف النفوس.

- كلما رأيتها أو أحداً من أهلها غلي الدم في عروقي وهمس الشيطان في أذني: أقتلها، أقتلهم إنه ثأر أمك.

- لا تفعل يا بني، حتى لا تغضب ربك وتغضب المرحومة في قبرها.

ثم رجته قائلة: وحياة غلاوة جدتك إنس هذا الموضوع.

هز رأسه موافقا، ولكنه قرر الرحيل عند الفجر.

*****

لم يكن ما حدث لقبر أمه وسلبية جده وعدم اكتراث والده الباعث الوحيد لهجران القرية. ولكنه كما يقال القشة التي قصمت ظهر البعير،

فقد كان لموت أمه المباغت في سن مبكرة، ولتعلقه الشديد بها أثراً كبيراً في نفسه وفاجعة كبيرة، في مقابل لا مبالاة والده واستخفافه بمشاعره ووصفه إياه بأنه «ابن أمه» ، فقد كان لوداعتها ولطافة حسها، وعمق إيمانها، إشاعة روح الدفء والجمال بينهما، وكان من عادتها أن توقظه لصلاة الفجر وتصر أن يكون إمامها في الصلاة بينما والده يغط في نوم عميق.

ولذا فقد كان دائما ما يردد والأسي يعتصره: ذهبت أمي وذهب معها الإيمان، وأُغلقت فى وجهى أبواب السماء التى لم تفتح أصلاً لتستقبل دعاء جدى ولا إستغاثات الناس ونار الحريق تأكلهم، ولا أوقفت لهيب سوط حضرة العمدة على ظهورهم، ولا رصاص اليهود وهو يلتهم أرواح الجنود أيام النكسة ، ولا... ولا... ولا... يبدو إن السماء بلا أبواب وأننا نعيش وهماً كبيراً!

وكان يتمتم عند كل مشكلة يقع فيها ويعجز عن حلها: أين أنتِ يا أبواب السماء؟! ولكنه كان يكتم هذا الصراع فى نفسه ولم يبح به لأحد خشية سوء الظن به.

فوق ذلك فاجعة الحرمان القاتل الذي رشق خنجر الفراق بينه وبين البنت الوحيدة التي أحبها بجنون غريب، ولا يدري سببا لهذا الجنون. ومثل موت أمه المبكر كان رحيل «هدى» المبكر مع والدها من القرية إلى المدينة بعد أن باع البيت والأرض الزراعية، ناشداً الراحة والتحضر لنفسه وأهل بيته. ولم يعلم والدها الطيب أنه بقرار هجران القرية إلى المدينة، كان اليد التي قبضت علي خنجر الحرمان الذي رشقه الفراق في قلبه.

سنوات وتزوجت هدى، ولم يعد يراها إلا طيف ذكرى رائع وحزين في الشارع والبيت والسكك الترابية للقرية والمدرسة الابتدائية التي تخرجا فيها، وسطح المنزل حيث كانا يتبادلان إشارات التحية والشقاوة والحب الطفولي الملائكي الذي تعجز عن وصف روعته كلمات اللغة البشرية.

ثم المدرسة الإعدادية التي تبعد عن القرية كيلو مترات، كان التلاميذ يقطعونها مشياً علي الأقدام، وكانا يقطعانها مشياً علي قلبيهما رغم أنها بين أترابها وهو بين رفاقه..!

في فصل دراسي واحد جمعتهما صدفة توزيع إدارة المدرسة لطلابها، ولأجلها كان يفضل المقاعد التي خلف مقاعد البنات، هامساً لنفسه فى نشوة: إنها «هدى»، هدى التي في سبيل حبها يهون كل شيء.

كان يطيب له، بل يهيج الشوق القديم بين حناياه إذا صادفت الأقدار وسلك نفس الطريق. ربما صادفت خطواته مواطئ أقدامها، في زمانهما الغابر، ربما عانقت تراباً مشت عليه هدى فيما مضي، ولا عجب أنها هدى غاية ما كان يرجوه في الحياة بل كانت هي كل الحياة أن يعيشا معاً في بلد واحد، في بيت واحد، في حجرة واحدة، يدثرهما غطاء واحد، حضن واحد، نَفَس هواء واحد يتبادلان شهيقه وزفيره، وعليه تكون الحياة .

الآن يبتسم حسين النبوي عبد الله، وهو يتذكر تلك البراءة النادرة حين كان يحاول جاهداً تخمين ما تأكله «هدى» وما تشربه، ويرفض خياله تماما أن تكون هدى، تلك الروح الجميلة تأكل ما يأكله الناس! متسائلاً دهشاً: هل تأكل الطماطم والبطاطس والأرز واللحم و... و... مثلما نأكل؟! مستحيل..!

ولكن ماذا تأكل هدى؟! لا أدري.

وكثيراً ما كان يقف طيف هدى ملاذا دافئا عند الأحزان، فيورثه السكينة والهدوء وينشر حوله روح الحب.

قال في نفسه: ماذا بقي لك في هذه القرية الملعونة إلا الحزن والجنون؟! ثم قرر الرحيل عند الفجر.

*****

لم تكن القاهرة هي الأم الرؤوم الحنون التي تفتح ذراعيها لتحتضن أولادها البسطاء كما توهم، بل كانت بمثابة زوجة أب قاسية، حجرية القلب، لا يرضع لبن ثدييها إلا أبناء الأثرياء، حتى لو كانوا غرباء!

ذهب إلى مسجد الحسين، فقد ظل يحلم بزيارة الإمام سنوات طوال، منذ أدرك أن جده قد أختار له اسم «حسينا»، تيمناً بالإمام.

تعجب في نفسه، كيف جاء آل البيت الأطهار الي هذه المدينة القاسية؟! ولماذا؟! ووجد الإجابة تقفز إلى عقله المتعب دون عناء: كي يمنحوا فقراءها الدفء والأمان، ويستريح المحروم من حضن أمه «القاهرة»، بحضن آل البيت الحنون.

انكفأ علي ضريح الحسين وعيناه لا تكفان عن البكاء، همس إليه بأوجاعه وهمومه، وضَياعه !

عند الباب الأخضر جعل يتأمل أهل الحسين، باعة البخور، سقاة الماء الحسيني المزهر، حالة الرضا والسرور التي تملأ وجوه الشحاذين والفقراء والذين يفترشون أوراق الجرائد والبطاطين القديمة والملابس البالية في برد الشتاء القارس .

«حقا الدفء بجوار الحسين يغني من ينعم به عن كل دفء في الدنيا مهما عظم»، قالها في نفسه بعد أن جاور الإمام عدة ليالٍ، حتى استطاع أن يحصل على عمل يقتات منه.

الغريب أنه بعد أن أطمأن وشعر بسعادة بالغة بالعمل الذي يمكنه من العيش بعيداً عن حياة فقراء الباب الأخضر، شعر ببرد شديد يغزو أوصاله حتى أنه لم يستطع النوم في آخر لياليه هناك رغم أن الفراش هو، والغطاء هو والجرائد والبطاطين القديمة. فهمس في نفسه قائلاً: حقاً دفء الحسين ودفء الدنيا لا يجتمعان!

كان في قرارة نفسه، يود لو يظل بجوار الحسين طوال حياته. ولكن

العيش بلا عمل كان يؤلمه، ويحزنه جداً أن يقتات من إحسان «أهل الخير»ـ كما يسميهم الفقراءـ يوزعون الأرغفة المليئة باللحم والأرز والفول النابت على أهل الحسين.

كان ذلك يقتله ويشعر بكراهية نحوهم قائلاً في نفسه: يملكون الدنيا بالفساد والنهب والسرقة ويريدون امتلاك الآخرة بأرغفة اللحم والفول النابت، الدنيا والآخرة يا أولاد «القاهرة «؟! ثم نظر إلى السماء وهتف: أهكذا يكون رضاك؟!

*****

وقف أمام جثمان جده ـ أشبه الخلق به ـ مازال طرياً ساخناً وكأن الروح لم تفارقه! ابتسامته الودود التي تميزه مرسومة علي شفتيه، وجهه يملأه النور والبشر تماماً مثل وجه أمه «ورد الشام» جدة حسين الكبرى، عند موتها الغريب الذي لم يشهد مثله في حياته رغم رؤيته للعديد من الموتى في لحظات احتضارهم.

عند دخوله حجرة جثمان جده، خرج الجميع تنفيذاً لوصية الجد: «خلوا بيني وبين حسين ساعة».

همس وكأنه يعاتبه: الآن تتركني وأنا أشد ما أكون حاجة إليك؟! ما الذي فعلته بي يا جدي الحبيب؟! لم أعهد فيك القسوة، هل طاوعك قلبك أن تتركني هكذا حائراً لا يقين لي؟! ثم قبلة فوق جبينه ومرغ تضاريس وجهه المتعب بروضة وجه جده اليانعة،. همس له : كنت الحب والدفء والحنان رغم بعدك المكاني عني، تعشش كطيور الجنة في أشجار روحي، كان إحساسي بأنك تعيش فيَّ. ثم انحني علي يده أخذها بين راحتيه أمطرها بقبلات حارقة تبلل وشم الأسد الذي يملأها رافعا سيفه. وقال ودمعاته تتساقط فوق خديه وتسيل الى شفتيه: كنت ألعب وألهو وأعبث غير عابئ بعواقب الأمور، فيقيني بأنك تستغفر لي وترجو الله العفو عن خطاياي

وذنوبي يجعلني أعيش خفيفاً دون أحمال وكأنني عصفور يمرح في سماوات الرضا.

الآن يجب أن أخشى كل شيء، أخاف من كل شيء، أتوقى الحذر، الآن آن للصقيع والشتاء القارص أن يسكن حنايا روحي، فهل يرضيك هذا يا واهب القوة والحب؟! وهل سيكون للحياة بغيرك سوي طعم المرارة ومذاق الحنظل..؟!

ثم صرخ حسين وقد تملكته حالة وجد غريب: خذني معك، فلا حياة لي بدونك، «من هجره حبيبه فَـقَـدَ كل لذة، وأكلته النيران»، أليست هذه كلماتك يا جدي الحبيب؟! لا تتركني للنيران تأكلني، لا تتركني للنيران تأكلني..!

فزع من بخارج الغرفة لصرخات صوته المقهور، ودخلوا عليه وهو يعالج سكرات الحزن.

حالوا بينه وبين جثمان جده وتعالت الأصوات بالبكاء والنحيب، قال صوت: كلنا نحبه يا أستاذ حسين ولكنها إرادة الله، وأنت رجل مؤمن وتعرف ذلك أكثر منا.

*****

كان يري جده وجدته وقليل من أهل قريته علي مدى سنوات الغربة، مرتين في كل عام، واحدة في مولد الحسين وأخري في مولد السيدة زينب.

ظل جده يدعوه لعدة سنوات أن يعود إلى القرية ولكنه كان يرى ذلك مطلباً صعب التحقيق، ويؤكد له أنه لا إرادة له في ذلك، ثم يقول بابتسامة ذات معنى: تلك أحوال القلوب يا جدي الحبيب، وأنت تعلم تقلبها جيداً..!

فيهز الجد رأسه ويغمض عينيه ويسبح في ملكوته الروحي قائلاً: نعم يا ولدي، ولذا فأنا أطلب منك ولا أطالبك.

ثم يبتسم له قائلاً: فلتهنأ أنك بجوار الإمام، وفي رحاب رئيسة الديوان،

وغير بعيد من مسجد الحاج عبده شيخ طريقتنا، أرجو ألا تنقطع عن زيارته كل أسبوع عقب صلاة الجمعة. ولا تتردد في طلب شيء تعوزه منه، فقد عاش في بيت جدك كما تعلم سنوات وسنوات نقتسم اللقمة والبركة والرضا، يعلمنا خالص الحب لله وخصوصية المحبة، ويأخذ بأيدينا لطريق النور إلى أن اختار له الله الإقامة هنا بجوار الحسين، وأكرمه أشد ما يكون الكرم فجعل له مسجداً وسط مقابر «الدراسة» يؤمه ويأوي إليه من يأت إلى هنا من أهل القرية، يأكل ويشرب ويبيت.

ثم يبتسم من جديد ويقول، بعد تنهدة: يرحب فيه بالجميع من كان يحبه ومن كان يشوه سيرته الطيبة ويلصقه التهم الكاذبة، هكذا أقطاب الحب الإلهي يا بني، دائما لا يتذكرون للناس خطيئة في حقهم.

****

٢

ضياء النفوس، طبيبة الأرواح

عاد حسين من المقابر ملهوفاً إلى حضن جدته التي هدها فراق زوجها وكأنها فقدت ابنها الوحيد الرائع الجميل الحنون الذي رزقت به بعد عناء سنوات طوال، والآن تفقده! غابت عن وعيها مرات عديدة، الآن تشعر كأن سنوات حياتهما الطويلة مرت وكأنها ساعة، بل لحظة واحدة!

الآن تشعر الجدة «ضياء النفوس»، وكأنها كانت في حلم لذيذ لكنه كان قصير، قصير جداً!

تلك الحياة التي لخصتها الجدة فيما بعد ببساطتها الطيبة، بأن اليوم فيها كأنه ألف عام لما فيه من أحداث وأحاديث، وحركة الدراويش ليل نهار وهي تعد لهم الطعام وتوقد الفرن لتصنع لهم الفطير في أعماق الليل، وكأن الدار خلية نحل. والعام فيها كأنه لحظة واحدة، لحلاوته وعليل نسماته وسماحة وجوه إناسه، ورقته علي الروح.

ألقي حسين بجسمه المتهالك ونفسه المتعبة في أحضان جدته التي مزقتها أحزان الفراق المباغت.

ورغم أنها ثكلى لفقدانها ثلاثة أبناء قبل ذلك، إلا أن ما فقدته اليوم كان كل الحياة، كل الأولاد، كل الأهل، كل الأصحاب، فقد كان نسمة الهواء التي تتنفسها، وجرعة الماء التي تنبت منها حياتها.

جعلت تحتضنه ويحتضنها وكأنهما يحتميان من الموت الذي غدر بهما.

*****

روى لها عن الحزن الذي رآه يعتصر والده وهم علي المقابر، فقد

احتضنه وجعل يبكي بكاءاً شديداً كاد يزهق روحه، وقال: أشفقت عليه جداً، فلم أره رقيقاً ضعيفاً مثلما رأيته ونحن نودع جدي!

قالت: كان الله في عونه يا ولدي، منذ أقل من شهرين فقد زوجته، واليوم يفقد جدك الذي كان يحبه حباً كبيراً.

قال حسين دهشاً: ماتت؟!

- بعد ما ذاقت كل صنوف المرارة لسنوات كى تنجب طفلاً، ولكنها إرادة الله.

لا يدري حسين ما الذي جعله يشفق عليها فجأة، وهي التي كانت وراء غربته وتغريبته المريرة عن قريته التي كان يعشقها ولا يرجو حياة فى بلد سواها. وكانت وراء عذاباته الطويلة في الغربة، كلما تذكر حكاية انتهاك قبر أمه، وتنهد قائلاً: رحمها الله وسامحها.

ولا يدري كيف قفزت صورة صديقة محيي الدين وهو يقول: الإنسان كائن مقهور، مجنون وغبي!

قالت الجدة «ضياء النفوس»، أو ضيا النفوس، كما يناديها الناس، ويكتفي البعض بكلمة ، الحاجة ضيا: عقل نسوان ناقص، قتلها الشيخ هنداوي بوصفاته الغريبة من أجل إنجاب الولد، ماتت ونفذ أمر الله ولم يأت الولد، هل تصدق أن هذا الرجل المخبول بعدما يأس معها ووصف لها كل ما يعرفه وكتب لها كل ما في الكتب التي عنده، قال لها لن تأت بالطفل إلا بعد أن تمسحي بطنك بمخ رجل ميت كان كثير الإنجاب!

فعلت أشياء غريبة، أكلت الجزء الأبيض في بطن قرموط السمك نيئا كما هو!

مرة ثانية شقت بطن القرموط ووضعت فيه الماء ثم شربته علي الريق!

قال لها ذات مرة: عليك بالبحث عن رفيقة لك في عملية الختان، ثم تبولا علي الأرض في مكان واحد، وتصنعى من الطين المبلول «عروسه»،

تضعها تحتها وهي تستحم، ولما فشلت هذه الطريقة أيضاً نصحها بأن تأخذ مضغة جنين «سقط» من أمه وتستحم به، وأشياء كثيرة غريبة، لا أدري أي شيطان أوحي إليه بها..!

يقولون: أنه رجل سُفلي يغتسل من قذارته في دورة المياه باللبن. ويرتدي بدلاً من الحذاء رغيفا خبز فى قدميه، ويسجد للشيطان- والعياذ بالله- فتحضر له العفاريت فيستخدمهم كيفما يشاء. أوه يا بني، ربنا يسهل لخلقه.

كان هنداوي رغم حداثة سنه ذائع الصيت. فقد ورث عن والده، أصول السحر وتحضير الجان، ورغم ما لاقاه أبوه من أهوال عند موته، حتى أنهم وجدوا ثعبانا ضخما في قبره.

وكلما تركوا قبرا وحفروا آخر وجدوا نفس الثعبان في انتظاره، ولما ضاقوا ذرعاً به قذفوه إلى داخل القبر حيث الثعبان الضخم، وأغلقوا عليه وانصرفوا سريعا خوفًا وهلعاً مما شاهدوا.

في الصباح شهد رجال ونساء من القرية، سواداً على باب مقبرته وكأنها فوهة فرن بلدي. فأكدوا أنه من فعل النار التي أضرمها ملائكة العذاب في جسده. ولم يحزن لأجله صغيراً ولا كبيراً فقد كان السبب في «ربط» الكثير من الرجال عن زوجاتهم. وكان الشاب إذا أراد الزواج ذهب إليه ليعمل له ولعروسه تحصين ضد الربط والسحر، فيغضب غضباً شديداً ممن يذهبون إلى شيخ آخر، فيسلط عليهم عفاريته ويذيقهم صنوفاً من الكدر والقرف فيذهبون إليه يطلبون رضاه.

ولما وجد «هنداوي» أهل القرية شمتوا في موت أبيه أقسم أن يؤدبهم جميعاً، وجاء بكتبه- رغم خوفه الشديد في بداية الأمر مما حدث لوالده عند دفنه، إلا أنه أخذته العزة بالإثم ومضى في نفس الطريق!

وأكملت الحاجة ضيا حديثها عن أحوال «شجية» زوجة النبوي عبد الله

والد حسين قائلةً: لم تترك المرحومة شيخاً تتحدث النساء عنه إلا وذهبت إليه. داخت يا ولداه السبع دوخات وداخ معها المقدس عزيز كثيراً، فهو كوالده المرحوم المقدس مسيحه رجل طيب القلب ولا يدخر جهداً في خدمة أهل البلايا والشدائد. وبعد أن فشل معها كل ما يحفظه الرجل من قرآن كريم وآيات الإنجيل، يتلوها علي المصاب وهو ممدد أمامه، وقد وضع على صدرها الصليب الخشبى وهى مصفرة الوجه كأنها فارقت الحياة، أخذها وذهب بها الي كنيسة القديس مار جرجس عندكم في مصر ولكن دون فائدة.

ولعب هنداوي بعقلها، وأقسم لها بأغلظ الأيمان أن في مقدرته قتل العفريت الذي يسكن جسمها ويمنع حبلها، لكنه بدلاً من أن يقتل العفريت قتلها هي.

*****

كانت الحاجة ضياء النفوس هي الطبيبة الفعلية للقرية، لعشرات السنين، وكانت الدار تعج إلى جوار الدراويش والمشايخ بالعديد من المرضى ومن يطلبون العلاج الذي كانت تقدمه بالمجان، وكان أسعد لحظات حياتها حين يبرأ مريض.

وقد لاحظ حسين وهو بالمدرسة الابتدائية ذلك، فكتب علي باب الغرفة التي تستقبل الناس فيها المرضى، «عيادة الدكتورة ضياء النفوس.. أخصائية جميع الأمراض.. وجميعه بالمجان».

كان العلاج رغم بساطته ناجع ومفيد، فقد كانت تصف «التوتيا» للعيون الرمداء، وكذا مسحوق أبيض يشبه الدقيق اسمه «الششم»، وكانت تحك قطعة التوتيا علي جسم «قلة» الفخار ثم تأخذ بأصابعها وتضع في العين المريضة.

أما الششم فكان يعجن بالماء ويلصق على عين المريض وفي الصباح

يقوم بغسلها، ومن يشكو مغصاً في بطنه تعمل له «المحوضرة «، وهي أن يرقد المريض علي ظهره ويكشف بطنه ثم تضع إصبعها في «سرته» وتدور فوقه سبع مرات حتى يتكوم بطنه ويتكور، ثم فجأة تنزع إصبعها فتعتدل المصارين والأمعاء وتعود إلى سابق عهدها ويزول المرض.

أما من يشكو وجع الظهر أو الجنب فتعمل له «البرنية»، وهي إناء من الفخار ذو فتحة ضيقة شيء ما، ثم تشعل «كولحة» كوز الذرة بعد أن تغمسها فى الكيروسين، وهي مثبتة فى قاعدة من الطين، تضعها علي ظهر المريض المنكب علي وجهه، ثم تكفأ البرنية فوق الكولحة المشتعلة، وعندما ينفذ الأوكسجين من البرنية تنطفئ النار وتجذب البرنية بفعل خلخلة الهواء جلد المريض، بعدها تستجمع السيدة ضيا قوتها وتنتزع البرنية، وذلك ما يسميه علماء اليوم، «كاسات الهواء»، وبعد عدة جلسات يقوم المريض صحيح معافي.

أما من يشكو ضيقاً في التنفس فكانت تصف له مغلي أوراق الجوافة مع اللبان الدكر.

أما من أصابه الرشح والأنفلونزا فتنصحه بالاستنشاق الشديد للماء البارد، وإذا كانت الحالة شديدة فعليه إشعال قطعة قطن أو ملابس قطنية وشم دخانها، أو استنشاق دخان أوراق النعناع بعد إشعالها.

أما من أصابته حرارة الشمس وجعل يشكو ألماً برأسه ترتفع به حرارة جسمه، فكانت تأخذ منه الشمس بعصر رأسه بقوة من خلال ربطها بقطعة طويلة من القماش أو «كوفية»، وتدخل فيها قطعة من الخشب أو مفتاح حديدي كبير وتظل تعصر الرأس حتى يبدو المريض وكأنه يشرف علي فقدان الوعي، بعدها تفك عصابة القماش فتذهب سخونة الشمس ويزول الألم.

وهكذا كانت ضياء النفوس يد الرحمة في القرية. وإلى جوار ذلك ماهرة

في وصفات الأعشاب الطبية، ولك أن تعجب لتلك المعرفة وهى التى لم تخرج من القرية وكأنما يوحى لها بذلك.

لم تدم حياة ضياء النفوس طويلاً بعد رحيل زوجها،ـ جد حسين ـ فقد تكومت فى رحم أحزانها وتكومت حولها أحزانها، ولم تفلح في إخراجها من تلك الحالة أية وسيلة. فانقطعت عن الناس وفقدت عيناها بريقها الذي كان يميزها، وفي يوم الأربعين من فراقه فارقت الدنيا لتلحق بالزوج الحبيب أو الحبيب الزوج.

*****

ذهبت ضياء النفوس، وبعد ذهابها كانت يد التغيير نشبت أظافرها في كل شيء، فعرف الناس الطبيب والوحدة الصحية، وأقراص الأدوية والحقن، واللبوسات، والشراب، وجلسات الكهرباء، والأشعة، وهجروا الوصفات البلدية التي ما عادت تفلح مع أجسام أصابها التلوث وانتصرت عليها الفيروسات والأمراض الخبيثة التي لا برأ منها.

الطريف في حياتها أنها كانت لا يطيب لها طبخ الطعام إلا علي أعواد حطب القطن والذرة فى»الكانون» أو الفرن البلدي ، وكانت لا تعترف مطلقا بوابور الجاز وتقول أنه يفسد المذاق الرائع للأكل.

ورغم معارضة نسوان أولادها لذلك ووصفهن للكانون بالتخلف ولابد من مواكبة التطور، كانت تصر علي رأيها، وتقول: إذا بعد الإنسان عن الطبيعة التي خلقها الله، فسدت صحته واعتل مزاجه.

ماتت الحاجة ضيا قبل أن تشاهد خوف نساء أولادها اللائى كن يضحكن عليها بالأمس، من استعمال مواقد الغاز والبوتاجاز! وإصابتهن بالهلع عند الاقتراب منه، وسط ضحكات السخرية من أولادهن الذين وصفوا أمهاتهم بالتخلف، وهكذا يصف كل خلف سلفه!

والحقيقة أن القرية حفلت بالعديد من الطرائف في بداية عهدها

بمعرفة «وابور الجاز» أو «المذياع»، فيقال فيما يقال أن إحدى العجائز تركتها زوجة ابنها بعدما أشعلت «الوابور»، ووضعت عليه «حلة الطبيخ، وبعدما نضج الطعام وما عاد يحتمل البقاء فوق النار أنزلته العجوز وحارت في كيفية إطفاء الوابور، وهداها تفكيرها البسيط لإلقاء طست النحاس فوقه، فجعلت النار في تسخين الطست حتى جعل يتراقص من شدة الحرارة، فصرخت وهرولت إلى الشارع وهي تقول: عفريت ، عفريت يا خلق الله.

إلا أن الحاجة ضيا النفوس لم ترفض استعمال الوابور جهلا به، وإنما فلسفة رأتها، فقد كانت صاحبة عقل راجح، فكما قيل عنها «سيدة بألف رجل»، فقد كانت صاحبة مشورة ورأي سديد ويأخذ الناس مشورتها ونصائحها بكل يقين.

طرفة أخري رواها أهل القرية عن الحاجة هانم جدة علي السفروتي، سائق السيارة الأجرة الأولى بالقرية، فقد كان والده محمد السفروتي في بحبوحة من العيش، يقتني الخيول ويتاجر فيها، بل ويعلمها الرقص ويتعهدها بالرعاية منذ صغرها، يؤجرها للناس في الأفراح لترقص علي نغمات المزمار البلدي.

وكان صاحب مزاج خاص ومن خلصاء عمدة القرية والريس فواز، وصاحب فكاهة وظرف ونظافة في المأكل والملبس، ومن القلائل جداً الذين يلبسون الأحذية في أقدامهم.

فقد كانت العادة أن يشتري ميسور الحال «بلغة» لا يلبسها قدميه، وإنما يحملها تحت إبطيه وهو ذاهب الي المناسبات فقط، المآتم أو الأفراح أو استدعاء العمدة له أو طارئ ما يحدث ويتطلب الهيئة الجيدة.

وكان الناس يفاخرون بذلك، وكان محمد السفروتي قد اشترى مذياعاً ضخماً وضعه في شباك «مندرة « الجلوس ليسمعه أضيافه، ومن يرغب من أهل الشارع والقرية.

وكانت أم محمد السفروتي سيدة طيبة علي سجيتها، وظنت أن أصحاب الأصوات المنبعثة من الراديو أحياء موجودون داخل علبة الجهاز الضخمة، فأحضرت لهم الغداء، وطلبت منهم الخروج لتناوله، ولما لم يستجب لها أهل المذياع، ضحكت السيدة العجوز وظنت أنهم من الحرج بمكان، فخرجت من الحجرة وأغلقت خلفها الباب، وبعد وقت أحضرت أكواب الشاي لتقدمها لمن شبع منهم، وكانت المفاجأة التي أذهلتها أن أحداً لم يخرج، فحزنت حزناً شديداً مؤكدة أنهم ليسوا بخلاء لهذا الحد.

وبينما هي علي تلك الحال جاء ولدها محمد السفروتي، وشكت له السيدة الطيبة ما فعله معها أهل المذياع، فضحك ضحكاً لم يضحكه من قبل حتى غضبت منه لتلك الإهانة، لكنه أفهمها أن المذياع ليس به أحداً وما بداخله أشياء حديدية، فضربت المرأة صدرها وهي تؤكد أنها علامة من علامات الساعة وقيام القيامة أن يتكلم الحديد ويغني!

****

٣

حكايات الحريق الكبير

بعد أكثر من ثلاثين عاماً من اشتعال الحريق الكبير، عاد إلى القرية كي يمنح جده القبلة الأخيرة، تلمسه أصابعه للمرة الأخيرة، تراه عيناه النظرة الأخيرة. يبدأ عليه تاريخ البكاء ويذرف علي جبينه الدمعة الأولى في هذا التاريخ الذي سيطول حتماً. فجده ليس رجلاً عادياً يموت مثله كل يوم مئات الرجال، ولي من أولياء الله الصالحين وصاحب مآثر عديدة ومناقب لا ينضب معينها.

حين قرر العودة إلى القرية لعبت برأسه كل الذكريات القديمة دفعة واحدة، وكأن هاتف الصباح الحزين بمثابة السد الذي انهار فجأة فهجمت الذكريات! الطفولة والصبا والدراسة، اللعب مع الأتراب في شوارع القرية المتربة، حب «هدي» الذي مازال يسكنه رغم السنوات الطوال.

كانت الذكريات تترآى له دون استئذان، تذكر الدراويش والمشايخ وحلقات الذكر في القاعة الكبيرة ببيت جده، ترآت له وجوه أحبها كثيرا، وما كان يرغب أن يفارقها ولكنه القدر!

فرضت تفاصيل الحريق الكبير صورتها علي مخيلته، ذلك الحريق الذي جعله الناس في القرية تاريخ لهم: فلان ولد قبل الحريق بثلاث سنوات، علان تزوج في عام الحريق، فلانة ماتت بعد الحريق بأسبوع واحد.

كان حسين في السابعة من عمره حين اشتعل الحريق الكبير، وقد فرح كثيراً أن أكلت النيران فيما أكلت كتب المدرسة. فأحس بحرية ممتعة ألا يحمل هذا الكم الكبير من الكتب كل يوم ـ رغم حبه للمدرسة والدراسة

ـ لكنها الحرية التي يعشقها قبل أن يعرف معناها.

حمله جده إلى جرن القرية بعيداً عن الحريق، والي جوار أحد أبراج الحمام كان مستقره. أدهشه مشهد الدخان الكثيف فوق بيوت وشوارع القرية في تلك الليلة الشتائية العجيبة مكوناً في كثافته هيئة رجل ضخم جداً يتمطى بجسده الأسطورى فارداً ذراعيه علي بيوت القرية.

يضحك الآن كثيراً لهذا الرجل الدخاني الذي ظنه «الله»، وقد جاء يهلك القرية! وجحظت عيناه خوفاً ورعباً من أن يمد الرجل يده ويأخذه من جوار برج الحمام إلى كثافة الدخان فيموت.

عندما رأى جده قادماً يحمل قدر جهده من المتاع تبدد الخوف وشعر بأمان لا نظيرله. وحين هم بالعودة إلى الدار ليساعد الرجال والنساء في إنقاذ ما يمكن إنقاذه من فوهة الجحيم التي تحصد كل شيء، رجاه أن يأخذه معه لأنه يخاف الوحدة والظلام. ولكن جده ربت علي كتفه وقبله مبتسماً رغم بشاعة الكارثة - هكذا كان ـ لا يخرجه عن عميق إيمانه أية كوارث: مما تخاف، أنت رجل؟!

خشي حسين أن يخبره بأمر الرجل الدخاني الضخم حتى لا يسمعه ثم يمد يده ويأخذه بعد ذهاب جده.

- همس حسين في نفسه: إن نسيت لا أنسي مقولة جدي تعليقاً دائماً منه علي ما حدث من دمار وخراب للقرية، يردده كلما جاءت سيرة الحريق: «ظلمتهم القرية فرحلوا عنها، تركوها بغير حب، فدمرها الغضب، والتهمتها النيران»..!

وعندما سألته عمن يتحدث قال: أهل الله، مشايخ الطريق، دراويش المحبة، أحباب الحق، جاءوا إليها من كل مكان، مكثوا فيها، نثروا رحيق إيمانهم بقلوب أهلها، ولكن سبحان مقلب القلوب، جحدوهم ولصقوا بهم الأكاذيب. وقال عمي وشيخي الحاج عبده وهو راحل عنها: «هذه بلدة

تحرق الأولياء وحتماً ستحرقها النيران!

- قال له: يا جدي الحبيب هكذا البشر مذ خلقهم الله.

- فزعق كعادته: طيّب يا رب.

*****

كانت فرحة حسين وأترابه من زملاء المدرسة غامرة، فبعد أن خمدت النيران أكلوا من البصل الذي شوته ما لا يمكن حصره. فقد كانت أسطح المنازل عامرة بأطنان البصل الجاف المغطي بالقش والحطب حتى لا يعطبه برد الليل شتاءاً وحرارة الشمس صيفاً كخزين للاستخدام طوال العام، حتى أن هواء الحريق حمل تلك الرائحة الرائعة التى تشبه رائحة اللحم المسلوق ووزعها في كل الأنحاء.

كان اكتشاف أحدهم لكومة من البصل المشوي خبراً بالغ السعادة يهلل له الجميع ويتسابقون إليه. وكانت نوبات سعادة الاكتشاف تزداد كلما رحلت الأيام وهمست الظنون بأن أكوام البصل المشوي نفدت، إلا أن الرائحة المميزة له جعلتهم أشبه ما يكونوا بالكلاب البوليسية في بحثهم عنه حيث يعتمدوا علي حاسة الشم بتركيز كبير.

*****

لا يذكر الآن هل أخبر «هدي»، عن خوفه من الرجل الدخاني أم لا؟! لا يذكر تحديداً تفاصيل علاقتهما الطفولية التي سكنت أوردته وسرت فى دمائه، فقط ما يذكره ويبتسم له أن الجميع كانوا يعلمون تلك العلاقة ويضحكون بل كانوا إذا أرادوا إغاظته ينادونه باسمها، فإذا به يغضب ويقذف بالطوب والحجارة من يفعل ذلك معه.

*****

بدت القرية بعد أن أجهزت النيران علي معظم بيوتها وكأنها وكر للأشباح،

أو بقايا قرية مات عنها أهلها أو هجروها منذ آلاف السنين وأمست أثراً بعد عين.

فالأسقف الخشبية أتت عليها النيران تماماً، والجدران المبنية من الطوب اللبن «النيء» أصبحت سوداء كالحة اللون، هامدة لا حياة فيها. وعندما تطلع الشمس ترى الأطفال يمرحون وهم يبحثون عن البصل المشوي بين تلال مخلفات القش وحطب القطن وبقايا عروق الخشب التي سدت الشوارع وتشبعت بالمياه بعد أن أعمل فيها رجال الإطفاء خراطيمها، ومن قبلهم أهل القرية، رجال ونساء، ومن توافدوا من القري المجاورة عندما بددت النيران ظلام الليل وارتفعت صرخات النساء تستغيث من هول الكارثة.

وأصبح قفز الأطفال من فوق الجدران الشاخصة، كشواهد القبور إلى أكوام القش، ومن أكوام القش إلى الجدران، عملية سهلة وكانت تلك اللعبة مصدر سعادة وتسلية لهم ربما تمنوا دوامها. في الوقت الذي بدأ رجال القرية يستعيدون وعيهم وجهدهم وتفكيرهم في كيفية الخروج من تلك الكارثة وإزالة آثارها التي طالت كل شيء إلا قليلا.

*****

خمدت النيران تماماً وبدأ رجال الإطفاء يفكرون في سحب خراطيم المياه بعد أن تأكدوا تماماً من إنتهاء المهمة. لكنهم واجهوا مصاعب جمة في سحبها من شوارع القرية، ربما كانت أصعب من مواجهة النار نفسها، فقد اكتشفوا أن الخراطيم دُفنت تحت الأكوام الهائلة من القش والحطب وبقايا عروق الخشب، وكانت عملية رفع كل هذه الأكوام من فوق الخراطيم عملية شاقة جداً استغرقت أياماً أكثر من أيام مواجهة النيران.

*****

ظلت رائحة الحريق تسكن شوارع القرية والجدران المحترقة لأكثر من عامين، حتى جادت الأرض الزراعية بعدة محاصيل، حاول فيها من دمرت النيران بيوتهم تدبير ما يمكن تدبيره من نفقات إعادة البناء مرة أخري.

كانت المشكلة الكبرى التي تواجههم شراء عروق الخشب الجديدة وسدد البوص التي يتم فرشها فوق العروق الخشبية مكونة أسقف الحجرات وكذلك الأبواب والشبابيك، وإن كانت الأخيرة لا تمثل مشكلة حقيقية فيمكن شق بعض أشجار الكافور والجزورين لصناعة الأبواب والشبابيك، فهي وإن كانت تتباعد ألواحها بفعل الشمس مكونة فروج متباينة الاتساع بحيث يتمكن من بالخارج - إذا حد النظر- رؤية من بالداخل.

إلا أن ذلك لا يمثل في مجتمع القرية حرجاً، فالأبواب لا تغلق مصاريعها منذ طلوع الشمس وحتى بعد صلاة العشاء، وبعد ذلك تخلو الشوارع من المارة، اللهم مرور أحد الخفراء ودواب الليل مثل الكلاب والقطط.

*****

خرجت النار، كما أجمع شهود العيان، من دار الريس فواز خفير شركة استصلاح وتقسيم الأراضي التي تمتلك معظم أرضي القرية، سواء التي بنيت عليها الدور أو الأراضي الزراعية، وكان طبيعياً جداً أن يسأل أحدهم الآخر: داركم ملك أم شركة؟!

والحقيقة أن الشركة ما كانت تمانع في أن يستولى أهالي القرية علي مساحة غير مأهولة والبناء عليها شريطة أن يدفع كل صاحب دار مبلغاً سنوياً عن كل عتبة، مقداره قرش صاغ كاملاً رمزاً لملكية الشركة لأرض بيته يحصلها منهم الريس فواز باعتباره خفير الشركة والرجل المسئول عن مصالحها في الدائرة. وتلك هي أوامر السيد ناظر ديوان الشركة التي كانوا يطلقون عليها اسم «التفتيش». توقع الفلاحون- أو هكذا كانت أقصي أمانيهم- أن تدين التحقيقات التي أجرتها أجهزة الأمن الريس فواز وينال

جزاءاً يعصف باستقراره ويستقر به المقام داخل سجن المديرية، ومنهم من كان يدعو الله أن يراجع التفتيش ثقته فيه، فيقوم بخلعه وطرده ويستريح الناس من جبروته وقلة أدبه.

قال علي السفروتي بثقة العالمين ببواطن الأمور- وهكذا حاله دائماً-: ليس بعيداً أن يحكموا عليه بالإعدام أو حتى السجن طوال الحياة، تسبب في تدمير قرية بأكملها وموت خمسة من زهرة شبابها حرقاً واختناقاً في ليلة واحدة، بخلاف الإصابات التي لا يخلو منها بيت، والبهائم التي أكلتها النيران، الكل موجوع وحزين ومكسور، وقد سألت وعرفت ذلك من أناس كبار .

عقب علي كلامه مجموعة منهم: ربنا يسمع من حنكك يا شيخ، هذا الرجل الملعون كابوس علي أنفاسنا.

*****

وخابت الأماني وطاشت الأحلام عندما وجدوا الريس فواز يأتي بعد عدة أيام مبتسماً وكأنه انتصر علي القرية كلها في حرب ضروس، واصفهم بمجموعة من الأغنام والحمير. وكانت الشائعات أكدت في أيام غيابه أن مكروها ألمّ به، وأن مرض الشلل قد أصابه، لأن الحكومة قد كسرت مناخيره ومسحت الأرض بكرامته.

وقال قائل: أنه علم، علم اليقين، أن الريس فواز أصيب بالجلطة، وتوقف قلبه في أول ليلة لدخوله السجن وجثته الآن في مشرحة مستشفي المديرية.

وعلق بعضهم: في ستين داهية.

عندما رآه الناس تبادلوا نظرات الدهشة والاستغراب، وقال بعضهم: استحم وأحلف علي مصحف أن التفتيش تدخل في الموضوع وأخرجوه كما تخرج الشعرة من العجين.

وقال قائل منهم: طبعا ابن التفتيش ورجلهم لابد أن يتدخلوا من أجله..!

وهكذا ارتفعت حالة الغيظ مداها، والتي ولدت حالة من الحزن الأسود والإحباط الشديد ربما فاقت في ذروتها حزنهم علي بيوتهم التي أتلفتها النيران، بعدما أنقذوا ما يمكن إنقاذه من حاجياتهم، فكان لتوقيت نشوب النار المبكر عقب صلاة العشاء ، أن مكَّن الكثيرين من الفرار بأولادهم وكثير من حيواناتهم، إلا أقفاص الدجاج والأرانب داخل جحورها، فقد سلقتها المياه الساخنة من جراء النار، وكثيراً جداً من مخازن الغلال أتلفتها مياه الإطفاء الملوثة التي أغرقت المخازن، ساحبة معها طين السقوف التي تهاوت بعد إحتراق العروق الخشبية.

طحنتهم الدهشة بين شقي رحاها عندما باغتهم الريس فواز بأنه لم يثبت ضده أو ضد أهل بيته أي اتهام. وقال: الفاعل الحقيقي، وبشهادة الشهود، هو الزفت عويس ابن عدويه، فهو يكرهني وهو الذي رمي النار فوق السطح، ولكن ربنا سبحانه وتعالي كشف ستره ورآه للناس.

*****

كتم الواقفون أنفاسهم، ولكن عيونهم جحظت غلاً وحقداً رغم محاولاتهم المضنية إخفاء تلك المشاعر عن عيون الريس فواز التي جعلت تتفرس ملامحهم بوقاحة طافحة.

بعد أن انصرف الريس فواز إلى الخيمة التي حصل عليها من مساعدات الحكومة للمنكوبين في القرية، جعل الهمس يعلو شيئاً شيئًا.

- سبحان الله، يا خلق الله، الولد عويس الغلبان يروح فطيس؟!
- والله العظيم هذا كفر وقلة دين!!
- أين المشايخ كي يقولون لنا ما هذا الذي يحدث؟!
- قلت لك: كفر وقلة دين، ماذا تريد بعد ذلك؟!
- وهل نسكت علي هذا الظلم يا جماعة؟!
- وطئ صوتك. يكفي ما نحن فيه، الحيطان لها آذان!

كان الريس فواز، خفير الشركة بالقرية، صاحب سطوة وسلطان فلا يستطيع أحد من الفلاحين البناء في أي مكان خال بالقرية إلا بإذنه.

وكان إلى جوار سطوته التي منحها إياه «التفتيش» صاحب مزاج مختلف، فقد كان الوحيد بالقرية الذي يشرب الكوكاكولا بغير مرض يلم به كبقية الناس، فقد كان من غير المعتاد بل ويدفع للسؤال عندما يري أحد الأهالي رجلاً أو امرأة أو غلاماً يشتري أو يحمل زجاجة كوكاكولا:

- خير يا فلان، من المريض في داركم؟!

فكان من عادة أهالي القرية عندما يمرض أحدهم يسارع أهله بشراء زجاجة كوكاكولا وتقديمها له كعلاج، والطريف أنه كان يبرأ من علته بعد أن تفشل الوصفات البلدية التي تقدمها الحاجة ضياء النفوس للجميع بالمجان.

كان مزاج الريس فواز يدفعه لإنفاق كل ما تقع عليه يده من نقود، وقد بلغ من حدة مزاجه أن باع البقرة التي يمتلكها وشد الرحال للقاهرة كي يحضر «فرح الملك فاروق»، في زواجه الثانى، وكان من مباهج ذلك العرس أن احتفي الملك بكل من حضر من رعاياه فأمر بتوزيع هداياه عليهم حذاء لكل أفندى يرتدى القميص والبنطال، و«بُلغة» لمن يلبس الجلباب، وكان الناس في ذلك الوقت نادراً ما يلبسون الأحذية والبلغ لارتفاع أسعارها التي لا تناسب حالة الفقر المدقع الذي يرتع كيفما شاء دون رادع. وكانت حكومة النحاس باشا جعلت من محاربة الحفاء مشروعاً قومياً لها.

أما ميسور الحال فكان يلبس فى قدميه «شاروخ»، وهو عبارة عن قطعة من جلد حيوان يتصل به حبل مبروم من التيل يعلو ظاهر القدم.

*****

عاد الريس فواز من رحلته الملكية التي ظلت حديث الناس في زمانه وحتى الآن، وربما اختلفوا حولها، فمنهم من يراها جرأة وتصرف رائع، فقد

رأى ما لن يمكن رؤيته إلى الأبد، ومنهم من يرى ذلك تهوراً وجنوناً وكان يمكن لتلك البقرة أن تكون أساساً لثروة كبيرة ، ومنهم من يقول: مات الناس ونفقت البقر أو التهمتها الأفواه وبقي حديث الرحلة الملكية.

عاد ومعه «بلغة الملك»، وجعل لها رفاً خشبياً بجوار رف المذياع. وكان راديو الريس فواز ثالث ثلاثة بجميع القرية بعد راديو العمدة وراديو محمد السفروتي. وكان جميع أهالي القرية رغم كراهيتهم للريس فواز يتوافدون لرؤية «بلغة الملك»، حتى أن العمدة أرسل في طلب فواز ليرى بدوره «بلغة الملك». فما كان من فواز إلا أن زعق في خفير العمدة قائلاً:

- اذهب إليه وقل له بلغة الملك لا تذهب إلى أحد، حتى ولو كان العمدة.، الناس هم الذين يأتون إليها.

فأسرها العمدة في نفسه لكنه لا يستطيع محاسبته أو الأخذ علي يده فخلفه ناظر ديوان التفتيش، والتفتيش ذاته، وخلفهما الشركة التي يحمي فواز مصالحها بالقرية.

وهناك سبب آخر، ربما أقوي من حماية الديوان والشركة، هو أن الريس فواز رجل يحترف «القتل» حتى صار مهنة يرتزق منها!

وكان يحدد لكل رجل ثمناً حسب أهميته وثراءه وحجم قوته، وكان يتباهي بذلك ويؤكد أنه يرفض قتل رجلاً حسن السمعة. بل كان من غريب عاداته ألا يأكل إلا مع أحد المساكين أو الشحاذين ويعلن أن الله يستره ويوفقه بفضل دعوات هؤلاء، ويقول:

- الغني يسنده غناه وعزوته أما الفقير فسنده الخالق وتلك قوة لايقدر عليها مخلوق.

وكان مما يعجب له الناس في تصرفاته أنه كان يحضر حلقات الذكر ويتماوج يمنة ويسرة، ويبدو الزبد من شدقيه وكأنه غارق في ملكوت الحب الإلهي، وعندما تنتهي حلقة الذكر ينكب علي يد الحاج عبده، شيخ

الطريقة، يقبلها طالباً منه أن يدعو له بالهداية والصلاح، وأن يكف الله ألسنة الخلق عنه، فهم يسلقونه بألسنة حداد ظلماً وعدواناً، فما يكون من الشيخ إلا أن يدعو له بالهداية.

*****

يروي الناس العديد من الأفعال التي لا يفعلها ولا يستطيعها إلا الريس فواز، صاحب القلب الحديدي، ذات يوم شاهدوه وقد جر ذئباً من ذيله ودخل به داره وشق بطنه وأخرج الكبد ثم أكله نيئاً، ومن يومها وهو لا يخشى شيئاً مهما كان خطره..!

وبعد ذلك أخرج أحشاء الذئب، وملأه بالملح حتى جف تماماً وتبخر ما به من ماء، ومازال الذئب موجودا عنده حتى الآن!

وقالوا: أنه ذات يوم وهو في بر الحكومة يتربص لصيد البط البري، طلع له عفريت فضربه فواز بخشبه كانت معه على فخذه فتكوم العفريت أمامه كالأرنب، فذبحه وشواه ودلّك به جسمه فأكسبه قوة لا نظير لها..!

حكايات وحكايات حول فواز وقوته وخرقه للعادات، يذكرها الناس عنه.

*****

بعد مغرب أحد أيام الشتاء الأولى، كانت الليلة المشؤومة، فقد اشتهت نفس الريس فواز أكل الفطير المشلتت... ودون نقاش وكالعادة قامت زوجته وابنتها لعمل الفطير الذي اشتهاه رب الأسرة الذي لا يقبل أعذار مهما كانت الظروف أو الموانع والعقبات!

اشتعل الفرن البلدي، وانتشر الدفء في الدار يحمل معه رائحة الفطير المشلتت، تفوح منه رائحة السمن البلدي، كانت الزوجة تروح وتجيء تحمل علي رأسها اللمبة «الصاروخ» أو اللمبة «اليد»، أو «الشعلة»، كل

تلك الأسماء لزجاجة أو علبة من الصفيح بها فتيل من القطن مليئة بالكيروسين، «الجاز» ـ كما يسميه الناس ـ قليلة الإضاءة كثيرة الغبار لكنها الوسيلة الوحيدة.

وقدمت الزوجة الفطير للريس فواز الذي جعل يلتهمه كأنه لم يأكل منذ سنوات، وكانت تلك عاداته في تناول الطعام، وكان دائماً ما يردد: «كُل أكل الجمال، وقُم قيام الرجال».

تأكدت المرأة من موت النار داخل الفرن، ولكي يطمئن قلبها سكبت بعض الماء علي فوهته. ودون أن تدري طالت نار الصاروخ الذي لا يفارق رأسها أعواد القش المدلاة من الناروزة التي في سقف غرفة الفرن، فاشتعلت في بطء وجعلت تسرح شيئاً فشيئاً، ولا يدري بها أحد فقد كان الدخان يتصاعد الي السماء وسط ظلمة الليل.

وارتفعت النيران في سطح الريس فواز ومعها ارتفعت أصوات النسوة من كل حدب وصوب، بعدها تعالت الصيحات والصفير وهاجت القرية يحاولون كبح جماح النار التي كانت تزداد بصورة مجنونة، ساعد من جنونها هبوب رياح الشتاء.

كان النسوة يملأن جرارهن من الترعة التي تطل عليها القرية، والرجال ينصبون السلالم الخشبية علي الجدران، بينما يقف مجموعة علي الأسطح يلقون بالماء على القش المشتعل، ومجموعة أخرى يقذفون بباقى القش إلى فضاء الشارع، إلا أن النيران كانت أقوى مما اجتمعت عليه القرية، فجعل كل منهم يفكر أمام هذا الاجتياح أن ينقذ داره أولاً قبل أن تطولها النيران التي كانت كما وصفوها: طاقة من جهنم وفتحت عليهم.

بدأ بعض الرجال يتسربون إلى بيوتهم بعد أن أكلت قلوبهم وحشية النار، جعلوا يحملون أطفالهم ونسائهم وعجائزهم وحيواناتهم إلى خارج البيوت، ثم يعودون إلى مواجهة النار، ثم يذهب غيرهم ويعود. وهرع

الخفر إلى بيت العمدة الذي أبلغ نقطة الشرطة، التى أبلغت مركز الشرطة، الذي أبلغ قوات الإطفاء، التي وصلت بعد أن التهمت النيران كل ما تشتهيه!

قبيل بزوغ فجر ليلة الحريق، سمع الأهالي ضجيج أصوات سيارات الإطفاء تقترب من البلدة، وأخذ التعب من الجميع مأخذه، وبدأت النيران تتراجع بصورة كبيرة، يمكن حصرها في بؤر يسهل السيطرة عليها، ولكن بعد أن دمرت كل ما تراجعت عنه..!

إبتسم الساخرون إبتسامة المرارة لمجيء سيارات الإطفاء بعد انقضاء ليلة الاشتعال، أطول ليلة سوداء في تاريخ الصراع مع نيران الحرائق التي تألفها القرى. وقالوا: اسم الله عليهم جاءوا بعد خراب بصرة.

وقال قائل منهم: ليذهب أحدكم ليرجعهم من حيث أتوا ليكملوا نومهم، ويعتذر لهم أننا ازعجناهم!

كان مشهد الحيوانات، من بقر وجاموس وأغنام وماعز وخيول وحمير وهي تقفز تحاول الإفلات من النار يثير الدهشة. أما الدواجن والأوز والبط ، فكانت تثير الشفقة لاشتعال النار في ريشها وهي تتقافز مجنونة مما فيها، بينما شكل الحمام خطراً كبيراً في انتشار النيران والتي كانت تفاجيء الأهالي بتنقلاتها العشوائية، فقد أصابه الدخان الذي ملأ الأبراج بالتخبط والسقوط فوق النار والطيران بها، محاولاً إطفائها ضارباً جناحيه في القش الذي كان يشتعل بصورة لم يعهدها الناس حتي في أشد أيام الصيف حرارة!

أغرب ما شاهده الناس، أن السماء كانت تمطر مطراً خفيفاً في ساعات الحريق، وبدلاً من أن يساعدهم المطر في كبح جماح النيران زادها اشتعالاً وكأن السماء تمطر بترولاً أو كيروسيناً أو مادة تساعد على الاشتعال، وكان ذلك عجباً كبيراً قذف في قلوب الكثيرين أن ما حدث هو انتقام إلهي وغضب من الله يصبه علي القرية صباً، ولا عاصم الليلة من أمر الله .

فقد ضاعت استغاثات طلب الرحمة والعفو والمغفرة والسماح مع ما

أكلته النيران، لدرجة أن هتف هاتف منهم:

- الله لا يستجيب لدعاء الأوساخ فأريحوا أنفسكم، لن يفتح فى وجوهكم الكالحة أبواب السماء، اليوم ستأكل النار قلوبكم، يابلد غجر.

- زعق صوت: ليتخرسوا هذا الكافر المجنون، لطفك يارب، لطفك يارب، نحن ضعاف وأنت القوى اللطيف.

فوكزه أحدهم ودفعه دفعة قوية حتي سقط وسط القش الملتهب. ولولا أن سكبوا عليه الماء لإحترق مع ما إحترق وقد ظل معظم جسمه مسلوخاً لوقت طويل، واطلق عليه الأهالي اسم السلخ، وبمرور الوقت تعود على الاسم الجديد!

لم تستجب السماء لدعاء أحد في تلك الليلة، إلا دعاء الشيخ مصطفي إمام المسجد الذي صعد إلى سطح داره وحمل المصحف الشريف علي صدره وجعل يبكي ويخاطب الله، اليوم أطلب منك البراءة، اليوم أطلب منك البراءة، لقد اتهموني بالفاحشة وأنت تعلم أنني لم أقترف الفاحشة، وحقي عليك اليوم أن تعلن برآءتي..!

وبينما تتساقط دموع الرجل، كانت النيران تقترب من سطح داره وهو يبكي ويطلب البراءة. ورفض أن يخرج شيئا من الدار كما فعل باقي رجال القرية، حتي أطفاله وزوجته، وغلق الأبواب والشبابيك، وظن الناس أن الرجل أصابه الجنون فانتزعوا الأطفال من بين يديه وقالوا: اتركوه وبيته للنار تأكلهما.

واقتربت النار من قش السطح، وكانت الطبيعة تلاصق بيوت القرى وتوحدها في سطوحها، وكأن بيوت الشارع بأكمله سطح واحد.

وكانت المعجزة، ما إن بدأت النار تقترب من أعواد القش فوق سطح دار الشيخ مصطفي حتي تنطفيء دون أن يتدخل لإطفائها أحد، بينما الشيخ يبكي ويدعو: بحق كتابك العظيم، بحق نبيك الكريم، اطلب اليوم برآءتي!

وكانت براءة الرجل.

احترقت أسطح المنازل الملاصقة إلا بيت الشيخ، وكان عجباً وبراءة لم يحتملها قلب الرجل الطيب، فانقطع عن الناس بعد الحريق لثلاثة أشهر كاملة، قال البعض عنه أنه دخل «الخلوة» ، للتعبد وشكر الله علي براءته التي أثلجت صدره بتلك المعجزة.

وكان لعزلة الشيخ سبباً آخر جعله يضيق بالخلق أيما ضيق، بعدما جعلوا يتهكمون علي تلك البراءة مؤكدين أن الذي أنقذ دار الشيخ مصطفي من الحريق ليس براءته مما قالوه عنه ، ولكنه السحر الذي يجيده، وأن الجن هم الذين أطفأوا النيران حول منزله، فحزن الرجل لذلك حزناً كبيراً، ولم يخرج من خلوته التي فرضها علي نفسه إلا إلى قبره.

*****

انتشرت سيارات الإطفاء في خطة رآها قائدها هي الأمثل، وجعل رجال الإطفاء ينفذون ما يؤمرون به بمعاونة الأهالي الذين دفنوا غيظهم وتهكماتهم في صدورهم، ونشطوا رغم الإرهاق الشديد حتي لا يغضب رجال الحكومة.

امتدت الخراطيم فوق الأسطح وفي الشوارع وجعلت المياه تتدفق عبرها بقوة، مما جعل أجزاء عديدة من الجدران لا تصمد تحت وطأتها فتفتت وتحولت إلى طين تسرب إلى أرضية البيوت والشوارع حتي أصبح العديد منها وكأنها برك قذرة.

في مساء اليوم التالي لإشتعال الحريق، فوجيء الأهالي بسيارات حكومية ضخمة تحمل إليهم الطعام والخيام.

وانتشرت الخيام حول القرية حتى امتلأت الأجران والسكك المحيطة مكونة مشهداً غريباً حتى بدت وكأنها معسكراً للجنود.

وبينما كان الناس ينامون ليلاً في الخيام كانت حيواناتهم خارجها، مما

أضاف أعباءً كبيرة على الخفراء في مهمة الحفاظ عليها حتي لا تتعرض للسرقة، رغم تناوب الرجال عمليات الحراسة لتلك المواشي ليلاً مجتمعين في حلق للسهر حول مواقد النار للتدفئة من البرد يحتسون الشاي الساخن وينفثون دخان المعسل.

في الصباح كانت تصطف طوابير الرجال أمام دوار العمدة لاستلام العيش الفينو والجبن الأبيض والحلاوة الطحينية والعدس الأصفر والأرز والفول وغيرها من الأطعمة الضرورية، وكانت كلمات الدعابة والسخرية تنبت وسط ذلك الزحام الحزين، وتعلو الضحكات حتى يضطر العمدة لتوبيخهم أكثر من مرة.

- عيب يا بلد غجر، ماذا سيقول عنا الغرباء؟! فقال لطفي سعدية:

- ماذا سيقولون يا حضرة العمدة، بعد أن علموا أننا غجر..؟!

- اخرس يا حمار. - وهل يتكلم الحمار يا حضرة العمدة؟!

- اخرس يا بارد..!

- زعق شحاته الأعور: الرحمة يا لطفي يا سعدية أنت، وحضرة العمدة، دماغنا وجعنا.

احمر وجه العمدة وتطاير الشرر من عينيه وهتف:

- ماذا تقول يا ابن الكلب يا أعور؟! فما كان من شحاته إلا أن ولى هارباً وهو يقول:

- ماذا قلت؟! يعني غلطت في البخاري؟! وجعل المتجمعون يسترضون العمدة حتي يرضى ويؤكدون له أن شحاته رجل لا يدري ما يقول حتي لا يطلب من الخفر الإتيان به إلى حجرة التليفون وحبسه بها وربما ضربه. فاكتفي العمدة بأن لعن الجميع ونعتهم بأنهم بهائم لا يفقهون شيئاً، بل إن البهائم لها نفع يرجى، أما هم فقد خلقهم الله سبحانه وتعالي بعدما اكتفي.

في المساء كانت حكاية شحاتة الأعور وحضرة العمدة هي عماد الأحاديث ومبعث الضحكات والنوادر.

غالب الحاج عيسى أبو عبد الله ضحكه وهو يقهقه، مظهراً ظلام فمه الخرب إلا من بقايا ونتوءات صغيرة من الأسنان، ولكنه كان خفيف الظل لا يمل منه جلساؤه مهما طال بهم الوقت. وقال:

- لعن الله الزمان الذي ولى، حقا الحرية شيء عظيم يا أولاد.

ثم قال وهو يظهر دهشته:

- شحاتة الأعور ، يرد علي حضرة العمدة..؟! أين هذا من أيام العمدة الكبير؟!

هل كان يجروء كبير أو صغير أن يمر من أمام دوار العمدة راكباً دابته حتى لو كان الوقت ليلاً وجميع من بالقرية نياماً! فخوفه من أن يراه أحد الخفراء راكباً دابته، ويبلغ بذلك حضرة العمدة فيأمر بتعذيبه حتي يفقد عافيته.

أما إذا ضبط الخفر أو حتى كذبوا علي أحد من الأهالي بأنه سرق ولو خيارة خضراء من حقل العمدة فهذه داهية الدواهي، فبعد الضرب الذي لا آخر له يضعون آلة النفخ في فتحة شرجه حتي تمتليء بطنه بالهواء فتمتليء أحشائه بالأمراض الفتاكة، وما هي إلا أشهر قلائل ويقابل رباً كريماً، ولا يستطيع أحد الغضب أو حتي مجرد الكلام في هذا الشأن.

ثم تنهد الرجل قائلاً:

- كانت أياماً سوداء، لا أعادها الله أبداً.

ورغم هذا الرعب الذي كان يبثه العمدة الكبير في نفوس الأهالي، كان الكلافون ومن يسرحون له بالبهائم ويحلبوا ألبانها ومن على شاكلتهم من الرجال المسموح لهم بالخدمة في دوار العمدة وبيته والإختلاط المباشر بالحريم، يفعلون ما لا يمكن روايته، حتي أنهم كانوا ينسبون بعض عيال

حضرة العمدة لأنفسهم.

ومن الطريف أن حضرة العمدة كان يباهي بأنه أتم الشرع وتزوج أربع نسوان، وضعف هذا العدد تملكه يمينه، ويضحك بصوته الجهوري قائلاً:

- وأستطيع كفايتهم، وفوقهن مثل عددهن ثلاث مرات.

ويدهش خلصاؤه ومسامروه لمثل هذا الكلام الذي يردده في مناسبات يخلقها هو بلا داع لها ولا يجروء أحد غيره التكلم بمثل هذا الحديث إلا إذا تكلم هو وقهقه مباهياً بعافيته وفحولته. فما يكون منهم إلا التصديق علي كلامه مؤكدين أن الدم الذي يكاد يقفز من وجهه، هو علامة صادقة وواضحة لفحولته، فينتشي وكأنه يطلب المزيد من هذا الحديث.

والحق يقال إن رجال الزرائب والبهائم والدوار، ما كانوا يفعلون ذلك إلا إنصياعاً لرغبات نساء العمدة وحريمه اللائي لا يمكن بحال رفض رغبة لإحداهن، وإلا كانت قيامة من يرفض ويكون قد حفر قبره بيده. والحق يقال، إنهن كن يتحفن رجالهن بالطعام الطيب الدسم والحلوي.

أما الطريف في أمر النسوة، أنهن كن يخفين ما يفعلن ولا يبحن به لبعضهن البعض، رغم علم كل واحدة تمام العلم بما يحدث مع غيرها. إلا أن شرف نساء حضرة العمدة يحتم عليهن ذلك، وإلا ذبح العمدة من افتضح أمرها، ولا يبالي حتى لو ذبحهن جميعاً، هكذا كن يعتقدن وعليه إتفقن بغير إتفاق.

*****

وعاود الحاج عيسي ضحكه قائلا:

- ماذا قال شحاته الأعور، لحضرة العمدة؟! يعني غلطت في البخاري؟!

والله أنت رجل ابن رجل يا ولد يا شحاته، ولد دكر صحيح..!

كان الرجل يشعر بسعادة بالغة وكأن شحاته الأعور يضمد جراح آبائه واجداده الذين ماتوا بغيظهم وكمدهم وقهرهم، دون أن يجروء حتى على

الاعتراض أو الهرب كما هرب شحاته من وجه العمدة الغاضب. حقاً كانت أياماً سوداء، لا كرامة فيها إلا لقاتل أو قاطع طريق أو صاحب عزة ومنعة.

وفجأة وفي سطوة النشوة، تدارك الحاج عيسى أبو عبد الله إسهابه في التشفي راجياً ممن يجلسون معه ألا يتحدثوا بما سمعوا منه حتى لا يضعوه في حرج أمام حضرة العمدة، فهو رجل كبير ولا يحتمل الإهانات ولا يصح له أن يتكلم في هذه الصغائر.

بل كان الأولى به، وهو الرجل الكبير الباقى من جيله في القرية، وعاصر الأقدمين الذين يعرفون الأصول، ولكنهم ذهبوا جميعا لباريهم أن يصلب طوله ويذهب إلى الحمار شحاته الأعور ويضربه بالبلغة، حتي لا يعود لمثل ما هذي به، في حق حضرة العمدة. وكأن ميراث الخوف والقهر، قد قفز من سحيق أيامه ولياليه فجأة على كاهله الواهن مرة أخرى.

ولما تعهد له مستمعوه وحلفوا بالله إن كلمه واحدة لن تخرج من هذا المجلس، ضحك من جديد وكأنما عاد إليه صباه وقال:

- احلفوا علي بخاري شحاته الأعور، فضج الجميع بالضحك مرة أخري.

وحاول الرجل جاهداً كتم السعال وتهدئة أنفاسه المتلاحقة، قائلاً:

- كفاكم يا ولاد روحي ستفارقني، ثم مسح دموع عينيه المتلاحقة، قائلاً:

- يبدو أنني سأموت الليلة، اللهم اجعله خيراً، فقد ضحكت ضحكاً لم أضحكه طوال حياتي .

ونظر الحاج عيسي إليهم نظرة ذات معني سائلاً:

- هل يعرف أحدكم ، ما هو البخاري..؟!

فدهشوا لسؤاله وقال بعضهم:

- علمنا علمك يا حاج عيسي، بل يجب أن تعرفه أنت، فقد ذهبت للحج وزرت قبر الرسول!

فهمهم الجميع- عليه الصلاة والسلام- اللهم اكتب لنا زيارته، ورد

الجميع بصوت يملأه الشجى والشجن: آمين يارب العالمين.

- وقال خميس ابن الحاج محمد أبو عوض: ألم يقل لك يا علي يا سفروتي أحد الكبار أو الكبار جداً، ما هو البخاري؟!

احمر وجه علي السفروتي وأحس بحرج شديد، وقال ساخراً:

- بل قالت لى أمك يا خميس!

ضحك الجميع ومعهم خميس، وقال:

- وماذا قالت لك أمي يا سفروتي؟!

- قالت لو قابلت خميس ابني اضربه علي قفاه حتي يفهم.

فاتجهت الأنظار نحو بيومي القفا، وقالوا:

- يكفي «قفا» واحد في القرية يا سفروتي، وإلا كانت كارثة.

تجاهل بيومي القفا ضحكاتهم وأتخذ مظهر الجد وقال:

- منذ أن كنا أطفال ونحن نسمع ونرى الكبار يحلفون بالبخاري، لمن لا يصدق الحلف بالمصحف الشريف، ولكننا لا ندري ماذا يكون البخاري هذا..!

- وقال حسان الطيب: سأسأل عنه أسيادنا، مشايخ الحضرة، أكيد يعرفون البخاري، وإذا لم يعرفوا، سأسأل الشيخ عبد الشكور، إمام المسجد.

- وقال الحاج عيسى: لا تنسى وحياة والدك يا حسان، ولكنه تدارك ضاحكاً: وحياة، وحياة ماذا؟! والدك الطيب – رحمه الله- انتهت حياته، علي خير والحمد لله، وأكيد قاعد في الجنة الحمراء.

وعاود الجميع الضحك مرة أخرى بما فيهم حسان الذي قال:

- غداً ستلحق به يا حاج عيسي، وأكيد حاجز لك مكان بجواره.

نظر الحاج عيسى نظرة ذات معنى قائلاً:

- لن أموت قبل أن أدفنكم جميعاً، إن سيدنا عزرائيل، ربنا يخليه ليكم ويحرمنى منه، تركني تقاوي رجالي بهذه القرية الملعونة!

- وقال علي السفروتي: أعتقد أن عزرائيل نسي الحاج عيسى أو شطب اسمه من دفاتر الأحياء معتقدًا أنه قبض روحه منذ عشرات السنين..!

- فقال الحاج عيسى: تعتقد أم أن ناس كبار كبار جداً قالوا لك؟!

- ورد شحاته الأعور: أمنية عمري قبلما أقابل رب كريم أن أرى واحداً فقط من الناس الكبار أصحاب السفروتي.

- فضحك السفروتي هازئاً: ولماذا يا أعور؟!

- فقال الحاج عيسى: لكي يصلحوا عينه العوراء.

*****

كان الحاج عيسى أبو عبد الله فاكهة المجالس، وكانت رؤيته مبعثاً للضحك والسرور لكل من يجلس إليه أو يقابله في الطريق أو الحقل أو حتى المسجد، فقد كان خفيف الظل حاضر البديهة سريع الرد والتعليق الساخر، فعلي مدى سنوات عمره الطويل الذي لا يعرف هو نفسه تاريخ ميلاده الحقيقي، رأي الكثير وعرف الكثير رغم وصفه لهذا الماضي أنها كانت أياماً سوداء، إلا أنه يعود فيؤكد إن نفوس الناس كانت أفضل مما هي عليه الآن، وكان رغم سني عمره المديد يتمتع بصحة جيدة لا تلذ له الحياة إلا في الهواء الطلق خارج جدران المنزل، لا يستسلم للأمراض وكأنه في نزال مع عدو شرس.

يضحك ساخرًا من شباب هذه الأيام الذين يذهبون الي الأطباء ويتناولون الأدوية ويرقدون في البيوت مثل الحريم، يباهي بأنه لم يذهب قط إلى طبيب بل يكرههم. ولم يتناول أية أنواع من الأدوية، وكانت حكمته الأثيرة: «إذا ذهبت إلى الطبيب مرة، ستذهب إليه بقية عمرك».

أما الدواء الوحيد الذي يتعاطاه عندما يلم به مرض ما، كوباً كبيراً من السمن البلدي الدافيء، يشربه ثم يلف رأسه بثوب ويرقد في الشمس حتى يتصبب عرقاً، بعدها ينهض وقد عادت إليه عافيته، أما في الشتاء فكانت

الأغطية الثقيلة المصنوعة من صوف الأغنام ووبر الجمال تؤدي مهمة الشمس.

ويرجع قوة أسنانه إلي غلي أوراق وثمار السنط شديدة المرارة، يتمضمض بها كل صباح وقبل النوم، أما إذا استبد به مرض ما، فكان يذهب إلى الحاجة ضياء النفوس لتصف له الأعشاب الطبية والوصفات البلدية.

علاقة ما رائعة كانت تربط بين حسين والحاج عيسى، يلذ لحسين سماع ذكريات القرية الموغلة في القدم، ويحاول مثل غواص ماهر إستكشاف أعماق ذاكرة الحاج عيسى، بل يستوقفه كثيراً عند تفاصيل دقيقة تجعل الرجل يتعجب لهذا الأهتمام ويعرب عن دهشته ويسأله عن سر ذلك وما فائدته؟! وكان حسين يجيب بأنها مجرد رغبة في معرفة أحوال السابقين.

وكان الحاج عيسي يتلذذ بحلوى «الملبن المحشو» التي يجلبها له حسين في زيارته للقرية، وكان الحاج يسأله فيما سبق عما إذا كان قد أتي بشيء حلو من مصر..؟!

وحار حسين في بداية أمره عما يجلبه للحاج عيسي؟!

وكان الرجل يفرح فرحا طفولياً وهو يبوس الحلوى قبل تناولها قائلاً بشوق جارف:

- مدد، مدد، شيء لله يا سيدنا الحسين.

وكان حسين قد أخبره أنه أتى بالحلوى من باعة الباب الأخضر المجاورين لمشهد الإمام الحسين. حتي أن مجرد رؤية الملبن في أي مكان وزمان، كانت تجلب للرجل سعادة بالغة، حيث يذكره بملبن الباب الأخضر، ويهتف في نفسه دون ترتيب:

- مدد، مدد، شيء لله يا سيدنا الحسين.

بل أن رؤية حسين نفسه، كانت مبعث بهجة روحية لكثير من أهالي القرية، خاصة الدراويش والشيوخ، يتذكرون حيالها آل البيت، سكان مصر المحروسة،

مرددين المثل الشعبي بعد أن يعلنوا حسدهم الجميل لحسين علي تلك النعمة، نعمة الجوار لأضرحة آل البيت النبوي : «لا خاب، من زار الأعتاب».

*****

احتفظت ذاكرة حسين بالعديد من الحكايات الغريبة التي يرويها الحاج عيسى، منذ أن بدأت ذاكرته تحتفظ بأيامه وعاشتها القرية منذ أيامها البكر الأولى.

كانت مواسم الزراعة والحصاد من أشد أيام القرية وطأة علي رؤوس الرجال والنساء والأطفال بالقرية، فى زمن العمدة الكبير، وحسب روايات الحاج عيسي التى علق عليها ساخراً:

- طوال عمر بلدنا ربنا غضبان عليها يروح حاكم ظالم وتفرح الناس وتقول أبواب السماء كانت مفتوحة لدعواتنا ياأولاد. واذا بمن يجىء يمارس نفس الظلم كأنه سبحانه وتعالى خلقهم من نسل أبليس، ثم يقهقه ساخراً: لو سبحانه وتعالى خلق أبليس عقيماً كان أولاد آدم استراحوا من الشرور والفتن والحكام الظلمة.

كان الخفر يدورون على البيوت، منبهين على أن حضرة العمدة سيحرث الأرض في صباح الغد تمهيداً لزراعة القطن، والواقع أن العمدة لا يحرث ولا يحصد، بل كان ذلك معناه أن يتوجه كل فلاح بمحراثه البلدي وبهائمه والعلف اللازم لها، وطعامه اللازم له إلى أرض العمدة ليتم العمل في يوم واحد.

وكان الخفر يتعسفون في مسألة التنبيه على الأهالي، فإذا صادف ووجدوا داراً خالياً من سكانه زعق الخفير بأعلي صوته قائلاً:

- «يا باب الدار، حضرة العمدة سيفعل كذا وكذا غدا»

والويل كل الويل لمن يتخلف أو تمنعه الظروف عن المشاركة، بالضرب والإهانة في «حجرة التليفون»، ثم الذهاب به إلى نقطة الشرطة ثم المركز

مكبلاً بالتهم والأكاذيب التي يكثر شهودها، ولاتفلح دعواته مهما كثرت وانخلع فيها قلبه أن ترد عنه العقاب أو تخفف منه!

ثم يأتي أوان زراعة القطن فتخرج النسوة وفوق رأس كل واحدة طعامها طوال اليوم وفي يدها «المزراع الخشبي» الذي تطعن به الأرض محدثة تجويفاً يسمح بسقوط بذرة القطن لباطن الأرض ثم تغطي البذرة بما استخرجته من قشرة الأرض بكل حذر خشية العصا الخيزران الغليظة التى فى يد شيخ البلد أن تهوى على أجسادهن بلا رحمة.

بعد ذلك يأتي دور الأطفال في مقاومة لطع دودة القطن، منذ طلوع شمس يونيو الحارقة وحتي غروبها، والويل كل الويل للطفل الذي تخطيء عينه رؤية لطعة واحدة أو تكسر قدمه الصغيرة الحافية فوق الحصوات الواخزة الملتهبة بفعل حرارةالشمس شجيرة قطن.

حتى أن الأطفال كانوا يطلقون علي غيط العمدة فيما بينهم «غيط العو»، وكان الحزن يبيت معهم في الفراش صبيحة الذهاب إلى «غيط العو»، ويظلون طوال أيام الدودة ـ كما يطلقون عليها ـ يطلبون من الله أن يهلك العمدة ويأخذه بالموت أو يبتليه بالأمراض ويدمر غيطانه حتى يستريحوا من العذاب.

ولكن ماحدث أنهم كبروا وأصبحوا رجالاً ونساءً ومات معظم آباؤهم، والعمدة سليماً معافى يمارس الجبروت، فكانوا يؤكدون لأنفسهم إن الله سبحانه وتعالى سيطيل فى عمره أكثر وأكثر حتى يذله الكبر والعجز والأمراض ويشتاق إلى رضاهم عنه ويتودد اليهم أن يسامحوه فيما فعله بهم، وكان ذلك يلقى إرتياحاً فى نفوسهم وكأنه عهداً مع الله لن يخلفهم إياه! ومات العمدة بعدما جاوز التسعين بسبع سنوات دون أن يتحقق لهم ماأملوه، وخلفه إبنه.

وتمر أيام الشمس الحارقة فى شهرى يونيه ويوليو التى تشوى وجوه

الأطفال، وتصل إلى سبتمبر الذي يكوي وجوه الصبايا لتعيش القرية أيام جني القطن لتتورم حافظة نقود حضرة العمدة بأوراق البنكنوت، وتتورم أجسام سكان القرية بالأمراض.

ما يحدث مع محصول القطن، هو نفسه ما يحدث مع غيره من المحاصيل، مثل الأرز والقمح وغيرها. لا تغير إلا في حجم الأدوار التي يؤديها الرجال والنساء والأطفال، حسب طبيعة كل محصول.

يروي الحاج عيسى أبو عبد الله حكاياته في زمن العمدة الكبير، قائلاً لحسين:

- كنت في شبابي ضعيف البنية، لا أطيق العمل بالحقل طويلاً، وكنت أطبق المثل «إذا غلبك الهم، وزعه علي الأيام»، ولكن أيام العمدة الكبير كانت سوداء لا يمكن توزيعها، فإما عمل السخرة الذي يفوق احتمالي أو الإهانة والمصائب، وكنت وحيداً ليس لي في القرية سوى زوجتي ولم أكن أنجبت بعد. فشكوت ذلك لشيخ البلد الذي يتولى مهام غيط العمدة وشئونه، وكان رجل - الله يسكنه الجنة الحمراء- غليظ جاف، فقال لي:

- وماذا تدفع إذا أعفيتك من العمل في غيط العمدة؟

- عيناي لك يا شيخ البلد.

- عيناك هذه اجعلها جحراً للفئران، لا حاجة لي بها، ورحمة بحالك سآخذ منك التموين الشهري من الشاي والسكر.

- طوال السنة.

- لك الحرية في أن ترفض.

وكان شيخ البلد، أسكنه الله الجنة الحمراء، يأتي كل أول شهر يأخذ «تمن الشاي وقمع السكر» بعد أن أصنع له كوباً من الشاي دون أن أقترب من التموين الذي يأخذه. وكان كوب الشاي مقدساً عنده لا يتنازل عنه أو عمله من التموين!

وذات مرة تعذرت الظروف ولم أجد ما يصنع الكوب وأستأذنته أن يسمح لي هذا الشهر فقط بعمل كوب الشاي من التموين، فإذا به يهيج زاعقاً: ستضيع بركة التموين يا حمار، وإذا بيده ترتفع في الهواء، حاملة عصا الخيزران، ولولا أن قفزت من أمامه لسقطت فوق رأسي!

ويضحك الحاج عيسى قائلاً كلمته المعتادة:

- إيه، كانت أياماً سوداء. وأكمل قائلاً: ليس معني ذلك ألا أذهب إلى غيط العمدة بل أحمل المحراث وأسحب البهائم وأذهب مثل كل الرجال، وحضرة العمدة يقف علي رأس الحقل ليرى من غاب ومن حضر، وكنا نرفع إيدينا بالتحية رغم ما نحمل:

- صباح الخير يا حضرة العمدة.

- صباح النور يا حمار.

ويضحك الرجل منا وينزل إلى الغيط وما أن يبدأ العمل حتى يأتي شيخ البلد ثم يزعق فيّ:

- ما هذا العمل؟! أنت فلاح أنت؟! ثم يقوم بصفعي قائلاً: إذهب إلى دارك ، أقعد مع النسوان.

ويبتسم الحاج قائلاً: وبمثل هذه الطريقة ، كان يتم إعفائي من العمل في غيط العمدة.

وإذا سأل العمدة عن سبب طردي، يبرر شيخ البلد له ذلك بأنني لا أجيد العمل ، وسأتسبب في كسل باقي الفلاحين، او يختلق له عذراً مقبولاً عنده، ويردف ذلك بالدعاء عليَّ أن يأخذنى الله .

*****

ذات صباح، وبينما يقف رجال القرية في طابور استلام المعونات الغذائية التي ترسلها الحكومة يومياً، ضج الواقفون بالضحك حتى دمعت عيونهم عندما رفع الشيخ عبد العاطي جلبابه ليتلقي في حجره المعونات، فظهر

سروال زوجته المنقوش بالورود الحمراء والصفراء..!

وأقسم الرجل وهو يغالب خجله بالضحك أنه ارتدى السروال في الظلام ولم يتعمد ذلك.

وكان سروال زوجة الشيخ عبد العاطي المنقوش هو حديث المتسامرين حول الخيام وداخلها، ودارت الكلمات والضحكات التي تغمز وتلمز. وقال لطفي سعدية وهو يخرج دخان المعسل من فمه وكأنه «كانون» مشتعل:

- الحق يقال أن السادة المشايخ، أسيادنا في كل شيء.

- فرد شحاته الأعور: دعونا يا جماعة من هذا الكلام الفارغ، الشيخ قال أنها غلطة سببها الظلام .

- وقال السفروتي: يا خلق الله، وهل أكلتنا النار إلا من هذه الأفعال، والله العظيم يا جماعة حضرة العمدة ذات نفسه ظل يضحك حتي دمعت عيناه.

وتعاهد بعضهم بمتابعة الرجل، حتى إذا رأوه يستحم في الترعة، تأكدوا أن ما حدث ليس مجرد غلطة في ارتداء الملابس وسط ظلام الخيام، كما قال، وإنما قد حدث ما حدث.

وكانت مياه الترعة، رغم البرد القاسي هي المتاح الوحيد للاستحمام طوال شتاء الخيام. وقد ظل الكثيرون منهم بدون استحمام حتى انقضى فصل الشتاء. وعليه تأجلت عمليات غسيل الملابس، حيث كان نشر الملابس المغسولة يثير الشبهات حول أصحابها.

الشيء الوحيد المسموح، بل والضروري في شتاء الخيام ـ في مسألة الغسيل ـ هو الملابس الثقيلة مثل جلاليب الصوف والعباءات، وتسمي هذه العملية «تطويب الهدوم»، فالمعتقد أن عدم تطويب الملابس، أي عدم غسلها في شهر «طوبه» يجعلها أسرع إلى التلف.

*****

ظل أهل القرية لسنوات طوال، يشعرون بغصة تجاه العمدة ويحملون في صدورهم غضباً يعلنون عنه، فيما بينهم، عندما تأكدوا بأنه وقف حجر عثرة أمام رغبة المسؤلين في إعادة بناء القرية بالطوب الأحمر والأسمنت المسلح.

وكانت الحكومة أعلنت اهتمامها بالفلاحين بعد طرد الملك من البلاد وسيادة قانون النظام الجمهوري، ولكن العمدة أكد في التقرير الذي أعده عن حجم الكارثة، أن القرية وإن دمرها الحريق وشرد أهلها في حينه، إلا أنهم أثرياء ويمتلكون الأراضي الزراعية بمساحات كبيرة تمكنهم من إعادة بناء منازلهم بشكل جيد.

واعتمد رجال الحكومة كلام العمدة، دون أن يكفلوا أنفسهم عناء سؤال الأهالي أو مراجعة حيازاتهم الزراعية، أو مجرد النظر بعين الاعتبار لتصرفات هؤلاء «الأثرياء» وما يلبسون أو يأكلون وهم الذين ظلوا يشكرون الحريق وهم يضحكون حين جاءت سيارة الطعام اليومي.. تحمل بعض الفاكهة. فكان يوم عيد كبير رقص له الكبار والصغار، فقد حصل كل فرد منهم علي برتقالة كاملة وأصبع موز، وظلوا يبوسون الفاكهة ويرفضون تناولها إلا بعد التمتع برؤيتها وشم رائحتها، حتى أكد لهم رجال الحكومة، والضحكات الساخرة تملأ أشداقهم، أن ذلك سيتكرر غداً.

بطبيعة الحال كان عمدة القرية يستولي علي قدر كبير من الطعام، خاصة الأطعمة الجافة والمعبأة مثل العدس والفول والأرز والزيت والسمن، وخصص لتلك الكميات الهائلة عدة غرف في بيته الكبير الذي لم تطله النار لعدم التصاقه ببيوت الأهالي.

وقد جن جنون العمدة حين رأي الموز والبرتقال، وسأل رجال الحكومة لمن هذه الفاكهة؟! وعندما أكدوا أنها للتوريع علي المنكوبين من أهالي القرية إحمر وجهه وقال في سخرية غاضبة:

- الحكومة لها أفعال غريبة ! هؤلاء البهائم يأكلون الموز والبرتقال؟!

وكاد يستولي على ما في السيارة رغم كثرته، ولكن رجال الحكومة أكدوا له أن ذلك سيكون كارثة عليهم إذا انتشر الخبر، فاتفق معهم على صرف برتقالة واحدة وإصبع موز واحد لكل فرد، وبذلك تنتهي الأمور بسلام.

وكان العمدة يفرغ ما تحمله سيارات الأغذية في منزله أولاً، ثم يمسك في يده كشف بأسماء العائلات وعدد أفرادها ويأمر الخفراء بتوزيع ما يراه هو لازماً وكافياً.

وكان رجال الحكومة لا يعترضون، فالعمدة يقدم إليهم الأطعمة الساخنة الدسمة والشاي والقهوة ويحملهم بخيرات الريف كهدايا لأولادهم، ويكفيهم شر البهدلة مع الفلاحين، كما كان يقول لهم .

ولم يعترض الأهالي، فهم لن يدفعوا ثمناً لما يقدم إليهم من أطعمة أو أغطية أو خيام، ولا يطمعون في المزيد، فلم يتوقعوا أبداً أن تفعل معهم الحكومة هذا، وما تعوده آباؤهم في كوارثهم قبل ذلك.

كان عدد قليلٍ من الأهالي يشكلون منغصاً للعمدة، فيستميلهم بزيادة الكميات الغذائية خفية!

منهم الريس فواز الذي هدد علناً أنه لن يتنازل عن حقه في أغذية الحكومة. فهمس إليه العمدة، أنه لن يمانع في أي كمية يريدها، ولكن بعد انصراف الناس، وأن يكون ذلك سراً بينهما.

رجل آخر كان العمدة ينفخ ويزفر عندما يراه قادماً ويهمس:

- جاء من يريد ابتلاعنا، لعنك الله يا جرجس الزفت، بطنك أوسع من الجرن.

كان المعلم جرجس لا يخشى العمدة مثل باقي الأهالي فهو رجل مثقف- كما يصف نفسه، ومن الخسارة أن يعيش وسط هؤلاء البهائم- فقد كان يقرأ ويكتب ويجيد كتابة البلاغات لنقطة الشرطة والمركز وربما أرسلها

بالبريد لوزير الداخلية والرئيس عبد الناصر نفسه إذا تطلب الأمر. فكان العمدة يخشى أن يعلم جرجس بما يخبيء العمدة في غرف الأغذية.

ويحاول بشتى السبل إسدال ستار السرية السميك علي ذلك الخزين المسروق من حق الأهالي، وكان يسترضي المعلم جرجس الذي لا يقنع إلا بعد جهد جهيد، وكانت تفزعه نظرات الشك والريبة التي تملأ عيونه الجاحظة، التي تقول :

- هناك أغذية مخبأة ، فما يوزع على الأهالي لا يتناسب مع ما كانت تحمله سيارات الحكومة!

*****

في الصباح التالي ليوم الموز والبرتقال، انتظر الجميع منذ وقت مبكر وصول سيارات الحكومة بالفاكهة الجديدة. وسرت شائعة بينهم أن الفاكهة اليوم ستكون ضعف ما تسلموه بالأمس، وسيكون لكل فرد إصبعي موز وبرتقالتين كاملتين.

أقسم أحدهم أن بعض رجال الحكومة همس له بذلك، على أنه سر لا يحب البوح به حتي لا يتكالب الناس وتحدث المشاكل، ولكن قلبه لم يستطع أن يحتمل تلك الفرحة وحده فأراد للجميع أن يفرحوا مثله.

تأخرت سيارة الفاكهة، وبدأ القلق ينشر ملامحه على تضاريس الوجوه المنتظره .

- تهامسوا فيما بينهم: اللهم إجعله خير!

عندما ازداد تأخر سيارة الحكومة عن موعدها المألوف بشكل يدعو للتساؤل، بدأت التخمينات تفرش عباءتها، توقعوا أن تكون السيارة تعطلت في الطريق، أو قلبت في أحد المصارف أو الترع، واقترح أحدهم أن يمشطوا الطرق بحثاً عن السيارة المقلوبة قبل أن يتلف ما بها أو يستولي عليه أحد.

قالوا كثيراً واقترحوا أكثر، لكن الشيء الوحيد الذي غاب عنهم، أن صباح

الموز والبرتقال هو آخر صباحات المعونات الحكومية لهم.

كان أكثر من بالقرية حزناً- رغم عدم إعلانه ذلك كباقي الأهالي- هو حضرة العمدة، عندما اتصل بمركز الشرطة الذي اتصل بدوره باللجنة المختصة بأغذية المنكوبين، وأخبروه بأنه بناءً على تقرير العمدة، أن أهالي قريته ليسوا فقراء ويمكنهم إعادة ما أتلفته النار بسهولة، فقد رأت اللجنة الاكتفاء بالمساعدات الغذائية التي استمرت قرابة الشهرين، بل طالبوه بجمع الخيام، ممن ينتهون من إعادة بناء منازلهم، وتسليمها لمندوب اللجنة في الوقت المناسب.

وقف العمدة في شرفة منزله بعد أن تجمع الأهالي بناء على أوامره، وقد ملأه الغضب وجعل ينفخ ويزفر ويعلو صوته الجهوري:

- حذرتكم من سوء أفعالكم الغبية، قلت لكم ستفضحونا وسط الغرباء، قلت لكم كونوا بشر لا بهائم، ولكنكم فضلتم الغباء والجهل! وكانت النتيجة أن غضب رجال الحكومة وقرروا منع المعونات عنكم لأنكم غجر ولا تستاهلوا بصلة ناشفة. واعلموا أن الحكومة تريد الخيام، فأسرعوا في تجهيز بيوتكم حتى لا تجدوا نساءكم في العراء، مفهوم..؟! اذهبوا إلى بهائمكم يا بهائم.

ثم انصرف إلى داخل المنزل، وترك الناس في صدمة كبيرة، جعلوا يتبادلون نظرات الدهشة والاستغراب وهم يضربون كفاً بكف، ويرددون: لا حول ولا قوة إلا بالله.

لم تقتصر سرقات العمدة القهرية للقرية سواء بالعمل بلا أجر في حقله، أو سرقة معونات كارثة الحريق. بل هناك أنواع أخرى من السرقة لم تشغل الناس كثيراً هي سرقة أصواتهم الانتخابية، حيث يأتي وافد المدنية الأستاذ المرشح لمجلس النواب قاصداً دوار العمدة، يلتقي معه لبعض الوقت يدفع له قدر ما تحت يده من أصوات، ويأتي يوم الانتخاب، وكانت الجمعية

الزراعية هي مقر اللجنة، فيذهب العمدة وأمام الباب يضعون له كرسياً ويحملون إليه الشاي والقهوة، وعلى منضدة المشروبات يضع العمدة علبة السجائر التي لا يقدر على شرائها سواه. ثم يتوافد الأهالي، والويل كل الويل لمن تضطره الظروف عدم الذهاب إلى لجنة الانتخاب. يقوم الرجل منهم بتقبيل يد العمدة، الذي يأمره:

- «عَلّم على رمز كذا يا حمار» فيرد ضاحكاً: أوامرك يا حضرة العمدة.

أيضاً كانت أوامر العمدة تتحول إلى رجاء مع القلة القليلة من رجال القرية الذين يشكلون منغصاً وحجر عثرة نحو إكتمال غطرسة القوة التي يحلم بها دائماً.

فكان يداهنهم بكلمات معسولة ونظرات الود، بل ويعتدل في جلسته علي الكرسي، وربما وقف وهو يصافحهم قبل دخول اللجنة الانتخابية.

أما باقي الخلق من مسلمين ومسيحيين، فالأوامر وتقبيل الأيدي، ووصفهم بالحمير، ثم ابتسامتهم وضحكات الرضا التي يظهرونها كواجب قومي لابد وأن يؤدونه لحضرة العمدة وهو جالس على الكرسي واضعاً ساقاً فوق أخري.

٤

نكسة الانتصار ورصاص الشهداء

بعد ثورة عارمة من الغضب والحنق وسيل الشتائم التي وجهها العمدة إلى الأهالي، ابتلعته جدران بيته ولم يظهر بعدها لعدة أيام؛ ففرح الناس فيما بينهم لهذا الغياب الذي أراحهم من غلظته، ولكنهم تساءلوا عن السبب، ولما فشلوا قالوا: صلاة الجمعة ستظهر الصيف من الشتاء.

كانت المفاجأة الكبرى أنه لم يحضر إلى صلاة الجمعة في المسجد التي تعود عليها مع الناس منذ زمن طويل. فجعل البعض يفسرون ذلك بأن شدة الانفعال أصابته بمكروه وما عاد يستطيع الخروج، وماهى إلا أيام ويقابل رب كريم، وارجعوا سبب ذلك إن أبواب السماء كانت مفتوحة واستجاب الله لدعاء الناس عليه.

ما زاد الناس حيرة هو الاختفاء المفاجىء لشيخ البلد أيضاً، حتى أهل بيته لا يعلمون أين ذهب!!

كثرت الأقاويل، وانقلبت حالة الارتياح للغياب إلى حالة من التوجس، ثم الخوف وضياع الأمن والطمأنينة، وجعل الناس ينظرون لبعضهم البعض بوجل، وعلى ألسنتهم سؤال واحد:

- ما العمل؟! ماذا سنفعل؟! صحيح كان قاسياً غليظاً ، لكنه يدبر أمورنا، يجعل لنا هيبة ومنعة في البلاد المجاورة، بل يحبونه حباً كبيراً، ويحبوننا لأجله، ربما لصوته الجهورى وبسطة جسمه، وأنه لا يخشى عفاريت الليل كما يقولون.

وكانوا ينسجون حوله الحكايات ومايشبه المعجزات ولايرضون بغيره

حكماً في خلافاتهم.

قالوا عنه أنه جوادٌ كريمٌ على أهل القرى المجاورة ، حتى لو اضطره ذلك لأخذ اللقمة من أفواه مساكين أهل قريته، ولذا أحبوه وشب أطفالهم على حبه.

ولم يجد أهالي القرية بداً من إظهار حبهم له، حتى أحبوه، وأظهر غيابه هذا الحب كالطفل يكره قسوة أبيه فإذا غاب عنه بكى.

شعر الأهالي بالغربة وكأن الدنيا خلت إلا منهم، وكأنهم في انتظار خطر مفاجىء سيلتهمهم جميعاً ولا طاقة لهم به! رغم أن آثار الكرباج وعصا شيخ البلد الغليظة مازالت شاخصة على بعض الأجسام!

وامتلأت البيوت بحالة من الحزن والخوف ودعوا الله ألا يكون قد أصابه مكروه، فقد استطاع أن يجعل أقدار الناس تتعلق بقدره وخاصة الفقراء الذين يعملون عنده في زراعة الأرض رغم اغتصابه المستمر لحقوقهم لكن ليس أمامهم سواه، حتى تعودوا ذلك فأصبح هو الذي يفكر وهو الذي يطعم ويمنح ويمنع، ومن هنا كان غيابه متاهة لا طاقة لعقولهم الإهتداء إلى الخروج منها.

وكانت الفرحة قد عرفت طريقها لقلوبهم كبيراً وصغيراً، ليس لتذوق طعم الفاكهة الحكومية بالمجان للمرة الأولى في حياتهم، وإنما للأخبار السعيدة التي يبثها راديو حضرة العمدة لما فعله عساكرنا الأبطال في سيناء بجيش العدو الإسرائيلى، وسقوط طائرات العدو محترقة فوق الرمال وكأنها دود القطن بعد رشه بالمبيدات، وكان اليهود قد غرتهم قوتهم الكاذبة وبدأوا الحرب علينا- كما يقول الراديو-.

- هنا القاهرة: اليوم أسقطنا سبعين طائرة من طائرات العدو الصهيونى في ساعات محدودة.

- هنا القاهرة: استطاعت مدفعيتنا تدمير آليات العدو على طول

الجبهة، وكانت جنودهم تهرب كالجراد أمام جنودنا البواسل.

- هنا القاهرة: منذ عدة ساعات تمكنت قواتنا الباسلة من إسقاط ثلاثين طائرة للعدو الغاشم.

وأقسم على السفروتي: أن أناس كبار جداً جداً أخبرونى أن عساكرنا حرروا القدس الشريفة وأن جمال عبد الناصر بنى بيتاً كبيراً في منطقة الفاجولة- يقصد الفالوجة- ورفع عليه العلم المصرى، وهى المنطقة- كما أكد الكبار جداً جداً- التي حاصره فيها عساكر اليهود زمان سنة ٨٤ أيام الملك الفاسد، فأراد أن يغيظهم ويرد لهم الصاغ صاغين (يقصد الصاع صاعين).

- هتف الجميع: يعيش الرئيس جمال عبد الناصر، يعيش الرئيس جمال عبد الناصر، فابتسم لهم العمدة من نافذة البيت فهتفوا: ويعيش حضرة العمدة!

- وتمتم شحاتة الأعور: ورادون- يقصد راديو- حضرة العمدة، فابتسم الناس له ، وقال بعضهم: لسانك طويل ، ولكن دمك خفيف يا ملعون.

وكان راديو شيخ البلد، قد ظل الناس يستمعون إليه سنوات وسنوات قبل أن يلتهمه الحريق، ترقص قلوبهم طرباً مع أغانى الثورة التي أطاحت بالملك الفاسد- كما يقول الراديو- منذ خمسة عشر عاماً، يجتمعون على مصطبة دار شيخ البلد ما بعد صلاة العشاء لأكثر من ساعتين وأحياناً ثلاث ساعات خاصة في ليإلى الصيف.

كان لإذاعة أخبار الانتصارات وقع السحر على النفوس، فلم يؤثر الحريق مع ضراوته في كسر حالة الضحك والبهجة، فجعلوا يهتفون بحياة الثورة ورجالها قاهرو الأعداء، ونسوا الهتاف القديم «عاش الرئيس محمد نجيب» كأنهم لم يهتفوا به قبل ذلك، ولم يذكروا متى استبدلوه بعاش الرئيس جمال عبد الناصر، يشكرون الله على النصر، ويشكرون حضرة العمدة لأنه سمح لهم بشرف التجمع أسفل نافذة بيته الكبير الذي لم تطله النار أبداً، رغم

احتراق القرية عدة مرات لبعده عن بيوت الأهالي والحراسة الدائمة حوله من الخفر، وذلك لسماع راديو العمدة، بل إنه ذات يوم أخذته نشوة الفرح بالإنتصارات وأخرج لهم مجموعة من قلل الماء ليشربوا منها، كما يشرب العمدة وكبار عائلات القرية.

ساعتها أقسم بعضهم بأغلظ الأيمان- أظنه شيخ المسجد- إن قلل حضرة العمدة مُلأت من مياة أنهار الجنة.

فهمس شحاتة الأعور لمن بجواره:

- أنا شفت رضوان وهو يملأها!

فوكزه في جنبه هامساً:

- أسكت يا حمار.

وكانت أوامر العمدة قد صدرت إلى شيخ الخفر أن ينادي في خيام الحريق بأن يتجمع الأهالي تحت نافذة بيته ليسمعوا ويسعدوا بخسائر اليهود ويشاركون العمدة فرحته.

*****

هلل الناس طرباً مرة أخرى حين تراءت لهم من بعيد سيارة الحكومة تثير غبار الطريق، وهتفوا من جديد لزعيم الثورة وقال بعضهم:

- قلبه الكبير لا يمكن أن يتركنا هكذا جوعى أو يسترد الخيام التي تسترنا.

- وقال على السفروتي: ناس كبار جداً جداً قالوا لى : إن المباحث السرية حققت في كلام العمدة ووجدته غير الحقيقة فسجنوه، ومعه شيخ البلد وعادوا بالأكل من جديد.

كان شبح السيارة وسط الغبار هذه المرة كبيراً على غير ما تعوده الناس، إلا أن الحقيقة تجلت بدهشة لم تفلح معها التخمينات، فقد ظهرت هياكل عدة سيارات تتبع السيارة الأولى، فتجمع الناس وفزعوا هاتفين:

- استر يارب ، استر يارب !

وعلا صوت أحدهم:

- خير يا سفروتي، تكلم؟

ما فزع الناس له هو مشهد مجموعة الجنود الذين يعتلون صناديق السيارات، وقد وجهوا فوهات بنادقهم تجاه الأهالي.

اقتربت السيارات، جعلت تهدأ من سرعتها، حتى توقفت تماماً.

سأل ضابط شاب يبدو من منظره أنه رئيس المجموعة القادمة، عن اسم القرية إذا كان ينطقه صحيحاً أم لا؟... ثم قال ضجراً:

- أين العمدة؟ أين شيخ البلد؟ شيخ الخفر والخفر؟

كان الحزن ثقيلاً فوق تضاريس وجهه، وسهام نظراته الحادة تتفحص وجوه الأهالي الفزعة في صرامة مخيفة.

لم ينتظر رداً من أحد وكأنه يحدث نفسه، وزعق ضجراً:

- فوضى في كل شيء ، وسوء تقدير وانعدام الشعور بالمسئولية!

كان الناس يتبادلون نظرات الدهشة ولا يعرفون ماذا يقولون أو يفعلون؟

أشار الضابط الشاب بيده، فإذا بفوهات البنادق تتجه ناحية السماء، تتبعها عيون الأهالي التي ما كادت تتسرب إليها الطمأنينة بعض الشىء، لتغيير اتجاه البنادق حتى باغتهم الرعب وكأنه مخالب الموت حين أشار الضابط بيده مرة أخرى، فإذا بالجنود يطلقون الرصاص دفعات متلاحقة في الفضاء الأعلى.

انخلعت القلوب، وقع البعض على قفاه أرضاً، حاول البعض الفرار، لولا كلمات حازمة للضابط وقفت حاجزاً حديدياً أمام فرارهم.

*****

فيما بعد كانت تلك اللحظات المميتة، رغم ما أعقبها من أحزان قاتلة

دامت طويلاً، مثار سخرية تارة من صرامة الضابط المتجهم، وقالوا:

- كان الأولى بهذه الطلقات صدور الأعداء، وليس صدر السماء!

بعضهم قال:

- عم الحاج فلان، وعم فلان- الله يرحمه - وفلان، قد فعلوها على أنفسهم وأنه رأى البول يتسرب تحت أقدامهم بعينيه التي سيأكلها الدود، وكان هو ممن انهارت سيقانهم فوقعوا على الأرض، وقال البعض:

- إن كثيرين من شباب البلد قطعوا الخلف من يومها ولم ينجبوا إلا بعد سنوات.

زعق الضابط الشاب فيهم بكلمات متلاحقة كطلقات الرصاص، أرجوكم اهدأوا فالأمر خطير والوقت قصير ويجب أن ننتهي من دفن جثامين الشهداء سريعاً، فأمامنا عمل شاق.

استجمع الأهالي ما تبقى من قوتهم وسألوه:

- ماذا؟ ماذا تقول يا باشا؟

لم يكترث لسؤالهم وأخرج من جيب سترته الميري ورقة عريضة و طويلة وجعل يقرأ اسم كل صاحب نعش مسبوقاً بلقب الشهيد، وكأنه يتأكد للمرة الأخيرة إن الأسماء صحيحة وأنهم من أبناء هذه القرية ولم يحدث خطأ أو غلط فيها.

اقتربت السيارات حثيثاً من منطقة المقابر وأمامها الرجال يهرولون لفتح عيون الترب، وقد هجمت على ذاكرتهم أيام الطاعون، فتحوا القبور ليدفنوا فيها الأفراح والضحكات وأكاذيب الإنتصارات.

كان الحدث أكبر من الحزن عليه، كان القهر يعتصر القلوب ويعصف بالعقول، فكانوا يعملون في دفن الشهداء وكأنهم آلات تتحرك لا علاقة لهم بما يصنعون، وكأن مشاعرهم تجمدت أو فارقتهم.

عيون فزعة ووجوه محتقنة إلى حد السواد، ولا تعليق إلا قول بعضهم:

- يا خسارة شباب البلد! بينما بحار مآقيهم فاضت بماء الدموع الذي تسكبه دون توقف.

*****

الذي أدهش الناس وتنبهوا له فيما بعد، أنهم وجدوا العمدة وشيخ البلد وشيخ الغفر والخفر وقفوا أمام المقابر، في انتظار قدوم سيارات الميرى تحمل نعوش العساكر. وعرفوا فيما بعد أن إشارة عاجلة جاءت في منتصف الليل تطلب العمدة وشيخ البلد لأمر عاجل جداً، وسري جداً جداً، ولا يحتمل التأخير حتى الصباح، فأخذ معه شيخ البلد وذهب دون أن يخبر أحداً، طاعة للأوامر السرية.

وكانت المهمة أن يتعهد العمدة وشيخ البلد بتمهيد الأمر للأهالي حتى لا يحدثوا ضجيجاً أو فوضى، ما أحكمت سورة الغضب طوقها حول عنق الأهالي، خاصة أهالي الشهداء، وكان رد العمدة:

- لا يوجد عندى من يفعل شيئاً دون إذني حتى لو كان الموت.

*****

بعد إهالة التراب على أفواه المقابر وإحكام إغلاقها، صدرت الأوامر فاصطف الجنود صفاً واحداً، نكسوا فوهات البنادق إلى الأرض، أطلقوا حسب الأوامر إحدى وعشرين طلقة.

انصرفت السيارات، ولكن فوهات البنادق ظلت مصوبة تجاه صدور الأهالي خوفاً من أى تجاوزات حتى خرجوا من القرية، فأنفجرت الأحزان بكل صنوفها تفتك بالصغير والكبير سواء في ذلك من دفن لهم شهيد أو من ينتظر قدوم شهيد.

*****

للمرة الأولى يرى أهالي القرية حضرة العمدة والدموع تتساقط من

عينيه وتغلفه حالة حيرة وارتباك، فأصابهم رعب أقوى من الاحتمال!

يروح ويجيء في الباحة التي تعلو سلم بيته الكبير يضرب كفاً بكف مردداً:

- عليه العوض ومنه العوض، جمال عبد الناصر؟! أمر لا يمكن تصديقه أبداً بل مستحيل، لا يمكن إنه جمال عبد الناصر فكيف؟! إنه قوتنا ورزق أولادنا وعقولنا التي تفكر، وأرواحنا التي نعيش بها، لا يمكن أن يُهزم أو حتى يموت والعياذ بالله وإلا ماتت مصر وقامت القيامة!

وكان العمدة قد أمر بإحضار الأهالي على وجه السرعة كبيراً وصغيراً رجالاً ونساءً.

- قال: جمعتكم لنرى ماذا سنفعل في تلك المصيبة؟

- رد الجميع في ذعر بالغ: ماذا حدث يا حضرة العمدة؟ هل قتل اليهود باقي شباب البلد على خط النار؟

- لو حدث لكان الأمر سهلاً!

- وماذا أفظع من ذلك يا عمدة؟

- ما حدث هو أن الرئيس، الرئيس جمال عبد الناصر يريد أن يتنحى !

- يعنى ماذا يريد؟

- يريد أن يترك الحكم.

جحظت عيون الأهالي وقد صدمتهم المفاجأة ورد الجميع دفعة واحدة وكأنه اتفاق بينهم:

- يا نهار أسود!

هبط العمدة من علياء سلالم البيت الكبير ووقف وسط الأهالي يحاول احتواء الموقف، والخروج برد فعل إيجابي.

- سأله أحدهم: وماذا يقول الراديو عن الناس في مصر يا حضرة العمدة؟

- الراديو يقول إن المظاهرات ملأت الشوارع ترفض التنحي.

- فقال الناس وكأنه اتفاق بينهم: ونحن نرفض التنحي ولو كان ثمنه أعمارنا جميعاً، وليس أعمار أولادنا على الجبهة.

- زعق أحدهم وهو يغالب البكاء: أكيد حصل خيانة لجمال، جمال لا يمكن أن يغلبه أحد، مهما كانت قوته.

- فقال العمدة وكأنه يسخر منهم: ومن الذي يسمع عنكم أو يسمعكم؟

- قال على السفروتي: نروح الإتحاد الإشتراكي يا حضرة العمدة، ساعتين ثلاثة من المشي لن يضروا أحداً، عبد الناصر يستحق أن يمشي الناس من أجله طوال أعمارهم ، وليس عدة ساعات، ويمشون على قلوبهم وليس على أرجلهم.

أشرق وجه العمدة، فقد وجد ضالته المنشودة وقال:

- والله فكرة يا ولد يا علي، والله دماغك يساوي وزنه دهب.

حشد العمدة الأهالي خلف سيارة علي السفروتي، بعد أن استقلها ومعه شيخ البلد وبعض كبار العائلات، والناس من وراءهم بين مهرول على قدميه وراكب لحماره، ومنهم من يردف صاحبه.

- تساءلوا فيما بينهم: ماذا يعنى الإتحاد الإشتراكي هذا؟

أكد البعض أن علي السفروتي فعلاً يعرف أناس كبار جداً جداً. وكأنه اعتراف منهم بأنهم هضموه حقه ولم يضعوه موضعه الذي يستحق، فهو الوحيد الذي يعرف - كما قال أحدهم- الإلتحاد الإشتراكي.

- وقال آخر: السفروتي هو الوحيد الذي وجد حلاً للعمدة للخروج من المصيبة، وذلك جعله مقرباً منه أكثر وقال عنه: السفروتي يساوى وزنه ذهب.

- قال أحد المهرولين وهو يلاحق أنفاسه المتقطعة: الخوف يا أولاد كل الخوف أن اليهود يطمعوا في مصر إذا ترك عبد الناصر الحكم!

- رد أحدهم زاجراً: فأل الله ولا فألك يا شيخ.

- وتساءل آخر: إذا صمم جمال على التلحى الذي يقوله هذا، فهل سيعود جلالة الملك مرة ثانية؟ أم ماذا سيحدث؟ لكن تساؤله لم يجد تعليقاً من أحد.

نظر العمدة إلى علي السفروتي نظرة ذات معنى وكأنه يسأله:

- ماذا سنقول؟

- فقال: سنقول مثلما يقول الناس فى عموم المحروسة، نرفض التنحي فلا حياة في مصر كلها بدون جمال عبد الناصر.

ربت العمدة على كتفه وقال:

- فعلاً يا سفروتي لا حياة لمصر بدون جمال عبد الناصر، أنا لا أتخيل الحياة بدونه، إلا إذا كان يوم التنحي هو يوم القيامة!

أخرج السفروتي نصف رأسه من السيارة وعلا صوته مناشداً من يلهثون خلفها:

- بالروح بالدم نفديك يا جمال!

فتجدد النشاط في اللاهثين والراكبين الدواب وهتفوا بحماسة بالغة:

- بالروح بالدم نفديك يا جمال!

ونظر من بالسيارة إلى العمدة، وكأنهم يستشيرونه فيما يفعلون؟

- فهتف العمدة: بالروح بالدم نفديك يا جمال، وربت من جديد على كتف السفروتي، فهتف الجميع.

*****

وكان السفروتي قد أشار على العمدة قبل أن يتوجه أهالي القرية إلى البندر، حيث مقر الإتحاد الإشتراكي أن يأخذوا صوراً شخصية للرئيس يرفعها الناس أمام المقر، فذلك سيكون في صالحه أمام الأمين العام.

فلمعت عيون العمدة وما كان منه- على غير عادته- إلا أن قبل جبهة السفروتي امتناناً على تلك البراعة في التفكير. وأمر الأهالي بإحضار صوراً

للرئيس، فأكدوا أنها احترقت مع ما احترق من متاعهم، وكانت البيوت لا تخلو من صورة له .

وقال أحد الأهالي إن ابنه تلميذ الصف السادس الابتدائي رسم صورة كبيرة وجميلة للرئيس وهو يصلي وعلقها ناظر المدرسة في مكتبه وطلب منه أن يكرر رسم الصورة وعلقها في كل الفصول الدراسية فوق السبورة.

وأشار على العمدة بالذهاب إلى المدرسة، فهي في طريقهم للبندر لأخذ هذه الصور معهم. فوجدها العمدة فكرة جيدة، ولكنه أخذ صورة الرئيس المعلقة في بيته بإطارها الذهبي لكى يحملها هو أو شيخ البلد، حسبما تقضى الظروف .

٥

الأطراف الصناعية والعيون الزجاجية

بعد عدة أسابيع من خطاب التنحي، عاد الجنود الذين أفلتوا من أنياب الهلاك فوق رمال سيناء، في أول إجازة من الميدان إلى القرية. وبعد عودتهم بيوم واحد جاءت إشارة إلى العمدة بضرورة الذهاب إلى مركز الشرطة لمعرفة أسماء المصابين والمستشفيات التي يرقدون فيها، ومعرفة أسماء الأسرى والمفقودين لإخبار ذويهم.

للمرة الأولى يطلب العمدة من الخفر التنبيه على الأهالي الاجتماع في مسجد القرية عقب صلاة المغرب. وللمرة الأولى يقف العمدة خطيباً مابين المنبر والقبلة والناس جلوس أمامه، وقد ازدحمت رؤوس الرجال كيوم الحشر وكانت وجوه الأطفال والنساء تملأ الشبابيك والأبواب، حتى يخيل للرائى أن البيوت خلت من أهلها، وضرب الوجل والخوف والرهبة الجميع، وتعالت الهمهمات:

- اللهم لطفك ياكريم !

كان الجميع يعرف سر هذا الاجتماع، لكن غاب عنهم تفاصيله، جاءوا ليسمعوا أخباراً عمن لم يعودوا من أبنائهم «على خط النار».

كان العمدة رقيقاً، لطيفاً، مؤمناً، وطنياً في كلماته - على غير عاداته معهم - قال فيما قال:

- أعلم أنكم جميعاً مؤمنون بالله ورسوله، ما في ذلك شك.

- رددت أركان المسجد، بصوت كمن يستجير بالغوث :لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

- وأعلم أنكم جميعاً تحبون الرئيس جمال عبد الناصر، وتحبون مصر.

- ارتفعت الأصوات مؤكدة: طبعاً، طبعاً وهل لنا غيره ياحضرة العمدة؟! ربنا فى السماء وعبد الناصر فى الأرض، ولاغيرهما فى الحياة.

- وتعلمون أن من مات من أولادنا شهداء عند الله.

- همهم الجميع: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

- ثم همس صوت مستنكراً: وهل يدخل واحد من أولادك الجيش حتى تقول «أولادنا»؟!

- ومن أصيب فهو بطل ورجل شجاع، أدى الواجب والشرف، وكلنا فداء الوطن.

ثم سكت لحظة وقال مستنكراً:

- أم نرسل النساء لتحارب عنا ونقعد نحن في البيوت؟!

وصمت قليلاً وقال بصوت خفيض وخاطف:

- والمفقود سيعود إن شاء الله.

ثم طلب من الشباب الذين عادوا من جبهة القتال أن يقفوا في أماكنهم وقال:

- أنتم أبطال ورجال صدقوا مع الله وضحيّتم بأنفسكم لسلامة الوطن وحماية الأهل والنساء والأطفال، ليس المهم يا أولادي النتيجة فالحروب غالب ومغلوب، أنت اليوم مغلوب غداً تكون الغالب لأنك تدافع عن الشرف والواجب ورضا الله. وهذا حدث مع الرسول الكريم خير خلق الله والصحابة الأخيار، - وأشار بيده نحو شيخ المسجد - وقال: أَم كلامي غلط يامولانا؟

- انتفض شيخ المسجد كمن لدغته حية قائلاً: حاشا لله ياحضرة العمدة، لا يمكن للغلط أن يخرج من فمك.

طالت أعناق الشباب العائد من النكسة، وكأنهم جاءوا من ميدان النصر

وقد ملأتهم الحماسة، ودون إرادة منهم صفقوا بحرارة لكلمات العمدة وكأنه القائد الأعلى في معسكرات جبهة القتال، وسرت عدوى التصفيق بين كل من بالمسجد ومن خارجه فصفقوا وزغردت بعض النسوة.

همس العمدة في نفسه:

- بلد بقر ونسوان همج صحيح...

ثم ابتسم ابتسامة المضطر، وأشار بيده أن يكفوا وقال:

- نحن في بيت الله...

وذلك بعد أن سرت حالة من نشوة الهرج وهتف أحدهم:

- بالروح بالدم نفديك ياجمال.

- وزعق آخر: أبو خالد ياحبيب بكره تدخل تل أبيب.

فخمدت الأصوات بإشارته ، وانطفأت الهمهمات. وأخرج العمدة ورقة من جيبه ، وبعد أن عدد أسماء الجنود المصابين، سادت حالة من الصمت الكئيب. وضع فيها أهل كل مصاب أيديهم فوق رؤسهم، وانهمرت دموع المآقى وارتعشت الشفاة متمتمة:

- عليه العوض ومنه العوض.

وبدأ بعضهم في الانصراف رغم ارتفاع أذان العشاء، وأشار العمدة بتأجيل الصلاة حتى يفرغ من مهمته الثقيلة وبرر ذلك بقوله:

- الليل كله عشاء، ووافقه شيخ المسجد .

سريعاً جداً ، ذكر اسماء الذين وقعوا أسرى في يد العدو، وكأن ذكرهم ذنباً لا يريد اقترافه.

عرف الأهالي للمرة الأولى، شيئاً اسمه «الصليب الأحمر» ، وأن هذا الصليب الأحمر هو الضامن لسلامة الأسرى، وأنه الوسيط في تبادلهم بين الدول المتحاربة.

في الوقت الذي أكلت فيه الحيرة والعجز قلوب أهالي الأسرى، ضربوا

كفاً بكف متسألين ماذا يفعلون من أجل إنقاذهم؟ وأسئلة كثيرة عن أحوال أسراهم عصية على الإجابة، كيف يأكلون، يشربون، ينامون، يعيشون؟ وما هذا الصليب الأحمر، ومدى قوته التي يجبر فيها اليهود على سلامة أولادهم الأسرى؟

في تلك الحيرة المغلفة بالعجز القاتل، شعر أهالي المصابين بالتعافي وأن مصيبتهم تهون إلى جوار مصيبة الأسرى، وأنهم فازوا بالخير الوفير، فهم على الأقل سيرون أولادهم بأعينهم ويعيشون معهم ليل نهار.

- همس أحدهم: الحمد لله على كل حال، الأعور أحسن من الأعمى.

- سأل رجل كبير السن والدموع تغرق حروف كلماته: ماذا يعنى الصليب الأحمر يا حضرة العمدة ؟ وهل هو أمان لأولادنا، وما الطريق الذي يوصلنا إليه؟

كان على السفروتي وبعض وجهاء القرية قد وقفوا خلف العمدة- على سبيل الأحترام لشخصه- شعر السفروتي بحاسته المميزة أن السؤال يحتاج للاحتيال والمراوغة، فنظر إلى العمدة يستأذنه في إزاحة الحرج عنه، فأذن له بطرف عينه.

- قال السفروتي: يا جماعة أرهقتم حضرة العمدة بأسئلة لا معنى لها، ثم قال بنبرة الواثق بنفسه، العالم ببواطن الأمور- كعادته-:

- خلاصة الكلام عن الصليب الأحمر، اعتبروا أولادكم في مهمة لعدة أشهر ليس أكثر، بعدها سيعودون إلى أحضانكم، لأن الرئيس جمال عبد الناصر أسر من اليهود أكثر مما أسروا من أولادنا، وإن شاء الله سيتم تبادل الأسرى قريب جداً ويرجع كل أسير إلى أهله سالماً غانماً.

ثلاثة جنود لم تذكر ورقة العمدة عنهم معلومات سوى كلمة واحدة» أسماء المفقودين».

للمرة الأولى تعرف القرية النائية البسيطة، ماذا يعنى «مفقود الحرب».

صرخ رجل كبير السن وهو يلطم وجهه ويشق جلبابه حتى الذيل:

- يعنى لا مات شهيد ولا وقع أسير ولا هو جريح؟ ثم رفع وجهه للسماء وزعق: يعنى راح فين يارب؟ ولدى راح فين يارب؟ ولدى راح فين يارب؟

صرخ النسوة خارج المسجد لصراخ الرجل، وتسلل العمدة خارجاً تحت جنح الظلام الذي لم يفلح في تبديده فانوس المسجد المتهافت، وتبعه شيخ الخفر والخفر والحاشية، وتحول المكان إلى سرادق للنواح والأوجاع لوقت طويل من الليل، وكأن تجمعهم فيه حماية لهم من غول الوحدة في بيوتهم.

وجددت الأحزان سطوتها في شوارع القرية وبيوتها، فغاب مرح الأطفال وماتت ضحكات الكبار التي كانت فيما مضى تهزم الشدائد.

*****

بعد ليلة الحزن الجارف الذي اعتصر القلوب وأحرق الأكباد، بعدة أسابيع ظهر في شوارع القرية الشباب ذوو الأطراف الصناعية الخشبية والعيون الزجاجية الميتة، العائدون من مشافي النكسة، امتلات بهم مصاطب الشوارع وخلت منهم الغيطان والحقول.

استبدلت الحكايات القديمة عن الجن والعفاريت وأمنا الغولة، بحكايات أفظع من الخيال الجامح، عاشوها في مواجهة الأهوال وتفاصيل طوفان الإبادة والفناء، ونيران الجحيم التي صبتها طائرات العدو على رأس كل ما يتحرك فوق رمال سيناء، سواء ما فيه حياة أو عتاد وسلاح.

أكل الجنون رؤوس الجنود وزعقوا أين طائراتنا؟ أين سلاح الجو؟ أين الدفاعات الأرضية؟ تعجب الجميع من الغياب المريب بهذه الصورة التي جعلت طائرات اليهود تمرح فوقهم كشيطان عابث يفعل ما يشاء ويلهو كيفما يحلو له بأرواحهم وتفحم جثثهم.

فيما بعد سمعوا أن طائرة المشير عامر كانت تحلق في جولة بسماء سيناء، ومعنى ذلك صدور الأوامر المشددة بعدم إطلاق النار، مهما كانت

الظروف، ومهما كانت فداحة الخسائر، حتى لا تصاب طائرة القائد العام بسوء.

*****

قال أحدهم :

- رغم تكراره تلك الحكاية كثيراً- لا أنسى التحذير، الذي دوى عبر مكبرات الصوت: يا مصريين انسحبت قياداتكم وتركوكم للموت، ورئيسكم عبدالناصر وقائدكم عبد الحكيم عامر، يرقدون الآن في المستشفى بين الموت و الحياة، بعد أن كانوا منذ ليلتين فقط يسكرون ويرقصون ويلهون مع النساء، ويأكلون أفخر أنواع الطعام المستورد، وأنتم الآن تموتون جوعاً وعطشاً، ورحمة منا لأنكم مساكين لا ذنب لكم لن نترككم هكذا، من أراد النجاة فليدخل مستشفى العريش، فسوف يتم قصف كل ما هو خارجها. فلا تجعلوا أنفسكم هدفاً حربياً.

ويتدفق الجميع كالسيل الجارف نحو النجاة، والصوت الناصح يضحك ساخراً بشكل جنونى، ولكننا كنا أكثر جنوناً نحو المستشفى خشية الموت خارجها.

ويكرر الصوت الناصح النداء ويتبعه بالضحك القبيح حتى ازدحمت المستشفى كيوم الحشر، وكادت تسقط وأوشكنا على الموت إختناقاً، وفجأة جاءت طائراتهم ودكتها دكاً.

وترقرقت الدمعات فى عينيه- كعادته في كل مرة يحكى المأساة- وقال:

- وفقدت ذراعي وساقي، وتمتم: الحمد لله، الحمدلله، ثم واصل كلامه ولكن بانفعال شديد: كنت أسبح في بحر من الدماء وأشلاء البشر، وأنا غير مدرك ما الذي قُطع مني، ولاأدرى حتى الآن ماحدث بعدها! ولا كيف تم انتشالي وبقائي حياً؟

وفجأة ينفجر في البكاء ويصرخ:

- ليتنى مت، ليتنى مت، كيف سأعيش الآن وأنا مثل قطعة الحجر لا يمكنه الحركة إلا بغيره؟ كيف أتحرك وذراعي الأيمن وساقي اليمنى تركتهما هناك، في مستشفى العريش وسط رؤوس وأقدام وسيقان وأمعاء وأحشاء من تكدسوا للنجاة؟!

ويتمتم بعد أن يهدأ:

- هل دفنوهما، أم تركوا الجميع للعفن وذباب الجيف؟

*****

بعد عدة أسابيع عاد إلى القرية رجل لا ينتظره أحد ولا يحبه كثير من الناس ولا يأنسوا له، لولا أنه شقيق العمدة، رغم تأكيدات البعض بأنه رجل طيب القلب عطفوف جداً ولا يعرف حقيقته إلا من يتعامل معه من قريب.

طويل القامة ملون العينين، أبيض اللون مشوب بحمرة، أشبه بوجوه الإنجليز، قليل الكلام، حاد الطباع، إنه اللواء طاهر أو كما يناديه البعض طاهر باشا. عاد إلى بيته الريفي في أطراف القرية، هذه المرة ينتوي الإقامة الدائمة، وكان هذا البيت لا يعمر إلا عدة أسابيع كل عام أو في المناسبات الخاصة كالأفراح والأتراح، لكثرة أقارب وأضياف العمدة.

عاد تاركاً دفء القاهرة شتاءًا وهواء الأسكندرية صيفاً، وقبلهما ترك زوجته وأولاده ورفض بشدة مصاحبتم له في عزلته التي اختارها، رجاء الفوز ببعض الهدوء وتوقف الطواحين التي تدق رأسه، أو على الأحرى هرباً من شبح تفاصيل النكسة الذي يصارعه ليل نهار، عاد مبتور الساقين يحمله كرسى متحرك وحزن وغضب لا حدود لهما.

جزع الناس عند رؤيته وتألموا لمشهده جداً رغم صرامته القديمة التي لم تفارقة وجفاء طبعه وكلماته الآمرة.

جعل ينتابه غضب غريب إذا ناداه أحدهم :»سيادة اللواء»- وكان

يطرب لها قديماً- فيزعق ضجراً:

- لا تقل سيادة الزفت... سيادة الزفت لم يستطع حماية ساقيه من اليهود!

- المرة القادمة تأخذ بثأرك يا باشا، فالحياة غالب ومغلوب.

- ما عاد هناك مرة ثانية، الجيش انتهى أمره، مات أولادي البواسل قبل أن يحاربوا، نحن لم نهزم، ليست نكسة وليست هزيمة، الجيش لم يحارب، أولادي لم يحاربوا، ماتوا وسالت دماؤهم فوق يدىَّ وساقىَّ التى بترت، ماتوا والموكوس جالس فوق كرسيه فوق رقاب العباد! بعد أن ألصق الخيبة الكبرى بصديق عمره الموكوس الصغير.

كانت الدمعات تترقرق فى عينىّ الرجل الموجوع كأسد جريح، فكانت العدوى تنتقل إلى البسطاء الجالسين أمام كرسيه المتحرك، فيجهشون بالبكاء، طلب منهم أن يحضروا إليه العساكر الذين عادوا من سيناء وخاصة المصابين.

كان يسألهم واحداً واحداً بعد أن يصافحهم في كل لقاء ويقبّلهم بحميمية الأب لأولاده العائدين بعد غياب .

- أين كنت تخدم يا ولدي؟ في أى سلاح؟ في أى منطقة؟ في أى كتيبة؟ وما اسم قائدك؟ وماذا حدث بالضبط؟ وكيف كانت رحلة العودة الطويلة المريرة؟ وكيف نجوت من الموت المحقق الذي زرعه اليهود في كل شبر من سيناء؟

ظلت أحاديث الجنود هي سلوى طاهر باشا في عزلته الريفية كل ليلة، حتى جاءت تنبيهات شديدة اللهجة لعمدة القرية بمنع تلك اللقاءات ومنع الأحاديث في شؤون الحرب، سواء في جلسات اللواء السابق طاهر أو جلسات المصابين من الجنود على مصاطب الشوارع أو أى أحد في القرية، وإلا تعرضوا وهو قبلهم لما لا يحمد عقباه، فما يفعلوه من شأنه أن يهدم

الروح المعنوية للأمة- هكذا قال نص التحذيرات-.

- كيف علم المحذرون المهددون بسوء العاقبة بما يدور في قرية صغيرة نائية؟!

أجاب رجل ساخر قائلاً:

- ألا تعلموا بأن الحيطان لها آذان؟

خرست الألسنة والتزم الجميع بتعليمات الحكومة، وعادوا إلى حكايات الجن والعفاريت وأمنا الغولة، وكان إذا أفلتت كلمة من أحدهم ينهره صاحبه مذكره بالمثل:

- وطىء صوتك، الله يخرب بيتك، الحيطان لها آذان.

اشتدت قسوة العزلة بالقائد القعيد على كرسيه المتحرك طاهر باشا، فازداد حنقه على الجميع وخاصة القيادة السياسية، وقال فيما قال:

- حتى الكلام يا موكوس تصادره من أفواهنا؟! وكان يحق لنا أن نحكم عليك بالإعدام ومعك شلة الفاسدين العجزة علناً في ميدان التحرير، أسدٌ علينا وفي الحروب نعامةً يا سيد الهزائم، ثم نظر إلى السماء وعيناه تفيض بالدمع: أين أنت يالله؟ أنت تعلم أن هذا الشعب مغلوب على أمره محكوم بالحديد والنار من عصابة القائد النادر!

إن كانوا عبادك حقاً وأنت خالقهم حقاً وتغار على صنعة يديك حقاً. دعنى أقولها: إن كنت موجوداً حقاً فانتقم لهؤلاء المساكين، دَمِر الموكوس وعصابته، اقهر قلوبهم كما قهروا قلوب الناس، بدد شملهم كما بددوا شمل الأمة، اجعلهم يذوقون طعم الحزن ومرارة الفقد لفلذات أكبادهم كما فعلوا بالخلق. اجعلهم يتمنون الموت ولا يجدونه.

ثم انفجر في البكاء وتمتم:

- أستغفر الله العظيم، ما بك يا طاهر ستكفر بالله يا أحمق، أم أن خرافات اللواء عفت أثرت فيك؟!

وبينما يجول ببصره اصطدم بصورة الرئيس عبد الناصر المعلقة فوق الحائط وكأنما لدغه عقرب، وكأنها المرة الأولى التي يراها فيه. فأمر بإنزالها و أحضر حبلاً ولفه في هيئة حبل المشنقة حولها، وركز بصره نحو ابتسامة الصورة التي كانت تشعل جذوة غيظه وقرر عقد محاكمة. قال:

- أبسط حقوقنا عليك هو الإعدام، ولكن هل هو الإعدام شنقاً لكونك مدنياً ملأت وزبانيتك الزنازين بخيرة الشباب، فدمرت جيلاً كاملاً بدعوى الحفاظ على مكتسبات الثورة من أعدائها؟

شباب مصر، هم أعدائها ياموكوس؟ ألا تخجل وأنت تأمر بالاحتفال بالمولد النبوى لمدة يوم وميلاد المسيح يوم، وتحتفل شهراً كاملاً بالذكرى المئوية لميلاد لينين؟! وتطبع الكتب عن سيرة حياة لينين وكأنه آخر رسل السماء من قوت الفقراء حتى يرضى عنك أسيادك الشيوعيون؟!

أعترف لك وهذا حقك، لم تقترف خطيئة نهب الأموال أو الفتنة بالنساء أو تعاطى الخمور والقمار أو النهم في الطعام غالي الثمن، أنت أقرب إلى الزاهد، في كل هذه النقائص التي تهلك الرجال حتى أعدائك الأمريكان وصفوك بأنك رجل بلا نقيصة، ولكن كل ما زهدت فيه لايساوى شيئاً في حبك المجنون للزعامة المطلقة، وسفك دماء الأبرياء، حرّمت علينا التفكير، إلا في طاعتك، وكنت أنت الذي تفكر.

حرّمت علينا الأحلام، وكنت أنت الذي تحلم لنا، تحدد ملامح مستقبلنا وملامحنا، تصنعنا كما تشاء. جعلتنا عبيد الخوف منك ومن غضبك وعقابك.

وأطلقت كلابك المسعورة لتنهش أعراضنا، وتكّدسنا في المعتقلات دون ذنب أو جريرة لإرضاء جبروتك، يامجنون العظمة! وقتلت من شباب مصر في اليمن سبعين ألفاً وكثر في عهدك السعيد الأرامل واليتامى والثكالى فداء لجنون عظمتك. وخرّبت خزينة الدولة وكشفت الغطاء الذهبي للجنيه المصرى لرشوة قبائل اليمن، دمرت الاقتصاد، أقوات الناس لتكون إمبراطور العرب.

كسرت الخلق وشكلت عقولهم حتى عبدوك، يا صنم الحرية الموهومة، فلم يروا غيرك، وعندما أعلنت فضيحة التنحي شعروا بالضياع والعجز لأنك هكذا صنعتهم فخرجوا يقّبلون قدميك أن لا تتركهم، فهم أعجز من أن يدبروا أمرهم.

ثم أخرج اللواء مسدسه وصوبه نحو الصورة المبتسمة وقال بحسم شديد: أم يتم إعدامك رمياً بالرصاص لأنك قائد فاشل مهزوم؟ أضعت سيناء والجولان والقدس والضفة الغربية في عدة ساعات يا موكوس، وقبلهم أضعت كرامتك وكرامة العرب! لماذا أغلقت المضايق وأنت لا تملك التخطيط للحرب أو الصمود فيها؟! إن تاريخك العسكرى يخلو من أى انتصار، كنت وصاحبك السكير صيداً سهلاً للأعداء ليتكما ذهبتما إلى الجحيم وبقى الجنود الشرفاء الأبرياء.

ثم علا صوته وقال بحسم شديد:

- تكلم يا مجنون نفسك؟ اختر طريقة موتك، حبل المشنقة أم رمياً بالرصاص، أم الأثنين معاً؟

فجأة وكأنما كان في كابوس سخيف، وأفاق منه، تمتم:

- ماذا دهاك ياطاهر؟! بهذه الطريقة ستجن فعلاً.

*****

أمسى الليل ثقيلاً وطويلاً ومريراً بلا أنيس أو جليس. فقد خشي الناس من الذهاب إلى بيت اللواء طاهر بعد تحذيرات العمدة وتفسيرات الخفر لكلامه بأن مجرد الذهاب إلى هناك ولو لأى سبب هو معصيه لأمر الحكومة ومعصية لأمر جمال عبد الناصر نفسه!

وقد كانوا سلوته الوحيدة التي تساعده على اقتناص عدة ساعات من النوم، ليستعد للقاء الليلة القادمة، ولم يحتاج لفتح زجاجات الخمور التي أشار عليه بها صديقه المصاب اللواء عفت الذي قال له:

- هى الوسيلة الوحيدة التي يمكنني بها إبعاد الكوابيس عني ونسيان الأحزان وقهري على النوم.

فقد كان اللواء عفت، جاره في مسكن القاهرة ومتشابهين في الإصابة إلا قليلا، فاللواء عفت فقد أحد عينيه وأحد ساقيه ويمكنه التحرك على ساق صناعية وعكاز خشبى تحت إبطه أو استخدام الكرسى المتحرك.

شرح له عفت كيفية التغلب على حالة القهر النفسي للهزيمة، نقلاً عن خبراء في ذلك- كما قال:-

- إما أن تنسى ياصديقى ما أنت فيه بالخمر واللهو والسهر وأقراص المنوم، وإما أن تبحث عن شيخ صوفي تتلمذ على يديه وترتدى الجلباب الأبيض والمسبحة وتسيح معه في البلاد والموالد. أو تقتل فراغك. فما حدث يا صديقى ليس إلا أحد أمرين: عقوبة من الله لفسادنا، أو أن عدونا أقرب إلى الله منا.

سأله اللواء طاهر كطفل حائر:

- وأنت مع أى تفسير من الأثنين؟

ابتسم عفت ساخراً:

- أنا لا مع هذا ولا ذاك، رأسى لا يطيق غيبوبة الأفيون.

- يعنى سترتدى الجلباب الأبيض وتدور مع المشايخ والدراويش في الموالد وحلقات الذكر؟

- وهل قلت لك ذلك؟ الأفيون ياسيادة اللواء كما قال سيدنا في موسكو كارل ماركس هو الدين «الدين أفيون الشعوب»، وأنا كما تعلم يا رفيق ماركسي الهو ولا علاقة لى، إذا كان للكون خالق- كما يقال- أم لا. ولا أرى أن الناس سيربحون كثيراً إذا اتبعوا ديناً أو سيخسرون إذا نظفوا رؤسهم من كل ذلك.

دهش اللواء طاهر، حتى احمرت تضاريس وجهه وقال:

- ماذا تقول ياعفت؟ استغفر ربك؟ صحيح الكارثة كبيرة جداً ولكن ليس لحد الكفر!

- ياجارى العزيز، لا أريد أن أدخل معك في نقاش لا طائل منه فيكفي ما نحن فيه!

- ولكننى لا أعرف عنك سوى كل خير، فما الذي حدث؟

- ياجارى العزيز، لم تعرف عني ولم أعرف عنك لأننا جيران فقط ، لا تواصل ولا زيارات، فقد كانت ظروف إجازاتنا مختلفة واهتماماتنا مختلفة، لم يجمعنا سوى فراغ النكسة والإصابة.

- نعم نعم، معك كل الحق، ولكن مسألة «الله» هذه؟! صحيح لست متفقهاً في الدين إلا ما كان يتحدث فيه شيوخ الأزهر الشريف في زياراتهم للميدان لحماسة الجنود وإعلاء روح الجهاد، والتضحية والفداء وجزاء الشهداء عند الله، وهكذا. ولكننى كنت أصلى وأصوم وأديت فريضة الحج منذ عدة أعوام، ولاتفوتنى صلاة الجمعة أبداً سواء كنت هنا في إجازة أو في الوحدة العسكرية، وأحفظ قصار سور القرآن الكريم.

- هل لديك مكتبة، وهل لك اهتمامات ثقافية؟

- مكتبتى الصغيرة كلها كتب عسكرية وتاريخية وقليل فيها الكتب الدينية.

- خطأ كبير، يجب أن تقرأ في كل المعارف خاصة ما يتصل بعقيدتك، كيف تعبد رباً وأنت لا تعرف عنه ما يجعلك مطمئناً لوجوده وقدرته؟ إن أول أمر في دين الإسلام هو «اقرأ» صحيح هو حدد نوع القراءة واشترط أن تكون باسم ربه الذي خلقه، ولكنها على كل حال من محاسن هذا الدين.

ردد اللواء طاهر وكأنه يحدث نفسه، مستنكراً:

- هذا الدين؟! وهمس في سره: كيف تركوا هذا الرجل بكفره هذا، والعيون كانت تطاردنا في كل شيء، حتى في أحلامنا؟!

- يا صديقى لا تجرنى إلى نقاش ربما أغضبك منى وجعلك تقاطعنى ونحن في وقت أحوج ما نكون فيه لشد أزر بعضنا بعضا... دع عنك هذا ودعنا نتفق فيما سواه فلن نخسر شيئاً.

- لا، إما أن تقنعنى أو أقنعك.

- موافق شريطة أن لا نفترق. مهما كانت النتيجة.

- إن شاء الله لن يحدث افتراق، أضمن لك هذا.

قالها طاهر وقد ملأته الثقة أنه سيهدي إلى الإسلام رجلاً ارتد عن دينه، وبذلك يكون لحياته قيمة كبيرة ونصر يعوض به النكسة التي تكاد تقتله وشاركته ذاكرته في تلك البهجة بالنصر الوشيك، ففتحت خزينتها وذكّرته بحديث للرسول الكريم يقول: «لأن يهدى الله بك رجلاً خير لك من الدنيا وما فيها «، وشعر بنشوة الظفر تسري في شراايينه وكأنه فاز بما يفوق أحلامه بكثير.

- قال عفت: لو كان لديك بذور لمحاصيل ما مثل الذرة أو القمح أو أى نبات، يحتاج منا لإنباته عدة عوامل التربة الجيدة والماء والهواء وفقط. أليس كذلك؟ إذا أضفت الله أو نزعته من هذه المعادلة، هل سيكون له تأثير في عملية الإنبات؟ الجواب لا. ولكن إذا نزعت الماء أو الهواء لن يخرج النبات من الأرض.

دهش طاهر وقال وهو يقلّب منطق الكلام في رأسه:

- ما هكذا تكون المناقشة يا عفت!

- دعك من هذا، هناك نظرية تقول: الشر في الكون من أنفسنا أما الخير فمن عند الله.

- ليست نظرية يا أستاذ، ولكنها حقيقة قرآنيه، نعم لا شك في ذلك!

وإزدادت نشوة طاهر أكثر وكأنه إقترب من هدفه «هداية عفت».

- السؤال: الله يكره الشر ويريد منعه ولكن الشر يتزايد، فهل معنى

ذلك أنه غير قادر؟ إذن هو ليس مطلق القدرة.

- ماذا تقصد بهذا اللف والدوران؟

- أم هو قادر ولكنه لا يريد؟ إذن هو شرير.

احمر وجه طاهر وشعر ببوادر خيبة أمل وقال:

- هذا اللف والدوران لن يصل بنا إلى نتيجة، تكلم بشكل صريح أو اسكت؟

ضحك اللواء عفت حتى دمعت عيناه، وانفجر طاهر بدوره ضاحكاً، عندما قال:

- ما رأيك أن ننسحب من النقاش، فقد تعودنا على الانسحاب؟!

قال عفت وهو يجفف دمعات بهجتهما المؤلمة، المفاجئة:

- ليس لدىّ أدنى مشكلة أن يعتقد أى إنسان فيما يراه، ويعبد ما يريد، سواء كان مسلماً، مسيحياً، يهودياً، بوذياً، مجوسياً أو حتى يعبد البقرة والصنم. الإشكالية هى ماذا سيقدم للناس الذين حوله من قيم التسامح والخير والمحبة وحفظ الحقوق؟

ضحك طاهر من جديد قائلاً:

- بوذياً مجوسياً عفريت أزرق، أنا موافق لكن «يهودياً» لا، لا، لا.

ربت اللواء عفت على كتف اللواء طاهر بعطف دافق وقال:

- ظلمونا بتهوراتهم ونزقهم وأحلامهم المجنونة وما كان جيش مصر العظيم يستحق هذه الإهانة .

وواصل عفت كلامه:

- مشكلة أصحاب العقائد أن كل تابع لدين يرى غيره على ضلال منذ أن إخترع الانسان الأديان.

حملق طاهر دهشاً وبدأ غضبه يتسرب إلى نفسه وقال:

- ماذا تعنى إخترع الإنسان الأديان، ياسيادة اللواء؟

لم يجب عفت وسأله:

- مارأيك في عبادة الأصنام؟
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.
- ما رأيك في عقيدة الصابئة، والمجوس، والبوذية، وماذا تعرف عنها؟
- لا أريدها ولا أريد معرفة شيئاً عنها.
- هل تعلم أن العالم به مئات بل الآف العقائد والديانات؟
- لا أريد أن أعرف، الحمد لله على نعمة الإسلام وكفى.
- هى عقائد وديانات باطلة إذن؟
- نعم مافي ذلك شك.
- هكذا كل صاحب دين يرى غيره باطل وهو الحق.
- هل تقصد أن الإسلام ليس دين الحق ياعفت؟
- يا صديقى العزيز، لا أقصد أى شىء لأنه لا علاقة لي بشىء.
- لكنك رجل طيب ياعفت وأخشى عليك النار، فقد أصبت وقطعت ساقك وفقأت عينك وكان يمكن أن تموت شهيداً، أريدك طالما كتب الله لك النجاة أن تتوب إليه وترجع هكذا دون فلسفة أو نظريات عجفاء عسى أن يرحمنا.

وسأله دهشاً عن مصدر أفكاره وكيف أفلت بها دون إعتقال وعزل من الجيش؟ أخبره عفت انه تربى على افكار، صديق والده الدكتور حسن، استاذ الفلسفة ماركسى الهوى والعقيدة.

لم يشأ عفت أن يحتد النقاش بينه وبين صديق العجز، فيكفي ما هم فيه وقال له:

- أعدك سأفكر في الأمر.

شعر طاهر أن الطريق إلى قلب عفت مغلق ويحتاج فتحه لمجهود جبار، وهو الآن متعب فغير اتجاه الحديث وسأله:

- هل وضعت خطة للأيام القادمة؟

- أفكر في عدة أشياء، لكن ليس الآن، منها أننى أريد العودة للهوايات القديمة فأبعث فيها الروح مرة أخرى، وهى الرسم والنحت وتعلم الموسيقى خاصة العود والقانون، ومنها التفكير في مواصلة التعلم وعمل الدراسات العليا والرسائل العلمية، ومنها أيضاً كتابة مذكراتى، ما عشته ورأيته في رحلة الحياة وهى حافلة بالكثير، وخاصة الختام الأسطورى الذي انتهيت إليه.

وأشار إلى بقايا ساقه المبتور والكرسي المتحرك، وقال بصوت مجروح:

- نهاية أسطورية رائعة!

فما كان من طاهر إلا أن هاجت دموعه وجعل ينتفض فوق كرسيه المتحرك.

*****

جعل اللواء القعيد بالقرية النائية يفكر في مخرج يليق به من تلك الدوامة الجهنمية التي كان يظنها الفردوس وليست وكراً للأفاعى والشياطين، وبينما هو كذلك تذكر حديثه الأخير مع جاره اللواء عفت قبل أن يترك القاهرة وطرأت له فكرة أن يكتب مذكراته.

مارآه وما سمعه ورأيه فيما يحدث، فرح في بداية الأمر بالفكرة وظنها مسألة سهلة مسلية، ورأى فيها حرية كبيرة أن يقول ما يشاء بعيداً عن الحصار الذي فرضه النظام الحاكم على الناس، ويبوح للأوراق ويصرخ ويسب ويلعن كيفما يشاء.

بعد عدة أيام اجتاح الملل نفسه ولم تفلح محاولات الكتابة في سد فم الفراغ الذي يحاول ابتلاعه والفتك به، واكتشف أن الكاتبة مهمة شاقة وليست بالسهولة التي كان يتحدث بها اللواء عفت.

وأكد لنفسه أن صديقه كان ينطق الصواب حين طالبه بالقراءة في كل شيء، وحين عاب على المسلمين عدم القراءة، وهى الأمر الأول في الإسلام.

رغم حزنه الشديد في إخفاقه أن يهدي جاره اللواء، المفكر للعودة للدين، وقال فى نفسه:

- من الخسارة أن يدخل مثل هذا الرجل النار.

بعد عدة أيام ازداد شعوره بالغربة القاتلة، وزادت حدة الكوابيس التي تطارده، والأحلام المزعجة التي تلاحقه بتفاصيلها في النوم وأشباحها في اليقظة.

كان بعض مايراه حيوانات الغابة المفترسة تطاردة لالتهامه، وهو يبحث عن ساقيه مذعوراً، تارة يجدها معلقة فوق شجرة، وأخرى تتدلى من سقف غرفة مرتفع جداً وثالثة يصارع أحد الحيوانات الخرافية لإنقاذها من فمه المخيف.

أيقن أن الموت أرحم ألف مرة مما يعانيه، فكر كثيراً في الإنتحار، لكنه تراجع خشية الفضيحة التي ستلاحق أخيه العمدة، وسط الفلاحين وأولاده وزوجته، وخشية الموت كافراً.

كان يزعق كالمجنون: أريد أن أنام ساعة واحدة بلا كوابيس، بلا طائرات تسقط قنابلها في رأسى، بلا أشلاء للجنود تتراكم فوق صدرى تطلب مني أن أدفنها.

عافت نفسه الطعام والشراب بكل أنواعه، وما عاد يدخل فمه إلا دخان سجائره الكثيف، وشعر وكأنه في سجن انفرادي مميت، لايطيق رؤية أحد حتى من يقدمون له الطعام ويساعدونه في قضاء حوائجه من خدم العمدة، الذين لا يتكلمون في شيء تنفيذاً لأوامره التي هى أوامر الحكومة، فقرر الرحيل عن البلدة.

*****

نخر الرعب عظام القرية وعقولها، وأيقنوا بأن شراً لا طاقة لهم به ساحقهم لا محالة، فكلمات اللواء طاهر الملتهبة ستفتح عليهم نار جهنم،

إنه يشتم عبد الناصر ويعلن كراهيته علناً.

- الرجل فينا لا يجرؤ أن يخطر بباله شيء من ذلك، رغم موت أولادنا- قالها والد أحد الشهداء!

- معذور ياجماعة؛ ضاعت ساقيه وكان يعشق المشي والجري والرياضة، رأيته كثيراً بعيّني التي سيأكلها الدود قبل طلوع الشمس ورآه كثير من الناس .

- معذور إيه ياجاموس أبيض؟! مصاطب الشوارع مليئة بالشباب المصاب، منهم من قطعت ساقيه مثل سيادة اللواء، ولايجد نصف الكرسي المتحرك الذي يركبه، ومنهم من فقد عينيه ولا يجد من يسحبه، ومنهم من لا يستطيع تنظيف نفسه، ولا يمكن لواحد منهم أو منا أن تحدثه نفسه بكراهية عبد الناصر!

- يا نهار أسود لو فكرنا مجرد التفكير؛ ستضع الحكومة حول البلد سور كبير ثم تصب الزيت الوسخ والزفت فوق رؤسنا جميعاً كبار وصغار، ومعنا البهائم والطيور وتشعل فينا النار ولا تتركنا إلا كوم رماد أحمر، يانهار زفت وطين، لايوجد مخلوق في بر مصر يقدر خياله يخونه ويشطح منه، ويفكر في كراهية عبد الناصر. وهل رجل مثله يستحق الكراهية ؟!

- قال آخر دهشاً، وكأنه يتحدث عن مستحيل المستحيلات: يكره عبد الناصر؟! ثم حرك إصبعه راسماً علامة الرفض الشديد القاطع، اسكتوا ياجماعة غيروا السيرة، فالحيطان ليست فقط لها آذان وإنما فى هذا الكلام، الآذان لها آذان!

*****

اجتمع حكماء القرية وتحدثوا في أمر شتائم اللواء طاهر، وعقدوا العزم على الذهاب إلى العمدة ليحفظ البلد من الجحيم القادم. وكان ذلك بإيعاز من العمدة لشيخ البلد الذى تولى المهمة فى تحريض الناس .

- قال العمدة: أعلم جيداً الذي تتخوفون منه، وأنا معكم، حالة الباشا تزداد تهوراً ولابد من إدراكه ولكن ماذا أفعل؟ أعطونى المشورة؟

- إنسحب لسان علي السفروتي وقال: ندخله المستشفي يا حضرة العمدة.

- احمر وجه العمدة غضباً وقال: إخرس ياكلب، ماذا؟! أهو مجنون؟!

تغير وجه السفروتي، فهي المرة الأولى التي يشتمه فيها العمدة، وقرر الانسحاب من المجلس، وبينما هو يستأذن في الخروج مكسوراً، جذبه العمدة إلى حضنه، وقال:

- أغضبت يا علي؟! أنا أعتبرك ولد من أولادي، هل تغضب من أبيك؟!

اعتبر الحاضرون، تلك الترضية فوق مقام السفروتي، وقهقهوا، وقال بعضهم:

- هنيئاً لك يا علي ، بهذا الرضا الكبير.

وأردف العمدة:

- والله كلام السفروتي عين العقل، ولكن ماذا سيقول الناس؟ شقيق العمدة، اللواء طاهر باشا مجنون؟! ثم انفعل قائلاً: لا لن يحدث ذلك مهما كان الثمن. لا بد وأن هناك حلولاً أخرى غير ذلك، وأطرق العمدة قليلاً ثم قال: لا أخفي عليكم، أنا حدثته في ذلك وقلت له إن أهل البلد يخافون سوء العواقب ولكنه رفض كلامى واتهمنا جميعاً بالجبن وعدم الإيمان بالله، وأنتم تعلمون أنه أخى الأكبر ولا أستطيع الإساءة إليه.

كان العمدة- على عكس ما يقول وكثيراً ما كان يكذب- قد أغلظ القول لشقيقه الأكبر وهدده بإبلاغ السلطات عما يفعله ليبرىء ساحته وأهل القرية، بعد أن فشلت كلماته اللينة التي أكد له فيها أن الناس تحبه جداً، وكلهم حَزِنَ لما أصابه حزناً يساوي أو يفوق حزنهم على إصابات أولادهم.

أسعدت الكلمات اللواء الجريح وسأله- مثل طفل بريء-:

- حقيقة ما تقول ياعمدة؟
- نعم وأقسم لك على ذلك.
- ولكنهم انقطعوا عني! بل ما عدت أرى منهم أحداً، يمر من أمام البيت! أين ذهب الناس يا عمدة؟

*****

كان الأهالي قد هجروا الطريق المار أمام بيت اللواء خشية أن يروه في شرفات المنزل كعادته منذ الصباح الباكر. يتلقى تحياتهم المحببة إليه خشية أن يلحقهم الأذى، من»آذان الحيطان»، وخشية أن يطلب منهم أن يأتوه بالشباب العائد من سيناء، وخوفاً أن تتهمهم الحكومة بالبشاشة في وجه من يكره عبد الناصر، فكانوا يمرقون إلى حقولهم من الطريق الضيق البعيد عن منزل اللواء الجريح.

انتهزها العمدة فرصة ليحمله على تغيير أجواء الهزيمة التي يعيشها، وقال:
- تعلم يا طاهر إن أهل القرية مساكين يخشون غضب أصغر خفير! ليسوا أبطالاً مثلك،

احمر وجه اللواء طاهر غضباً وقال:
- لا تقل ذلك! فأولادهم الذين هم أولادي، في الجبهة أبطال شجعان، ولكنهم لم يحاربوا، ليست هزيمة يا عمدة فالجيش لم يحارب ولم تصدر إليهم أوامر بالتصدي، وإنما الانسحاب، الانسحاب، الانسحاب بدون خطة، بدون تدبير، الانسحاب العشوائى، فكان الثمن باهظاً في الأرواح والمعدات والأرض، ليست نكسة فالجيش لم ينتكس لأنه لم يُختبر في أى مواجهة مع العدو، الحقيقة أنها وكسة فعلها الموكوس الكبير نصف الإله المغرور مثل العجل أبيس، مخروم المؤخرة، لا يسمع منه الأغبياء إلا خواره فيتوهمون به القدرة على تسيير أمورهم وتيسيرها، فيعبدونه وهو عاجز عن فعل شيء سوى القهر والبطش بهم، فهم عبيده الضعفاء الأفاقين بعد أن مسخ

عقولهم بدعوى القدرة غير المحدودة «سنرميهم في البحر الأحمر، وإن لم يأخذهم سنرميهم في البحر الأبيض»، يا لها من حماقة غالية الثمن! وشاركه صديقه الحبيب الموكوس الصغير السكير زير النساء، صاحب قرار الانسحاب المجنون، دون دراسة أو استشارة أحد من القادة الخبراء في فنون الحروب.

فشل العمدة في إسكات قذائف كلماته واتهاماته المتلاحقة المدهشة، فاحمر وجهه هو الآخر وزعق فيه، وأراه وجه ربما لم يره منه طوال حياته قائلاً:

- باعتبارى عمدة البلد أحذرك بأن ما تفعله لا ثمرة له ولا طائل منه سوى الخراب للجميع. ولن أقف مكتوف الأيدى بينما الناس تموت رعباً بسبب كلماتك الغريبة، وأنا المسؤل عنهم، لا تجبرني أن أبلغ السلطات عنك، دعنى أكون أكثر صراحة معك، الناس تقول: أن عقلك قد ذهب لحسته الحرب، يعنى مجنون يا طاهر.

وصمت العمدة لحظة وقال بلهجة ماكرة:

- لا أريد لشقيقي الأكبر سعادة اللواء طاهر باشا، أن يقضي بقية عمره نزيل مستشفي المجانين! إن كان يرضيك ويسعدك هذا، افعل ما يحلو لك يا بطل! ثم تركه وانصرف غاضباً.

شعر اللواء الجريح أن كلمات أخيه حبل مشنقة تدلى فوق رأسه، ويلتف حول رقبته شيئاً فشيئا، وأن هواء القرية الذي عشقه منذ زمن بعيد يقول له: ارحل، لا مكان لك بين أناس لست الآن منهم.

نظر إلى الحقول التي يطل عليها بيته، فرأى المزروعات وقد تحولت إلى رجال ونساء وأطفال ومصابين، تناشده أن يترك القرية قبل أن يصل خبره إلى الحكومة فيحرقونها بمن فيها، فمصر عبد الناصر بكل ما فيها ومن فيها فداء لعبد الناصر.

فقرر الرحيل عن القرية، وعاد البيت إلى سكونه القديم.

فرح العمدة جداً لرحيل شقيقه اللواء طاهر عن القرية، ليس فقط

لابتعاد شبح الأذى الذي كان يتوجسه من الحكومة إذا ما استمر شقيقه في السب العلني بصوت مرتفع وهو جالس في باحة بيته للحكومة ورجالها حتى عبد الناصر نفسه، ووصفه بالموكوس؛ وإن ما حدث ليس نكسة وإنما وكسة، الجيش والشعب أبرياء منها، وإنما فرح أيضاً لابتعاد شقيقه عن المزارعين المستأجرين للخمسين فداناً التي يملكها ويديرها العمدة أو على الأحرى يبتلع معظم ريعها، وكان طاهر كريم النفس أو قليل الحيلة تجاه جشع أخيه.

*****

بعد رحيل اللواء الجريح بعدة ساعات، وما كاد العمدة وحكماء العائلات يتنفسون الصعداء ويفرحون بزوال الهم الجاثم فوق صدورهم، زمجرت أمام الدّوار عشر سيارات حكومية كبيرة الحجم، بها مئات الجنود المدججين بالسلاح، خلع مشهدها غير المسبوق بالسكك الريفية قلب كل من رآها!

قبل هدوء الغبار الكثيف الذي أثارته إطارات السيارات المندفعة بجنون تلتهم به الطريق والوقت، انتشر الجنود حول المنزل شاهرين أسلحتهم.

زعق ضابط كبير الرتبة بتهكم شديد:

- أنت يا زفت ياعمدة، أين الزفت أخيك بطل الأبطال؟!

انتفض العمدة مذعوراً، ومعه رجالات القرية وقال:

- ترك القرية يافندم منذ عدة ساعات إلى غير رجعة.

هز الضابط كبير الرتبة رأسه، وقال بطريقة توحى بشىء ما:

- إلى غير رجعة، إن شاء الله.

ثم استدار إلى سيارته بعد أن فتشوا المكان وقلبوا أشياءه عن ظهر قلب واستكتبوا العمدة تعهداً بعدم التستر وتحمله مسؤليه أقواله، وغادر المكان والموكب التابع له غير مبال بمناشدات العمدة ومن معه بأن يتفضلوا بقبول حق الضيافة والراحة قليلاً من عناء الطريق.

٦

الإنتظار تحت نوافذ الكلمات

رغم كثرة أحلام حسين الغريبة، والتي ينسيه بعضها بعضا، ظل حلم واحد بكل تفاصيله محتفظاً بسيرته وصورته وسورته في عقله وقلبه دون سبب واضح، حتى كانت المفاجأة المدهشة والتي تقترب من المعجزات، بعد زمن الحلم بما يقرب من الثلاثين عاماً.

كان النهر هاديء الصفحة، رقراق، صاف، مما أغراه بالاستحمام فيه، وبينما هم بالخروج وجد نفسه ندياً كصباح الربيع، أخضراً كنور الفجر، وإذا بها تقف باسمة علي حافة النهر تحمل ملابسه في إنتظار خروجه. هي من؟! لا يدري!!

كانت وياللغرابة، روح شفافة النسمات تصعد بمن يراها إلى مرافيء النعيم، وجسم رائع القسمات يهبط بمن يهواه إلى قرار الجحيم.

ذلك باختصار هو وصف تلك الأنثي، ولا تدري كيف جمعت كل هذه المتناقضات! في عينيها سحر لا يقاوم وغضب لا يطاق، دلال لا يحتمله قلب إنسان! تجمع بين الحنان والقسوة، بين الضحك والبكاء، بين الموت والحياة! كل أمورها عجيبة، إذا تكلمت، ابتسمت، نظرت أو برزت خصلات شعرها الكستنائي، يفوح منها العطر العجيب... بيضاء يشع من وجهها نور أخاذ، عارية حتي منتصف الصدر، ريانة، لدنة! همس حسين في نفسه:

- رأيتها أول ما رأيتها، وليتني ما رأيتها؛ فقد حرمتني لذيذ المنام من حينها، منذ سنوات عديدة لا أستطيع علي وجه الدقة والإحصاء الوقوف عليها. مذ ذاك الليل الغريب والفراش يعبق برائحتها الذكية، تبدل الفراش

وما ذهبت الرائحة، تبدل الزمان ومازال عبق الرائحة، ولا عجب في ذلك ففي كتاب العشق القديم : «أن رائحة الحبيب تظل في بيت محبوبه مادام محبوبه حياً والمحب علي عهده».

وحسبها حلماً، ولن يري ما عاش تلك الأنثي، وحسبها حورية من حوريات الجنان، ففي النوم يجوز ما لا يعقل ويعقل ما لا يجوز حتي وجدها أمامه رأي العين، بمجلس الشيخ أصيل، في دار الشيخ فؤاد.

فأخذته صعقة مفاجئة، وبعد أن أعادوه إليه، هام بها عشقا ولكنه عشقا مكتوماً، لا يدري ما الذي منعه من البوح به! إلا أن الغيرة كانت تقتله وهي في مجلس الرجل الذي لا يأبه بها ولا بتعلقها الواضح به.

روي حلمه الغريب للشيخ الأخضر والأغرب من الحلم- وقتذاك- هو ديمومة تفاصيلها في حنايا روحه، عشرات السنين وكأنه الحلم الوحيد الذي رأه في حياته، ولا يدري أي دافع نفساني أو مبرر وراء تلك العافية التي عاش بها هذا الحلم كل هذا الوقت.

دون إرادة منه، باح بمكنون حلمه للشيخ الأخضر، فهو الوحيد من الدراويش والشيوخ الذي يمكنه البوح له بمكنون أسراره لأسباب عديدة، لعل أعظمها هو أنه بئر أسرار ولا يتكلم أبداً عن سر استودعه إياه، ثم أنه ناصح جيد- إذا نصح- وإن كان في معظم أحواله يتكلم بالألغاز والكلام الغريب الذي يحتاج لتفسير كبير وقد يوحي ظاهره بغير باطنه.

وفوق هذا وذاك كان لطيف الهمس، كأنه عاشق يجيد مسامرة العشاق، ولا يسخر ولا يقلل من شأن أي إحساس بشري مهما صغر عمر صاحبه، فقد كان يصغر حتى كأنه في عمر محدثه، وذلك يبعث علي راحة نفسية كبيرة، قليل ما يجدها الصغار عند الكبار. قال الشيخ الأخضر كلاماً غريباً وتركه في حيرته ومضي. قال فيما قال:

- من هام في بحر النار أسكرته كؤوس الجمال، وأورقت أغصانه بمداد

الحب، وزالت عجمة قلبه، وأغرقته أمواج الرضا، فكان من الفانين في نور الوجه.

- بالله عليك، ماذا تقصد يا شيخ؟!

- المحبوب لا يموت، والمحب لا يرحل، والبيت لا يخرب.

همس حسين في نفسه:

- ما هذه الحيرة؟! أسأله ليفصح فإذا به يعجم..! ويتركني ويذهب دون استئذان، ما هذه القسوة؟! رغم أنه رجل أرق من النسيم وأعذب من الماء، وأروع من طفل جميل؟!

- إلي أين يا شيخ؟!

- سأجيء إليكم متي فرغت آكامي.

ناشده البقاء، فهو الوحيد الذي يبوح إليه بأسراره ولا يخجل من كشف أدق دقائقه بين يديه.

- فقال حزيناً: من يطرق أبواب الموت، تربو أخاديد وقته.

- يا شيخ، لا أفهم ما تقول، وتغيب عني الإشارات!

نظر إليه نظرة ذات معني وقال:

- من لم يشرب الخمر في الدنيا، حرمت عليه خمر الآخرة.

ثم تركه في حيرته وذهب دون إيضاح.

*****

ومضت السنون وأخذته الغربة- كعادته وعادتها-، وما عاد حسين يرى الشيخ الأخضر، ولم يجده مع من بقي من أصحاب جده في سرادق العزاء، فكانت فاجعة أخرى بعد أن فجعه نبأ وفاة جده الذي عاد من غربته ملهوفاً لرؤية وجهه الحبيب قبل أن يواريه التراب.

رأي أمامه الوجوه، التي ازدحمت بها ذاكرته منذ الطفولة، وأقوالهم العديدة والغريبة، ولم يعجب لعدم انفلاتها رغم بعد الشقة، كأشياء كثيرة

أخرى، طوتها يد الحدثان.

فقد كان جده، من أهل الطريق، محب لآل البيت الأطهار، لا يخلو بيته الكبير من الزوار والأضياف والمريدين والمحبين.

وإذا نسي لا ينسى ذلك الرجل، نحيل الجسم، أسمر البشرة، يطل من عينيه الواسعتين بريق غريب لكنه محبب للنفس، وكأن نظراته لمن ينظراليه تعتذر عن شقاء الدنيا ومنغصاتها، وكان كثيراً ما يردد:

- «خذ من العيش ما كفي، ومن الدهر ما صفي».

كان الجميع ينادونه بالشيخ الأخضر، وأحياناً بالأخضر فقط، وكان كثير الشرود، مغمض العينين، صامت. وإذا تكلم يروي الحكايات الغريبة الجميلة ولا يستطيع أحد إسكاته مهما طالت رواياته حتي يسكت هو، تأخذه بين الساعة والساعة رجفة عظيمة يهب لشدتها واقفا، ثم قافزاً، أو ينجدل على الأرض وكأنه قد صعق.

وكان الدراويش وأهل الطريق يفسرون ذلك بأن الأخضر، جمع بين مقامين «الموسوية والعيسوية» فهو عيسى بن مريم في ارتفاعه، وهو موسى بن عمران في صعقته أمام الجبل.

- ومنهم من كان يقول: الأخضر حين يخف عنه طين الجسم وتحلق الروح بجناحيها، يهيم شوقاً إلى السماء فيعلو، وإذا ثقل الطين فينجذب إلى الأرض ويهبط.

أما أعجب ما رواه البعض عن الشيخ الأخضر، ما حدث له قبل أن يطلق عليه الأحباب لقب الأخضر، وكان ذلك سبباً لهذا الاسم الطريف.

- قال أحدهم: لما ثقلت عليه المواجيد، بين موسوية وعيسوية، انطلق يعدو في الفلوت وهو يصرخ: أغيثوني، أغيثوني، فقد أحرقت سطوة أنواره القلب وحبه القلب وقلب القلب والفؤاد!

فطلع عليه قوم يرعون أغنامهم، يسألونه:

- ما أصابك يا أخ العرب؟! ما أصابك يا رجل؟!
- قال مستجيراً: أغيثوني، يريد قتلي وأريد الفرار منه.
- قالوا: من أي البلدان أنت؟!
- قال: وطني قلب محبوبي.
- فتضاحكوا وقالوا: مجنون ورب الصحراء!

فانطلق يعدو، فجعلت الصحراء تخضر، تحت قدميه وينبت العشب والكلأ ويطولا! فانطلقوا خلفه يهتفون:

- انتظر يارجل، انتظر يا شيخ، أيها الشيخ الأخضر، انتظر؟

عندما توقف، قبلوا يديه، رأسه، كتفيه، ثيابه الرثة، قالوا:

- ما حكايتك أيها الولي؟!

نظر إليهم نظرة المتأمل، وقال وكأنه يخاطبهم:

- كّحل عيونك بعطر كلام محبوبتك، وإلا ما استطعت النظر إليه.

واسكر من خمر حبيبك كى تصحو من سطوته ، وإلا ما استطعت مجالسته ومؤانسته.

الحب، حبان، يا أهل الحب فانتبهوا، حب لنور الوجه وحب لوجه الوجه، ثم انتفض باكياً ،وهو يقول:

- أغيثوني، أغيثوني فقد أحرقت سطوته القلب والفؤاد، أغيثوني.، يريد قتلي وأريد الفرار منه.
- قالوا وقد لفتهم الحيرة: ما عرفنا مقصدك يا شيخ!

اقشعر جلد الشيخ الأخضر وقال:

- قال سيدي وشيخي وجدي، محمد بن عبد الجبار النفري: «وقال لي: إذا جعلت لغيري عليك مطالبة أشركت بي، فاهرب هربين، هرباً من الغريم وهرباً من يدي».

وفر هارباً، تاركًا القوم في حيرة شديدة.

وكان البعض يرجع سبب التسمية بالشيخ الأخضر، إلى أنه كان يلبس عمامه خضراء اللون، وزاد بعضهم أنه كان يلبس عمامه خضراء وجلباب فضفاض أخضر.

ويذكر حسين، في إحدى زياراته لمسجد الإمام الحسين، وبعد اختفاء الشيخ الأخضر بسنوات طوال أنه رأى رجلاً بوصفه ورسمه يرتدي عمامة خضراء وجلباب فضفاض أخضر، فوقف يتأمله وقد شده إليه شيء ما جميل ورائع الروح لا تحمله حروف اللغة، وهو ينظر ويبتسم ثم يهتف، كمن ينادي على أحد:

- السيدة الكريمة، الحليمة العظيمة، أمنا السيدة زينب.

اقترب منه شوقاً وحباً، يملأ صدره برائحته الذكية، ويمتع فمه بتقبيل يده الندية، فنزع يده بشدة زاعقًا:

- تأدب نحن في حضرة مولانا!

ثم انكفأ على عتبة باب الحجرة الحسينية، وقبلها وهو يبكي ويقول:

- العفو يا سيد الشهداء، ما كنت يوماً غير خادم مطيع.

تسمر حسين مكانه لا يدري ماذا يفعل؟! أو ماذا سيفعل الرجل معه بعد ذلك؟!

كانت الدمعات ما تزال تترقرق فوق خديه، تكسو وجهه الأسمر جمالاً وجلالاً، وإذا بحسين وبغير إرادة منه يبكي هو الآخر.

ابتسم الرجل من جديد وربت فوق كتفه وقال:

- كفى يا ولدي كفى، ماء عينيك المالح يكوي وجهي بسخونته، وكفاني ما بي من أوجاع وأعطاب.

- أنت الشيخ الأخضر؟!

- حفظك الحافظ أتراني كذلك وقد يبست أرضي وجفت ودياني وهلك زرعي وكثرت رمالي وصحرائي وفلواتي وعوي فيها الذئاب وهرت عليها الكلاب؟!

أخذت حسين حيرة شديدة، هو كلام الشيخ الأخضر الملغز ،ونفس الشكل والملامح ، إنه هو..!

قال له سؤال من يودعه، وينصرف عنه:

- قل لي يا عم، ءأنت الشيخ الأخضر؟

فازدادت ابتسامته وقال:

- أرجو ذلك فكلنا أخضر إذا أراد، وها أنا ذا أرجو ذلك منذ سنوات طوال، وأخشى أن يزداد جدب ودياني وقحالة أرضي وائتناس الوحوش بي.

وفجأة تركه الرجل وانصرف يهرول في المسجد وهو يهتف:

- الكريمة، الحليمة، العظيمة، أمنا السيدة زينب.

*****

كان الشيخ الأخضر صاحب حكايات غريبة وحركات عجيبة، فتارة يظهر في ثوب شحاذ، لكنه لا يسأل الناس ولا يقبل شيئاً من أحد لا يعرفه.

وتارة يبدو في هيئة شيخ معمم، يعظ الناس بكلام رائع واضح لا ألغاز فيه ولا مواربه.

وتارة يرتدي بذلة أفرنجية وكأنه أستاذ بجامعة غربية يضع قبعة على رأسه.

وتارة في هيئة قسيس يلبس السواد، ويتدلى من عنقه الصليب، ينشد أشعار الحسين بن منصور الحلاج :

عقد الخلائق في الإله عقائد :: وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه وحين يأخذ عليه الآخذون ذلك يضحك قائلاً:

سقوني وقالوا: لا تغن ولو سقطوا :: جبـــــال حنين ما سقيت لغنت

تمنت سليمى أن أموت بحبـــــها :: وأســـــهل شيء عندنا ما تمنت

وكان صاحب حكايات طريفة كأنها أساطير لا حقيقة فيها ويرويها محدثاً عن نفسه وكأنه يروي عن رجل غيره فيقول:

- حدثنا الشيخ الأخضر- جبر الله كسوره العديدة- عن والده، عن والد والده، الشيخ الأقدم قال: «لا تصح علاقة عشقك إلا بين بني جنسك، فاستر عيبك واستغفر ربك».

وكانت تلك العادة، تشجع البعض لاخترع الأقوال والأحوال ثم ينسبها الي الأخضر، وكان من عاداته أن يسيح في الأرض يغيب شهوراً طويلة ثم فجأة تجده أمامك! يقيم وسط الدراويش مدة طويلة كأنه لن يفارقهم وفجأة يختفي دون سابق إنذار.

وإذا سئل عن ذلك قال:

- الفاكهة لا تدوم طوال الوقت، ثم يضحك، وكان قليلاً ما يضحك.

الغريب أنه كان لا ينفي الأقوال والأفعال المكذوبة عليه ويكتفي بالابتسام، وكان ذلك يعجب حسين، وربما ورث منه تلك العادة الغريبة التي تجلب المتاعب أحياناً وتسيء إلى سمعتة!

٧

مريم العذراء وعسل النحل

في سرادق العزاء رأي حسين وجوهاً كثيرة من المريدين والمحبين وأهل الطريق وأصدقاء جده، وجوهاً يعرفها جيداً ويعرف أسماء أصحابها ووجوهاً يعرفها وقد غابت عنه الأسماء.

كانت الدمعات تخط علامات لامعة فوق الكثير من الوجوه، وكانت سورة الحزن تأخذ بوجوه أصدقائه من الأقباط، وكانوا كعادة القرية يجلسون بين المسلمين نسيج مؤتلف، وكأن القرية كلها أهل بيت واحد بخيرهم وشرهم، تضمهم بين جدرانها بيوت واحدة يجهدهم العمل في حقول واحدة، تجمعهم سرادقات العزاء ليستمعوا لآيات القرآن الكريم معاً، وإن كان يغيب عن معظمهم معاني الآيات للأمية التي تنتشر بينهم.

يمارسون رذائلهم معاً، يطفئون النيران التي تفاجئ بيوتهم معاً، يفرحون معاً، يمارسون الكذب والصدق معاً، ويتناوبون المشورة في مواعيد الزراعة وما يصلح الأرض معاً، يطأطئون رؤسهم معاً أمام حلاق القرية الوحيد الأسطي خليل، ذلك الرجل الطيب، الفقيه، خفيف الظل، شديد الذكاء، لا يشبع منه جليسه أبداً، والذي يقوم بدور كبير في مداواة المرضى بالقرية.

وكانت دمعات المقدس عزيز، ابن المقدس مسيحة لا تتوقف، فقد كانت تربطه بجد حسين غير أواصر الصداقة ما يسميه أهل القرى، «عيش وملح».

فقد كان المقدس عزيز إلى جوار ما يبرع فيه من فنون استخراج العفاريت من الأجسام المسكونة بها. بارع في تربية النحل، وقد جعل في حقل جد حسين مجموعة كبيرة من الخلايا يتعهدها بالرعاية وزيارتها كل

عدة أيام، فكانت تجمعهما موائد الطعام والأحاديث الطريفة، وذلك ضمن ما ينشره من خلايا لنحل العسل في حقول عديدة بالقرية.

وكان الناس يتعجبون كثيراً ويتناوبون النظرات في جلسات استخراج العفاريت، حيث يتلو المقدس عزيز الكثير من آيات القرآن الكريم في تلك المهمات، علي جسم «المسكون» الممد أمامه... هذه الآيات التي لا يحفظها الكثيرون من أهل القرية المسلمين، وربما لا يعرفون معانيها إلا بما توحي إشارات المقدس عزيز. وكان رجلا طيب الأخلاق، هادىء الطباع، لا يغضب إلا إذا زاد به الكيل وأعجزته الحيل.

وكان المقدس عزيز يشعر إلى جوار ذلك بالتزام ديني نحو أقباط القرية، فجعل من فناء داره الواسع ما يشبه الكنيسة الصغيرة، يتجمع فيها الأقباط كل أسبوع أو أسبوعين عندما يأتي إليهم أحد القساوسة ليلقي عليهم المواعظ وشئون الدين.

وكان الأطفال ومنهم حسين، وربما كان معهم بعض الشباب أو الرجال، يتسلقون جدران البيوت المجاورة لبيت المقدس عزيز، ويتابعون من فوق الأسطح بدافع حب الاستطلاع صلوات القسيس الضيف.

وكان أحد القساوسة، أهدى المقدس عزيز تمثالاً للسيدة العذراء مريم البتول، وضعه في تلك الكنيسة الصغيرة التى هى صالة البيت. وكان الأقباط ينظرون إليهم مبتسمين، فيتبادلون الابتسام وإشارات الأيدي.

الطريف أن المقدس عزيز اشتهر بين الأهالي بهذا اللقب لحسن سيرته وقوة شخصيته. وامتداداً لسيرة والده المقدس مسيحه الذي زار القدس الشريف، وكنائس فلسطين العديدة وخاصة بيت لحم- مكان ميلاد المسيح- عندما كان جندياً بالجيش المصري في حرب ٨٤٩١م، وكان يفخر بتلك الفترة من حياته ويعدها أبرز وأحلى ما فيها من أيام رغم ما واجهه من أهوال في تلك الحرب التي عاد منها مبتور الذراع الأيسر. وكان كثيراً ما

يعلن عن شوقه الجارف للعودة إلى أرض فلسطين ليموت هناك ويدفن في ترابها المقدس.

وكان رأس مفاخر المقدس مسيحة أنه كان ضمن كتيبة البكباشي جمال عبدالناصر، أكثر من ذلك أنه كان يحتفظ بصورة له ضمن مجموعة كبيرة من الجنود والضباط، وسطهم البكباشي جمال عبدالناصر، كما يحلو له دائماً أن يطلق عليه، رغم تغير الظروف وتولي عبدالناصر رئاسة البلاد، إلا أن المقدس مسيحه لا يذكره بلقب الرئيس أو الزعيم أبداً. وعندما يطلب منه أحد العدول عن لقب البكباشي وإلا أبلغوا عنه الحكومة التي ستدخله السجن، قال في صرامة شديدة:

- هذا هو جمال عبد الناصر الذي رأيته، وصافحته، وأكلت معه، وأحببته، ونفذت أوامره.

وكان يضع الصورة في صدر قاعة الأضياف ليراها كل زواره، ويكون ذلك مفتاح الحديث عن تلك الفترة والافتتاح الرسمي لغرفة تذكاراته.

كان حسين يمر بين صفوف المعزين كعادة أهل الريف، رافعاً يديه لتحيتهم قائلاً:

- شكر الله سعيكم.

فيردون عليه بدورهم قائلين:

- غفرالله ذنبكم.

وما أن رأه المقدس عزيز يقترب منه حتى فاضت دموعه بغزارة، وهب واقفاً يحتضنه بين ذراعيه، قائلاً وهو يغالب البكاء:

- ربنا يبارك فيك يا رائحة الناس الطيبين. ثم تمتم وهو يجلس: محترم مثل جده بالتمام والكمال.

لم يقطع علاقة المقدس عزيز ببيت الرجل الذي أحبه كثيرا وأكل وشرب وضحك فيه كثيرا، الذى هو جد حسين إلا الموت. فقد ظل علي وفائه

لصاحبه القديم، يذهب لرعاية خلايا النحل ويقسم محصول العسل بينه وبين أهل الدار، ولكنه كان يرفض الجلوس أو تناول الطعام كما كان يفعل أيام الشيخ، وكان يقول:

- ذهب من كان يفتح شهيتي ويجعل لقيمات الخبز الجاف أشهى الأطعمة..!

وظل علي حاله هذا، حتي أدركه الموت بعد عام واحد.

بعد موت المقدس عزيز جعل النحل يموت في خلاياه دون سبب واضح، حتي اضطر أولاد المقدس إلى محاولة إنقاذ ما تركه الموت، فنقلوا الخلايا الخشبية والطينية إلى حقل آخر، بعدها فرش الصمت خيمته على المكان الذي كان لا يكف عن الحركة.

*****

وكان المعلم أيوب النصراني- كما يناديه أهل القرية- ممتقع الوجه، حزين الملامح أشد ما يكون الحزن، وكأنما فقد أعز إنسان لديه، مغمض العينين مطأطأ الرأس، يحركها في أسى وألم كلما ذكر قاريء القرآن الكريم في سرادق العزاء، كلمة الموت.

كان المعلم أيوب هو نجار القرية الوحيد، يصلح السواقي ويصنع الأبواب والشبابيك، وإصلاح طلمبات المياه، فكان يتعهد طلمبة مياه المسجد بالإصلاح كلما توقفت عن العمل، وكذا أبواب وشبابيك المسجد، وأبواب دورات المياه به، رافضاً تقاضي أي أجر مقابل ذلك، مردداً مقولته الشهيرة:

- أجري من صاحب البيت، لا من البشر.

وكان البعض يضاحكه، معلقاً علي كلماته:

- ولكنك نصراني يا أيوب!

- فيرد قائلاً: صحيح الأديان كثيرة، ولكن الله واحد، يا عالم يا غجر!

فيضحك الجميع.

وكان جد حسين يربت علي كتفه، ويقبله قائلاً:

- الله يجازيك يا معلم أيوب، كلك خير.

ثم يأخذ بيده ويتجها إلى البيت لتناول الطعام إذا كان الوقت وقت الطعام، أو يشربا الشاي ومعهما صحبة من الرجال. فيقول المعلم أيوب ضاحكاً:

- منذ أسابيع لم أذق فطير الحاجة ضيا النفوس، أوحشني جداً، له طعم جميل لم أتذوقه في أي مكان آخر.

- هي تعرف إنك تحب الفطير من يدها، وستصنعه لك بمجرد دخولنا الدار.

- وهل في ذلك جديد؟! أيوب النصراني يدخل الدار فتحل البركة، وتذهب الحاجة ضيا النفوس لتوقد الفرن.

- الغريب فيك يا معلم أيوب إن لسانك طويل ومعدتك صغيرة، فمن يسمع كلامك يظن بأنك رجل أكول ولكنك حقا بركة.

كان المعلم أيوب يتمتع بخفة ظل رائعة، سريع البديهة يفاجأ من يحادثه بتعليقاته الساخرة اللذيذة، فيعلو الضحك وتعم البهجة.

في مواسم الحصاد، كان بيت المعلم يمتليء بخيرات الأرض من الأرز والقمح والفول والشعير والبصل والثوم، فقد كانت النجارة حرفته الوحيدة لا يمتلك أرضاً يزرعها. وكانت القرية لا تتعامل مع أهل الحرف كالنجار والحلاق وحائك الملابس بالنقود، وإنما بقدر معلوم من محصول الأرض، أطلقوا اسم «الميسانية» أو « السنوية» تعطى لهم كل موسم زراعي، وكذا الحال مع خطيب المسجد والمؤذن.

وظل الحال هكذا حتى تغيرت الأيام والأحوال واختفت السواقي ليحل محلها مواتير المياه التي تعمل بالسولار، وعملت وزارة الأوقاف على ضم المساجد لإدارتها وتعيين الأئمة والخطباء ومقيمي الشعائر برواتب شهرية.

وعرف أهل القرية التعامل بالنقود مع الحلاق وحائك الملابس وانتهى زمن «الميسانية» مع أشياء كثيرة، وعادات تعودها الناس أجيالا عديدة.

وذلك جعل المسنين من الرجال والعجائز من النساء يترحمون على تلك الأيام قليلة النقود كثيرة الخير والحب. فقد كان رب الأسرة ينتظر الدجاجة حتى تضع بيضها ليبتاع بها الشاي والسكر والسجائر والمعسل والنشوق، وكان البيض بمثابة العملة الرسمية لأيام الفقر المادي والغني الروحي.

أما من كان يخشاه أهل القرية ولوقت طويل فهو المعلم جرجس، فقد كان يجيد القراءة والكتابة، والمقصد الوحيد لكل من يريد كتابة بلاغاً لنقطة الشرطة والمركز، لمن تقع بينهم المشاجرات والخلافات التي لا يقو العقلاء على إنهائها أو من يريد بلاغاً كيدياً.

وكان يتربح من تلك المهنة فورياً بالبيض والجبن والزبد، إلى جوار مهنته كحائك للملابس القروية، جلابيب وقمصان ريفية وسراويل، وكان من عاداته السيئة ارتداء ملابس من يتأخر منهم في استلامها ولا يجد من يرى جلبابه على جسمه، وقد نقشته البراغيث بدأ من أن يظهر غضبه لذلك، ولكن سرعان ما يزول الغضب خشية عواقب البلاغات الكيدية التي قد تفاجئه ذات يوم.

وكان المعلم جرجس رجلاً أكول، وما أن يشتم رائحة طعام ما مثل الفطير أو البيض المقلي أو اللحم والسمك تنفذ من أحد البيوت، حتى يجده أهل البيت وسطهم دون دعوة، يجلس بينهم بشراهته المعهودة.

وله في ذلك نوادر وطرائف، فقد صادف ذات صباح رائحة البيض المقلي تخرج من دار أحمد أبو عبد الحميد، وكان الرجل تشاجر مع زوجته وطردها إلى بيت أهلها، ولم يجد في الدار سوى أربع بيضات قام بكسرهن في السمن البلدي مع الخبز لتكون طعام الإفطار لصغاره الثلاث، وكأن الأرض انشقت عن المعلم جرجس وهو يضحك قائلاً:

- بيض يا ولاد الكلب؟!

وما هى إلا لحظات، كانت بطنه المستقر الأخير للبيض المقلي في السمن البلدي، بينما الأطفال يشاهدون طريقة تناوله الطعام بدهشة كبيرة، فما كان من أحمد أبو عبد الحميد إلا الانفجار في البكاء وهو يردد:

- أكلت البيض ياجرجس؟! أكلت البيض يا جرجس؟!

وسرت عدوى البكاء للأطفال، بينما المعلم جرجس يعلو ضحكه وهو ينصرف من الدار قائلاً بصوته الأجش:

- وهل نحن في مأتم يا ولاد الكلب؟!

ولا ينسى المعلم جرجس ما حدث منه مع جد حسين حين ارتدي جلبابه الجديد، وقد نقشته البراغيث لأن المعلم كان ينام دون أن يغير الملابس التي يرتديها فتفعل فيها البراغيث ما تفعل، فضحك جد حسين قائلا:

- حلال عليك يا معلم. وسأشتري قطعة من قماش أخرى لكن أرجوك ألا تلبسها.

ولا ينسي المرات العديدة التي يفاجئه فيها صوت جد حسين وهو في دكانه جالساً خلف ماكينة الحياكة يدعوه لتناول فطير الحاجة ضيا، أو يرسل في طلبه فيترك كل شيء بل يهم في إسراع الخطى إلى الدار قبل أن تضيع سخونة الفطير وتضعف رائحته التي يعشقها، فقد كان المعلم جرجس إلى جوار نهمه في تناول الطعام يتلذذ بطعمه بصورة تثير شهية من يؤاكلونه.

في سرادق العزاء، جلس المعلم جرجس واضح الحزن، بصورة جعلت البعض يتهامس متسائلاً:

- من أين أتى المعلم بكل هذه الإنسانية؟!

وعلق جعيصه ابن شريفة الغزية، قائلاً:

- ربما سر حزنه وخوفه على انقطاع ولائم الفطير والبيض المقلي والقشدة والسمن البلدي.

فنظر إليه علي السفروتي نظرة ذات معني قائلاً:

- احترم الظروف يا ابن الغزية!

فلزم الصمت بطريقة توحي بالإعتذار، وظلت هيبة المعلم جرجس قائمة لفترة طويلة حتى انتشرت المدارس وجعلت الأمية تتراجع ويكثر خريجوا المعاهد والكليات، وأمام البطالة التي لا يخلو منها بيت أصبح التعليم بلا قيمة عملية واختفى نجم المعلم جرجس الذي طالت البطالة أولاده وضربت الملابس الجاهزة مهنته في صميم، وعاش الرجل في كدر، وقد تراجعت شهيته للطعام كثيراً مع كبر السن، وأمراض المعدة والكبد التي جعلت علب الدواء لا تنقطع من داره.

بل أصبح مسار سخرية ممن هم في سني عمره وبخاصه في أيام مرضه.

ذات مرة ضاحكه أبو سيد أحمد أحد أصدقائه الفكهين وهو يعوده قائلاً:

- عندما اشتكى المعلم وجع بطنه فتح الطبيب حنكه ونظر فيه فوجد قرن جاموسه، فجعل يجذبه خارج فم المعلم فإذا به رأس جاموسة كاملة..! فصعق الطبيب وضاع عقله، وجعل يهذي بكلام غريب والمعلم يضحك، ويحمد الله على أن الجاموسة لم تخرج.

وكان المعلم يضحك رغم مرضه قائلاً:

- الله يجازيك يا رجل يا ناقص، كفاية حرام عليك الضحك يؤلمني.

فقال شحاتة الأعور، وكان ضمن من جاءوا لزيارة المعلم:

- الضحك يؤلمك والجاموسة لا تؤلمك؟!

- فيضحك قائلاً: آه يا بلد غجر، الله يرحم أيام زمان، كنتم تقبلون يدي ويملأكم الرعب من رؤيتي، ولكن ماذا أقول: دوام الحال من المحال!

عادة أخري غريبة كان يفعلها بعض أهل القرية من البخلاء، كان وراءها المعلم جرجس دون أن يدري، فقد كانت بعض تلك البيوت تغلق أبوابها

بشدة بوضع عروق الخشب الغليظة خلف الباب عند تناول طعام العشاء، في الليلة التي يحتوي فيها العشاء علي «الظفر»- كما يسميه أهل القرية- من البط والأوز والرومي والدجاج، خشية اقتحام المعلم لمائدة الطعام فتفسد الفرحة.

أما اللحم الذي يبتاع من الجزار فلا مكان له في بيوت القرية إلا في الأعياد والمواسم والمناسبات غير السعيدة التي يضطر فيها أحدهم لذبح جاموسته أو بقرته بعدما تصاب بمكروه قد يودي بها، فيذبحها ويتعاون الأهالي في توزيع لحمها، مشاركة منهم في تعويض صاحب المصيبة.

وفي يوم الذبح يطير الأطفال إلى آبائهم في الحقول يبشرونهم بنوع العشاء، ونوع الطيور التي ذبحت.، فتسري الفرحة وتعم البهجة ويبشر الرجل نفسه بليلة سعيدة.

أما وجبة الغداء، فكما تيسر لها من خبز جاف، وجبن وأشياء الحقل مثل الفول الأخضر والسريس والبصل والطماطم وهكذا.

أما يوم الجمعة، فغالباً ما يكون طعام الغداء هو الفطير المشلتت وعسل النحل والجبن الأبيض، حيث يحرص الرجال علي أداء الصلاة في مسجد القرية، مهما كانت المسافة بعيدة بينه وبين الحقل.

فما أن يصعد المؤذن علي ظهر المسجد منوهاً عن اقتراب موعد الصلاة، حتى يترك كل رجل ما في يده من عمل متوجهاً إلى الترعة ليأخذ حمام الجمعة، وما أن تغمر المياه جسمه حتى يخرج سريعاً مستحثاً نفسه على عدم الإبطاء، نحو القرية هاتفاً:»الأولة طلعت»، ويعني بذلك دخول وقت الجمعة.

كلمات لا يدرك معناها إلا أهل القرية، وقد كان حسين يتعجب كثيراً من تلك الكلمة، حين تقولها الحاجة ضيا النفوس لتشجع صبيان الدار الذهاب للصلاة، وعندما سألها ذات يوم:

- ما معنى «الأولة طلعت» يا جدتي، قالت له:

- يعني وقت الصلاة حضر يا نور عين جدتك.

*****

تربى حسين في بيت جده مذ فطمته أمه، فهو أول حفيد لجده وجدته، وكان للشبه الكبير بينه وبين جده عاملاً كبيراً بتعلق جده به، ومن هنا كانت علاقة حسين بوالده النبوي عبد الله عادية ليس فيها تلك الحميمة المعهودة. وازدادت العلاقة فتوراً بعدما تزوج والده من البنت «شجية» بعد وفاة أمه بوقت قصير، وكان الرجل يبرر ذلك بأنه لا يطيق الحياة بغير زوجة.، وقد تفهم جد حسين وجدته ضيا النفوس ذلك رغم حزنهما القاتل على موت إبنتهما.

كان والد حسين رجلاً طيباً لا ناب له ولا ظفر، لا يقحم نفسه في مشاكل غيره من الناس، وكأنه الحاضر الغائب في أمور عديدة.، وكان يحب جد حسين وجدته لأمه، بل ويقبل أيديهما عن طيب خاطر.

قليل الحيلة، وكما وصفوه «يغرق في شبر ميه»، سهل المقود، إلا أنه مع ذلك كان عليماً بفنون الزراعة وأوقاتها وتربية الحيوانات ومعرفة عللها.

كل ذلك جعله محل ثقة كبيرة من الأهالي حيث كانوا يستدعونه لتوليد البهائم ومعرفة شهور عشارها، حيث يمد يده داخل الجاموسة أو البقرة أو المهرة ويخرجها قائلاً:

- هذه «عشر ثلاثة أشهر وسبعة أيام»، وهذه «عشر ستة أشهر وثلاثة أيام»، وهكذا.

وقد اكتسب هذه الخبرة من والده الحاج عبد الله الذي كان حريصاً على إفهام ولده شئون الزراعة والحيوانات التي كان بارعاً فيها، وبالفعل ورث النبوي من والده تلك الفنون التي هي عماد الحياة في القرية.

وكان يؤدي تلك الخدمات لأهل القرية دون مقابل، اللهم إلا كوباً من

الشاي أو حجراً من المعسل، وتلك طبيعة الحياة في القرية.

وكان جد حسين كثيراً ما ينعت النبوي، زوج ابنته بأنه من رجال الله المخلصين الذي لا يعرف العيب ولا يعرف الطريق إلى الشر.

وكان والد حسين، يتميز عن شباب جيله بعدم العبث أو سرقة القطن من الحقول ليلاً.، وعرف طريق المسجد منذ صغره، وتلك كانت مؤهلات كبيرة وجليلة في عرف جد حسين، وكانت وراء موافقة الرجل علي زواجه من ابنته الجميلة التي ذهب لخطبتها رجال أثرياء وأصحاب جاه، ولكنه كان يرفض. وعندما طلبها النبوي وافق منذ اللقاء الأول وقال بأنه رأى نوراً في وجهه.

*****

٨

أحزان موت عبد الناصر

في سرادق عزاء جد حسين، رأى الحزن يعربد في وجوه الرجال بقسوة لم يرها من قبل إلا مرة واحدة، ما زالت رغم صغر سني عمره حينها حاضرة في ذاكرته، وهو اليوم الأسود- كما أسماه المصريون- يوم موت الرئيس جمال عبد الناصر.

كان حسين قد ارتدى مريلة المدرسة وحمل حقيبة الكتب الدراسية، وبينما يخطو خارج البيت رأى خالته قادمة وهى تلطم وجهها وتصرخ: جمال مات، جمال مات، جمال مات.

*****

بعد ذلك بسنوات كثيرة عرف حسين أن جمال مات عقب سماعه نشرة الساعة الخامسة مساء.

سمع ذلك بأذنيه من الطبيب الخاص للرئيس، وهو الدكتور الصاوى حبيب، وكانت الصدفة وحدها وراء ذلك عندما ذهب حسين إلى عيادة الدكتور الصاوى أستاذ أمراض الباطنة والقلب بشارع الجمهورية قبالة القصر الجمهورى- الملكى سابقاً- بعابدين؛ لسمعة الرجل الطيبة ومهارته كطبيب ورخص أتعابه التي يتقاضاها، إلا أن كثيراً من مرضاه لا يعرف أنه كان الطبيب الخاص للرئيس، وهناك كانت الصدفة الغريبة، فقد رأى صورة صغيرة الحجم للدكتور الصاوى مع الزعيم الراحل، معلقة على استحياء في ركن قصي بغرفة الكشف قبالة مكتب الطبيب، وكأنها صورة خاصة به وحده دون غيره من البشر.

- هل كنت أحد أطباء الرئيس يا دكتور حبيب؟

ابتسم الرجل ابتسامة خفيفة وهو يقول: نعم يا ولدى.

- يقولون إن الزعيم مات مسموما، هل هذا صحيح؟

- هذا السؤال أجبت عليه كثيراً، ولكن لا أحد يصدق! لا أدرى لماذا يصر الناس على تصديق الأكاذيب وتكذيب الصدق؟!

ثم صمت قليلاً ، وهز رأسه قائلاً:

- ربما لأن الحدث كان أكبر من الكذب والصدق! كان الناس يا ولدى لا يتخيلون أن الزعيم سيموت، فقد كان حديث موته أصلاً لا وجود له، ليس خيال البسطاء فقط بل الشعراء والأدباء والساسة وغيرهم، حتى أعدائه لم يتخيلو أنه سيرحل مبكراً هكذا.

- لم تذكر الأطباء يا دكتور؟

- أطباء الرئيس كانوا يعرفون أمراضه، ولكنهم لم يتصوروا أنها ستكون بهذا العنف والجنون رغم أنها عنيفة فعلاً، ربما لطغيان صورة الزعيم السياسية على صورته كرجل مريض.

- ارجو أن تصف لي لحظات موته، إن لم يكن في ذلك إزعاج لكم.

- جئت لتوقيع الكشف الطبى عليك أم لعمل حديث صحفي؟

- سامحنى ولكنها صدفة مدهشة، وأدهش منها ذلك التواضع الغريب للعيادة والأثاث الموجود بها وفوق هذا وذاك، تواضعكم النادر. فمن سيصدقنى إذا حدثت الناس أن طبيب الرئيس عبد الناصر هو من وقّع الكشف الطبى علىّ أنا؟!

نظر الدكتور الصاوى إلى صورته مع الزعيم واغرورقت عيناه بالدمعات وقال:

- كلنا بشر يا ولدى، ورحم الله جمال فقد كان مثالاً للتواضع ولكن الناس لا يعرفون منه إلا الزعيم القوى.

- إلى هذه الدرجة تبقى جذوة الحب مشتعلة رغم مرور السنوات الطوال؟

- الذكريات هى سنوات أعمارنا، وأحداثها هو الميراث الذي نتركه خلفها.

- هل كل من كان حول عبد الناصر يحبونه مثلما رأيت في عينيك؟

- يخيل إليّ أن تراب الأرض كان يحبه، فقد كان رجلاً مخلصاً لبلده وأمته بشكل مازال يدهش الكثيرين.

- لكن الكثيرين طحنت عظامهم زنازين عبد الناصر، ونهشت لحومهم زبانية السجون! كما فى كثير من الكتب السياسية فى هذا الشأن .

- لا أحب الحديث عن هذه الأشياء فهي للتاريخ، ولكن ما أعرفه هو علاقتى بالرئيس كطبيب.

ساد الصمت قليلاً ثم قال الدكتور- ربما ليجبر خاطرى-:

- سأروي لك اللحظات الأخيرة في حياة الرئيس ولكن قل لى أولاً: هل أنت ناصرى؟

- إذا كانت الناصرية هى ما رأيت في طفولتى يوم موت الرئيس فكل أبناء البسطاء ناصريين،.

- ابتسم الرجل وقال : كثيراً ما تسمع عن عظمة رئيس أو ملك أو حتى وزير، وإذا التقيته وجدته أقل بكثير مما كنت تعتقد، إلا عبد الناصر وجدته أعظم مما كنت أقدره، وذلك ليس رأيي وحدي بل كثير ممن اقتربوا منه...

- ثم تنهد الدكتور الصاوى وشرد بعيداً وقال: في شهر أبريل ٠٧٩١ حدث تغيير في رسم القلب مصحوباً بتغيير في التحاليل الطبية للرئيس، واستوجب ذلك أن يخلد عبد الناصرللراحة فترة طويلة، اختصرها هو لمدة أسبوع واحد، وكان هذا أقصى ما حصل عليه من راحة. وكانت التحاليل تشير إلى ارتفاع نسبة الكوليسترول، ووجود مرض السكر وضيق وتصلب الشريان التاجي مع ارتفاع ضغط الدم مؤشراً على زيادة الخطورة، بالإضافة

إلى زيادة القلق والتوتر بسبب حرب الاستنزاف، وكثرة الأعباء رغم إقلاعه عن التدخين الشره.

وهكذا كانت الأحداث تدور وعبد الناصر في مركز الدائرة يدور بها ومعها ولا يستطيع الخروج منها، ولا يستطيع أحد إخراجه إلا أن تتوقف العجلة عن الدوران وتخمد النيران ويضع المتقاتلون السلاح. وهو ما كنا نأمل فيه ونترقبه لكى يحصل عبد الناصر على إجازة تحافظ على ما تبقى من رصيده الصحي وهى إجازة تمنحها له الأحداث بتوقفها وليس الأطباء بنصائحهم.

- أتقصد بالمتقاتلين ما حدث بين الأردنيين والفلسطينيين ما يسمى بمذبحة أيلول الأسود؟

- ومن غيرهما؟

- لم تخبرني عن اللحظات الأخيرة بعد يا دكتور؟

- سأخبرك بكل شيء فقد كنت ثالث ثلاثة شهود تلك اللحظات، ودونت ذلك تحت عنوان «يوم ليس له آخر».

فعندما انتهى مؤتمر القمة العربية في ٧٢ سبتمبر ٠٧٩١، وبدأ الملوك والرؤساء في المغادرة، وعبد الناصر يودعهم في المطار ولم يبق إلا أمير الكويت ليودعه في الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالى، وفي تمام الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر يوم ٨٢ سبتمبر وصلتنى مكالمة تليفونية من سكرتير الرئيس الخاص المرافق له في المطار، بأن الرئيس يطلب مني التوجه إلى منزله في منشية البكرى، وتوجهت من منزلي بوسط البلد إلى منزل الرئيس بعد حوالى ثلث الساعة وقابلتنى السيدة حرمه خارج حجرة نومه وأخبرتنى أنه عاد من المطار ويشعر بالتعب الشديد وأنه تناول كوباً من عصير البرتقال من يدها.

كان الرئيس مستلقياً على السرير مرتدياً بيجامته ورأسه مرتفعاً قليلاً،

وقال لي إنه شعر بتعب أثناء توديعه أمير الكويت وأحس أن قدميه لا تقويان على حمله.

سكت الدكتور الصاوى قليلاً ثم قال:

- عندما فحصته لاحظت وجود عرق بارد على جبهته ووجهه شاحب بعض الشيء والنبض سريع لا يكاد يكون محسوساً، وكان ضغط الدم بالغ الانخفاض وأطرافه باردة، فأحسست بخطورة الموقف واستدعيت الدكتور منصور فايز أستاذ الباطنة والدكتور ذكى الرملى أستاذ القلب، وعملت رسم قلب، فقد كانت غرفة نوم عبد الناصر أشبه ما تكون بغرفة الإنعاش بكبرى المستشفيات، بها جميع الأجهزة المطلوبة في حالات الطواريء، وما كان أكثر تكرار تلك الحالات!

اكتشفنا وجود انسداد جديد في الشريان التاجي، واستمر العلاج وبدأ التحسن، ثم مال عبد الناصر يفتح الراديو الموجود على الكومودينو بجوار السرير، وقال أنه يرغب في سماع خبر في نشرة أخبار الخامسة مساءاً، لكنه لم يذكرلنا ما هذا الخبر ولم يعرفه أحد حتى الآن، وظل يصغى لنشرة الأخبار حتى انتهت، وطلبت منه ألا يتحرك وأن يستريح بعد أن أغلق الراديو، ورد قائلاً: «أنا خلاص ارتحت يا صاوى».

وفوجئت برأسه تميل إلى الجانب فجأة، وفي الحال تحسست النبض ففوجئت أنه توقف، فعملت تنفس صناعى وتدليك خارجى للقلب بمعاونة الدكتور الرملى والدكتور فايز، واستمرت هذه المحاولات حوالى ثلث الساعة دون جدوى.

لمعت عينا الدكتور الصاوى بحزن شديد وكأن الأحداث كانت بالأمس، وقال:

- مات عبد الناصر، بالصدمة القلبية وهي من أخطر مضاعفات الشريان التاجي المصاب أصلا بمرض السكر، بعدها مضيت إلى آخر الحجرة وبداخلي

شعور بالحزن والمرارة لاحدود لهما، ووجدتنى أقول لمن يقابلني «خلاص مفيش فايدة».

صمت الدكتور قليلاً، وخيم الهدوء الثقيل على المكان ، ثم قال بمرارة وأسى :

- هذا كل ما حدث في ذلك اليوم العصيب.

*****

وأكمل الدكتور الصاوى كلماته:

- الحقيقة أن شائعات موت الرئيس بالسم الأمريكى أو السحر الأسود لحاخامات إسرائيل أو التدليك بدهانات سامة أو تأثير المياه الطبيعية في المدينة الطبية الروسية «تسخالطوبو» التي قالت الشائعات أنها كانت مسمومة، مع أن جميع الوفد المرافق للرئيس آنذاك نزلوها وسبحوا فيها معه. كلها اكاذيب.

والحقيقة التي جعلت من موت عبد الناصر كتاباً مفتوحاً لايقبل الشك، هو أنه ورث مرض الشريان التاجى والسكر عن طريق أمه التي ماتت دون الثلاثين عاماً وهى تلد شقيقه شوقى، وأيضاً مات شقيقها في عمر عبد الناصر وهو ٢٥ عاماً، ومات ابن شقيقها بنفس المرض في الأربعين من عمره.

هذا من ناحية أسرة الأم، أما الأشقاء فقد مات أخوه عز العرب، وأخوه الليثي في نفس عمره وبنفس المرض الموروث الشريان التاجي والسكر، فهل بعد هذه الأدلة الدامغة شكوك في حقيقة موته؟! وإذا حدث وصدقنا جدلاً أنه مات مسموماً فمعنى ذلك هزيمة جديدة لأن الأعداء استطاعوا اختراق الدوائر الأمنية الشديدة حوله وهزيمة للأطباء المعالجين له لأنهم لم يكتشفوا ذلك، وهو أمر ميسور وسهل.

*****

كان صباح موت الرئيس مؤلماً وقاسياً، طبع في ذاكرة حسين تلميذ المدرسة الابتدائية مشاهداً لا يمحوها الموت نفسه. اشتعل صراخ النسوة وأسكر الحزن قلوب الرجال وعقولهم وشعروا بحالة يُتم قاهر. مات من حسبوه لن يمت، وتكاثرت أسئلة بلا أجوبة، ماذا سنفعل بعده؟ أين سنذهب؟ ما قيمة أن نبقى أصلاً في الحياة بدونه؟ كان نسمة الهواء ولقمة العيش وجرعة الماء للكبار والصغار. أصبحوا وأولادهم بعده يتامى بلا عائل أو راع، بلا رجل يذكرهم بالكرامة والعزة والكبرياء.

كان حديث إمام المسجد سخيفاً عندما قال: إن الموت كأس وكل الناس شاربه.

ورغم أن دموعه كانت تسبق كلماته! ذكّرهم بأن الرسول الكريم نفسه، مات والأنبياء من قبله.

لكن الإمام واجه موقفا غريباً، ربما هو الأول في حياته حين زعق فيه البعض أن يكف عن الكلام، بطريقة تحمله هو سبب موت الرئيس! ففزع الرجل فزعاً فكك أوصاله، وما كان منه إلا أن انخرط في البكاء مثل جموع الباكين.

بسرعة البرق- ولا يدرى أحد حتى الآن من كان صاحب الفكرة، قالوا فيما بعد أنها فكرة القدر، فقد حدث ذلك في كل البلاد ، في جميع القرى والنجوع ، في وقت واحد، أحضر الشباب نعش القرية علقوا عليه صور الرئيس الراحل، واحدة يشير بيده للجماهير ضاحكاً وأخرى يبتسم وثالثة يصلي ورابعة والشعر الأبيض يغزو جنبات رأسة، وصورة خامسة وهو ينظر إلى أعلى وكأنه ينظر على السماء، جعلوا يطوفون به شوارع القرية وهم ينحبون ويهتفون بحناجر مرهقة:

- بالروح والدم نفديك يا جمال، إلى جنة الخلد يا جمال.

يذهبون به إلى المقابر، يدورون حولها، ثم يعودون إلى شوارع القرية مرة أخرى.

*****

تعطلت المدارس ونسي الفلاحون الذهاب إلى الحقول، أخرجوا البهائم في أجران القرى يضعون لها العلف وسريعاً يعودون إلى تجمعاتهم الباكية وكانهم يحتمون ببعضهم البعض.

وكأن خروجهم من القرية إلى الحقول سيعرضهم لما هو أشد من الموت، كانت تأخذ البعض سورة الحزن فيضرب رأسه في حوائط البيوت - فكانت جميعها من الطوب اللبن (النيى) كما يسميه الناس- ربما يهدأ غليان القهر بأدمغتهم.

كان اليوم طويل جداً وكأنه مئات الأعوام وليس مجرد ليل ونهار، وكان الحزن كثيف وثقيل، وكأن الدنيا قد جمعت أحزانها في حزن واحد هو موت جمال.

*****

في يوم الجنازة الرسمي الذي أعلنه الراديو أنه بعد ثلاثة أيام، من موت الرئيس، تجددت قسوة الفقد وضراوة الأحزان، وبرر الناس الأيام الثلاثة بأن الرئيس هو زعيم العالم كله، ولابد لهم المجيء إلى جمال وما يقول عنه الفقهاء من ضرورة الإسراع بدفن الميت، لا ينطبق على جمال، لأنه جمال!

شهد يوم الجنازة الرسمي، إلى جوار نعوش الشوارع هتاف الشباب بالروح بالدم، تجمعات الأهالي رجال ونساء حول أجهزة الراديو التي عرفتها عدة بيوت في القرية   ليسمعوا تفاصيل تشييع جنازة الرئيس، وما بين صوت الراديو الذي يرفعه صاحبه إلى أعلى درجاته، وأصوات الباكين بصوت مكتوم حتى يتمكن الجميع من السماع، كان البعض ينفلت زمام حزنه فيقفز كالمجنون صارخاً:

- مستحيل، مستحيل، جمال لا يموت!

*****

٩

أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو تائه

في بيت جد حسين، وبعد الانصراف من سرادق العزاء علق أحدهم مشيراً إلى الشعيرات البيضاء التي بدأت تغزو رأس حسين وشاربه، وتبدل ملامح وجهه بعد نداوة وطراوة كانتا تميزه .

تنهد بعضهم تنهدة ذات معني قائلاً:

- حال الدنيا، سبحان من يغير ولا يتغير.

امتد السهر حتى مطلع الفجر مع الشاي والجنزبيل، ومناقب جده وسيرته الطيبة وكرمه الفياض.

سألوه عن عمله وأسرته وأحواله، وقد دهشوا دهشة بالغة لصراحته التي لا تبالي عواقب عندما أخبرهم بأنه تزوج عدة مرات زيجات عرفية وأخرى سرية لم تدم طويلا

تلك الصراحة المجنونة التي اكتسبها من الشيخ «أصيل»، كانت مثار دهشة تطيب لها نفسه رغم أنها تجلب له المتاعب في أمور كثيرة.

كان الشيخ أصيل يتمتع بصراحته الفاضحة، دون مبالاة لأحد أو إقامة وزن لأي رد فعل مهما كان فذلك -كما يرى- الإيمان الكامل بالقدر والتسليم له.

وكان حسين منذ طفولته عندما تروق له خصلة أو خلة أو عادة أو طريقة كلام أو حتى طريقة تناول الطعام لأحد الشيوخ يقلدها حتى تلازمه وكأنها عادته هو، ولا يدري كيف استدرجته تلك العادات التي كان سببها الوحيد ملازمته لهؤلاء الشيوخ في بيت جده منذ كان طفلا صغيراً يسمع

كلماتهم ويرى أحوالهم، حتى أنه اتهم نفسه فيما بعد بضعف الشخصية وعدم التمييز.

تلك العادة ـ الصراحة المجنونة ـ يحاول الآن جاهداً التخلص منها، وجعل يعزف عن تقليد الآخرين، مهما كان شأنهم وشأوهم، فقد كانت هذه العادة وراء ملازمته لتدخين الشيشة.

استنكر بعضهم- ولكن بطريقة لطيفة- أن يكون هذا هو حال حفيد الشيخ الكبير، والذي كانوا يتنبأون له بمستقبل رائع، حيث كان النور يشع من وجهه وينبؤ عن قدوم شيخ كبير يرث الحب الكبير، وتجميع الأحباب في بيت جده الشيخ الكبير.

أجابهم بأنه يعمل في مدرسة ثانوية بالقاهرة معلماً لمادة الفلسفة.

لم يعلق أحدهم على طبيعة عمله ولكن تهللت وجوههم عندما علموا بأنه يقيم بجوار مسجد الحسين- رغم علمهم بذلك- وتعالت الصيحات مدد يا مولانا، مدد يا سيد الشهداء، مدد يا جد الحسين، مدد يارب .

وأخذت الشيخ السماواتي التائه،- كما يسميه الدراويش- رعدة شديدة زلزلت جسمه الدقيق ثم انخرط في بكاء شديد. وتلك هي عادته كلما ذكر اسم الإمام الحسين أمامه، وبعدها يطلب السماح والعفو مؤكداً في نهاية كلماته أن الخادم لا يجلس علي كرسي.

الطريف أن السماواتي التائه حرم على نفسه الجلوس على الكراسي طوال حياته! ولذلك قصة طريفة يعرفها الجميع.

جاء الشيخ السماواتي منذ عدة أسابيع من بلدته الصغيرة بساحل سليم في أقصى الصعيد بأسيوط ليزورإخوانه كما تعود، أو كما هي عاده الدراويش، حيث لا يقف المكان البعيد حائلاً أمام الحب والشوق، هذا بخلاف اللقاء المعتاد في الموالد سواء في المرسي أبو العباس بالإسكندرية، أو السيد البدوي ساكن طنطا، وأهل البيت بمصر المحروسة، والفرغل بالصعيد،

أو شيخ الطريقة الأكبر أبو الحسن الشاذلي بالقرب من القصير بالبحر الأحمر حيث مات هناك وهو في طريقه إلى الحج وزيارة قبر الرسول الكريم فدفن في قلب الصحراء حيث مات، واكتشف الجميع أن قبره يقع قبالة الكعبة الشريفة تماماً وبدفنه هناك عمرت الصحراء ودبت إليها الأرجل وأفئدة المحبين، حتى أصبحت أماكن رحمة لا وحشة، مليئة بالحياة والحركة .

ومما يذكره الإخوان أن الحاج عبد اللطيف، كان يقصد الشاذلي بالزيارة فكسرت ساقه إثر حادث للسيارة التي كانت تقلهم، والعجيب أن الرجل فرح بذلك أيما فرح! رغم الألم الشديد والعجز الواضح في ساقه، حتى أنه أسماها «ساق الشاذلي»، ولا عجب لمن يعرف عجائب الدراويش أهل الطريق .

أما حكاية «التائه التي لقب بها السماواتي، فقد حدثت في أحد موالد الحسين، حيث أزدحم شارع المشهد الحسيني بمحبى الحسين في يوم مولده، وكعادته كل عام كان الشيخ السماواتي يشغل المساحة الصغيرة أمام فندق الحسينية «بخدمته» البسيطة يقدم لزوار الحسين رواد المولد الخبز الصعيدي والمش والفول المدمس والعسل الأسمر، ثم أكواب الشاي والقرفة والمعسل؛ وكل ذلك حباً في الله.

كان السماواتي يتخذ مجلسه أمام «نصبة الشاي»، جالساً فوق كرسي خشبي وأمامه الموقد يعلوه إناء الشاي الكبير، وعدد غير قليل من الأكواب الزجاجية الملونة .

لا ينسى السماواتي أن يقول لكل من يناوله كوباً من الشاى «صل علي النبي»

مع ازدحام شارع المشهد الحسيني الضيق، ودعوة الشيخ السماواتي الملحة لكل من يعبر أمامه أن يجبر خاطره ويجلس ليأكل أو يشرب. كان البعض يجلس القرفصاء فوق الرصيف الفاصل بين ساحة الفندق ونهر الشارع.

ابتسم أحد دراويش المولد وهو ينظر نحو السماواتي وكأنه يبتسم لنفسه بعد أن شرب الشاي وهو يناوله الكوب الفارغ، وقال كأنما يحدث نفسه :

- «الشاي سكره زيادة، وذلك عيب مميت» ثم ابتلعه الزحام.

ارتسمت الحيرة علي وجه السماواتي وأخذته أسئلة الدهشة:

- ترى ماذا يقصد الدرويش؟! ترى ماذا فعلت ولا يليق بمقام الأدب؟! وما ذلك العيب المميت؟! استر يارب.

لم ينتزع السماواتي من حيرته سوي الاضطراب المفاجيء لإناء الشاي الكبير وانسكابه علي الأرض إثر اشتباكه بجلباب أحد زوار المولد المتزاحمين. فسادت حالة من الهرج، وقفز البعض ممن طالهم الشاي الساخن، وتعالت الأصوات بالسباب لصاحب الجلباب ووصفوه بالعمى والجهل وقله البصيرة، وعلق أحد شباب المدينة قائلاً:

- فلاح ..

وفزع المتحلقون حول أطباق المش والعسل لتسرب الشاي تحت الحصير.

لم يفعل السماواتي شيئاً غير أنه أبتسم ابتسامة أنارت تضاريس وجهه النحيل، وتهلل بالرضا والسرور وكأنما وجد جوابًا لحيرته التي خلفها الدرويش. ونهض واقفا ثم انتزع الكرسي من تحته وطوح به بعيداً وانحنى برأسه نحو مسجد الحسين معتذراً:

- السماح يا أهل السماح، حقا الخادم لا يجلس علي كرسي، صدق الدرويش... ثم انخرط في البكاء.

بعدها افترش جوالا من الخيش القديم وجلس أمام الموقد والدموع لا تفارق عيناه الصغيرتان اللامعتان وهو يردد:

- حقاً الخادم لا يجلس على كرسي، السماح يا أهل السماح.

همس الشيخ السماواتي الي أحد محبيه قائلًا:

- «أقرب ما يكون العبد ،إلى ربه ، وهو تائه.»

انتفض الرجل وهب واقفاً محدثاً أنيناً مكتوماً، ثم أنحني على يد السماواتي وقبلها بشوق جارف، وهتف بصوت اهتز له كل شي قائلا :

- «اللهم زدني فيك تحيراً» ثم أختفي وسط الزحام. وبعدها أطلق عليه الإخوان لقب «التائه».

*****

قال الشيخ عبد المعطي:

- أنت يا أستاذ تعيش في روضة من رياض الجنة، إلى جوار سيد شباب أهل الجنة، هنيئا لك.

وعلق الشيخ سعداوي:

- أصل طيب، ولابد أن يختار له الله المكان الطيب ليعيش بجواره.

وافقه جميع الحضور وأمنوا علي كلامه.

وتدارك بيومي القفا- ولقب بذلك لأن قفاه كان عريضاً بصورة تلفت إليه النظر- قائلاً:

- الآن عرفت يا أستاذ سبب كثرة مرات زواجك، أنت تقلد عمنا الحاج عبد اللطيف.، أليس كذلك؟!

ضحك الجميع وقالوا :

- فعلاً الأستاذ يقلد عمنا الحاج عبد اللطيف.

ثم علا صوت شحاته الأعور قائلاً وهو يضحك:

- مدد يا أزواج الشيخ عبد اللطيف مدد.

ثم مقلداً التهليل والتكبير في العديدين:

- اللهم صل علي أزواج الشيخ عبد اللطيف، وعلي عيال أزواج الشيخ عبد اللطيف.

لكزه أحدهم قائلاً:

- اخفض صوتك، سيغضب الحاج إذا سمع كلامك السخيف .

فزعق الشيخ أبو الشعور:

- الله في أزواج الشيخ عبد اللطيف.

وكان يسمي بهذا الاسم «أبو الشعور»، لأنه لم يقص شعر رأسه منذ سنوات، وجعله يتدلي علي كتفيه دون عناية.، يعبث به الهواء كما يحلو له.

*****

والحاج عبد اللطيف هو شيخ الطريقة الكبير الذي لا ينافس، حتى جاء الشيخ أصيل ففرق المحبين، وكان الشيخ عبد اللطيف رجلاً أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولكن كلماته تغزو القلوب غزواً جميلاً فتحتل الروح ولا تملك في مجلسه إلا الصمت سامعاً مطيعاً، فقد كان سمو الروح هو زهور المجلس ووروده التي يرعاها ويعمل علي ازدهارها.

أما الشيخ أصيل، فكان رجل فلسفة وعقل يبحث عن الإقناع، يذكرك بالفلاسفة القدماء، يبحث عن الحقيقة مهما كلفه ذلك من جهد أو تجاوز في الكلمات والعبارات.

ترك الحاج عبد اللطيف القرية، قاصداً جوار الحسين بعد رؤية رآها في منام. وهناك صادف رجلاً ثرياً وبدأت الحكاية، تزوج الحاج زيجات كثيرة لأسباب عديدة، وكان لا يعبأ بالأشكال الرسمية للزواج، فقط موافقة الأطراف صاحبة الشأن وكفى.

كانت جلسات الشيخ» أًصيل» تختلف كثيراً عن جلسات الحاج عبد اللطيف، فقد كان أصيل يهتم بالعقل، ويعطي الجالسين في حضرته مساحات للحرية والحوار والاختلاف والأدب وقلة الأدب أيضا، وكان يؤمن بأن العقل إذا لم يؤمن أولاً فلن يؤمن القلب، بل ستساوره الشكوك، وربما الأفكار الغبية، ويردد:

- قلوب يعقلون بها، هكذا قال الحق.

بينما كان الحاج عبد اللطيف يربي القلب ويصعد بالروح إلى معارج

علية، ولا يحتاج إلى الجالس في حضرته إلى تبادل الحديث معه، فقط عليك التلقي، إلا إذا اعتمل بداخلك سؤال ما، وكان ذلك نادرا ما يحدث.

ومن تلك الأسئلة ما طرحه أحدهم على الشيخين:

- قال للحاج عبده: يا شيخنا ندعو الله كثيرا ولا يستجيب لدعائنا لماذا؟!

- قال الحاج عبده: حتى يستجيب الله الدعاء، يجب أن يخرج الدعاء من فم طاهر، لا يأكل الحرام، ولا يتكلم في حرام، ولا يتلذذ بغير الحلال والجلال والجمال.، فنظفوا قلوبكم، تنظف أفواهكم، يستجيب لكم ربكم.

- وقال الشيخ أصيل: الله لا يستجيب لدعاء الحمقى وإلا لضاع الكون وانتهت الحياة منذ ملايين السنين، منذ أن اختلف ولدي آدم، ألا ترى أن من يسمونهم رجال الدين في كل الأديان حتى التي اخترعها الإنسان، كالأصنام وغيرها، يستعدون ويؤلبون معبودهم على أعدائهم الذين هم أعداءه ويطلبون منه أن ينكل بهم ويسحقهم ويمزقهم ويشردهم ويرمل نسائهم وييتم أولادهم، ويثكل أمهاتهم ولا تقوم لهم قائمة، ثم ينعم عليهم وحدهم بالنعيم والبشرى والخير الوفير؟

ألا ترى أن الخالق وصفهم في كتابه الكريم بذلك، فقال في غير موضع «أكثرهم فاسقون» و«قليل من عبادى الشكور» و«أكثرهم لا يعقلون»، فهل يستجيب الله لهؤلاء الحمقى؟

أما من يستجيب الله لهم، ولو أقسموا عليه لأبرهم، لا يطلبون ما يطلبه الحمقى، بل يلزمون الأدب ولا يطلبون شيئا من الدنيا مهما شظف عيشهم أو ظلمهم ظالم أو بطش بهم باطش حتى أنهم لا يطلبون من الله الشفاء من الأمراض، بل يستعذبون عذابها حباً في خالق كل شيء.

ثم صمت الشيخ أصيل قليلاً وقال:

- هذا ما أراه، فماذا ترى أنت؟

وقد يعقب الشيخ فؤاد علي كلام الشيخ أصيل موضحا، مفصلاً، لكنه لا

يختلف معه أبدا، فقد كان يحبه حبا شديدا ووجد فيه ضالته، ويفخر به في جميع المجالس ويروى عنه حكاياته وحركاته وثكناته واشاراته وخفي كلماته.

وكان يعجبه في الشيخ أصيل جرأته وفلسفته ودفاعه المستميت عن البشر، وقد حدا به هذا الحب لترك الحاج عبده وقاطع جلساته وحلق الذكر، بل جعل يعمل على تهجيره من القرية، وبالفعل شق صفوف الدراويش.

قال أصيل ذات ليلة:

- «إن أقبح الأعمال، أن تطلب الدنيا بعمل الآخرة».

ففهم الشيخ فؤاد أنه يقصد الحاج عبده، وقرر مقاطعته رغم حبه الشديد له والاعتراف بفضله في تربية الدراويش والوهب الإلهي الذي وهبه له الخالق.

ولكن أصيل شي أخر، مختلف جدا، رائع جدا- هكذا حدث فؤاد نفسه- فهو يمتلك ناصية الكلام، وناصية الفعل، ونصاعة الدليل، والعَالم عند الله أفضل من العابد، بل قال الرسول الكريم «فضل العالم علي العابد كفضلي علي أدناكم «.

بعد ذلك صارت دار الشيخ فؤاد هي مقر الشيخ أصيل في زيارته للقرية، بل اصبح لا يرى في الدراويش إلا فؤاد، ولعجيب الأمور فقد كان فؤاد يشبهه في صورته، لولا أن أصيل كان أطول وأعرض وذو قوة، وكأنه مصارع قديم.

*****

كعادة حسين في كثير من الأحيان، لم يعلق بالإيجاب أو السلب واكتفى بالابتسام، دون كلام، تلك العادة السيئة التي تجلب وجع القلب والدماغ، وربما تصديق الإتهام.

إعتصرت المرارة نفس حسين ،وهمس يحدثها:

- آه لو يعلمون حجم ما تعاني، وأسباب زيجاتك الكثيرة العجيبة الفاشلة؟! وأنك تعيش في فندق بسيط فقير!.. صحيح أنك في مواجهة أحد أبواب المسجد الحسيني مباشرة، إلا أن رواده ونزلاءه أنواعا متباينة، وربما عجيبة من البشر، وأفعالهم التي لو قصصت عليهم بعضها لرموهم بالفسق والفجور وربما بالكفر، ودهشوا كيف يحدث ذلك بجوار مرقد سيد الشهداء؟!

ماذا سيقولون عن عم عبده، كاتب الفندق، ذلك المسن الذي يفعل الأعاجيب في سبيل الحصول علي المال بأية وسيلة مهما كانت شيطانية، وماذا سيقولون عن زوجته، وماذا سيقولون عن سكان الباب الأخضر بجوار مقام الأمام الحسين، والخليط العجيب من البشر الزاهدين والزاهدات في الحياة، والهاربين والهاربات من بلادهم بعدما فعلوا وفعلن المصائب، ثم كان المستقر والملاذ هو الباب الأخضر بجوار الأمام.

ماذا سيقولون عن باعة المخدرات، وفتيات البغاء، وبائعات البخور اللاتي تتزين الواحدة منهن بنصف كيلو جرام من الذهب وتمتلك العقارات رغم أن تجارة البخور تأتي بثمن العيش والطعمية بالكاد.

ماذا، وماذا، وماذا، ما يحدث بجوار الأمام يصعب وصفه وقوله... ماذا أقول؟! وماذا سيقولون؟! غريبة هي الدنيا، وعظيم هو جهل الإنسان بالغيب، فلو علم الإنسان غيب أخيه الإنسان ما عمرت الدنيا، وما استمرت الحياة ،.سبحان مالك الغيب، سبحان حاجب الغيب .

ابتسم حسين رغم حزنه وهو يتخيل رد فعل الشيخ أصيل وتعليقه علي تلك الأفعال وهؤلاء البشر قائلا:

- «أنها إرادة الله في عباده ، فلا يحدث في ملك الله ما لا يرضي الله، وذلك مقام الربوبية الأعلى ولكن أكثر الناس لا يفقهون.

ثم شرح الشيخ فؤاد على كلمات الشيخ أصيل قائلاً:

- لا تصدقوا يا إخوان أن الله سبحانه وتعالي يغضب، يغضب من ماذا؟! من شي هو قادر على تغييره وتبديله بل هدمه ونسفه، في حرفين اثنين هما «الكاف والنون». أليس كذلك؟! أم هل بينكم من يعترض؟! من يعترض يقل لنا ماذا يعني القضاء والقدر؟ ويشرح لنا معني قول الله «والله خلقكم وما تعملون».

وكلام كثير جداً سيقوله الشيخ فؤاد ليؤكد فكرة أن البشر أبرياء من أفعالهم، وما هم سوى أدوات للفعل الإلهي، ويقول:

- العجيب أننا ننسب القتل للسيارة، مع أن السيارة لا تعي ولا تعرف، والقاتل الحقيقي هو السائق وما السيارة إلا أداة الفعل، ثم يهتف في الجميع: اسالوا السائق يا ناس، فهو المسئول الحقيقي ولا تنسبوا الفعل لغير فاعله وتلبسوا الحق بالباطل!

ورغم عدم قناعة الكثيرين بجبرية الإنسان فيما يفعل، بل خوفهم من مثل هذا الكلام الذى تضيق عنه أفهامهم، إلا أنهم لا يغضبون!

*****

١٠

طرف من خبر عم عبده

كان الرجل المسن عم عبده، كاتب الفندق الشعبى الذي كان حسين أحد نزلائه الدائمين بجوار المسجد الحسيني، ذو حركات عجيبة وآفانين وفنون شيطانية الغرض منها جمع النقود بكل صورة وبأية وسيلة، وكان ذلك يبدو مدهشاً لمن يعرف الرجل عن قرب، وليس معرفة اليوم أو الأثنين، كما هي عادة نزلاء الفنادق.

فلماذا يجمع هذه النقود؟! وأين يذهب بها..؟! وما حاجته لها؟ وبهذا النهم البهلواني في جمعها؟! فهو قفز فوق السبعين من عمره بعدة سنوات!! وفقد كل شهواته بطبيعة الحال، ولا يعيش معه سوي زوجته التي تلازمه طوال اليوم جالسة علي كنبة في مدخل الفندق؟

ظل هذا اللغز سراً حتي اليوم والي الأبد لا يعلمه بشر، وكان الأمل أن يعرف الذين أدهشتهم ألاعيب عم عبده لجمع المال السر في ذلك بعد موته، إلا أنه ذهب بسره ولم يجد أحد أية نقود في خزائنه. وأجمع كل من يخبرونه جيداً أن كل ما جمعه من أموال، ستكون كنزاً ثميناً في يوم ما لصاحب النصيب، والذي لا يمكن التكهن به الآن أو ربما لم يولد بعد.

كان عم عبده من الدهاء بمكان، حيث لا يطلب مباشرة من أي نزيل جديد، لكنه يخترع سبباً لإجبار من يسمعونه المسارعة للعطاء، تارة لمساعدة سيدة مسكينة طردها أولادها الي الشارع بعد موت زوجها، وتارة لمساعدة أحد أقاربه الذي سيلفظ أنفاسه بالمستشفي إذا لم يدخل غرفة العمليات ولا يملك ثمناً لهذا الدخول، أو أن أحد النزلاء سرقه اللصوص بعد زيارة مولانا

الإمام الحسين وكل ما يريد ثمناً لتذكرة قطار العودة الي بلاده، وأن هذا النزيل من الحياء بمكان بحيث يفضل الموت علي الإعلان عن نفسه ومد يده، وإنه- اي عم عبده- تبرع لمساعدة الرجل، والله سبحانه وتعالي يقول: من فرج عن عبد كربة من كرب الدنيا فرج عنه كرب يوم القيامة.

وكان من عادة عم عبده، رغم مراجعة الكثيرين له، يفسر الآيات القرآنية والاحاديث النبوية والأقوال المأثورة علي هواه وحسب الموقف. أكثر من ذلك كان يذكر الأحاديث علي أنها آيات قرآنية، والآيات علي أنها أحاديث وهكذا!

واذا راجعه أحد وأكد له أن ذلك حرام ويجب عليه التأكد قبل أن يتكلم، تري عم عبده يضحك قائلاً:

- وهل هناك فرق بين الله، ورسوله..؟!

- نعم يا عم عبده، هذا كلام الله، وذاك كلام الرسول الكريم الذي هو بشر يوحي اليه.

- أنت الذي قلت، «يوحي اليه»، يعني أن الله هو الذي يقول له، يا أستاذ نحن نقول: الله ورسوله، يعني ليس هناك فرق.

- غلط يا عم عبده غلط.

- غلط، غلط، يعني كفرت؟!

المهم أن عم عبده لا يحب مراجعة أفكاره مهما كانت القضية التي بصددها كبيرة أم تافهة، فيضطرمحدثه الإنصراف أمام كبر سنه وإراحة نفسه من جدل عقيم لا ينتهي.

والحقيقة أن عم عبده كان متنوع النشاط، دؤوب الحركة رغم كبر سن، وكان من هذه النشاطات أنشطة مخزية إلا أنه كان يجد لكل شيء مبرر ولا يقتنع بغيره.

والحق يقال كان شديد الذكاء، بل موهبة بارعة في قراءة وجوه النزلاء

ومعرفة معادنهم، وكأنه دارس حصيف لعلوم النفس البشرية، ويستغل ذلك في استخراج النقود منهم بكل رضا وسعادة.

فإذا رأى الرجل والتي معه، مازالا في مقتبل العمر، وقد مر على زواجهما عدة سنوات، يدعو لهما «بالعوض» أي أن يرزقهما الله بطفل جميل، بل ويتطوع بإرشادهم لأفضل الأطباء سمعة، وأحياناً يهمس بأنه يعرف رجل طيب ومجرد حجاب منه سيتحقق المراد، ويغمز بطرف عينه للزوج، في إشاره لتحقيق قوة جنسية له إذا أراد.

وكان إذا رأي الوجه يعاني مرضاً، يدعو له بالشفاء، وأنه يعرف أحسن الأطباء، وأيضاً معرفته بالشيخ الذي يعرف كل شيء، وما عليهم إلا التجربة. وكان يعرف بمكر ودهاء من في النزلاء، يمكنه قبول ما يعرضه عليه.

نشاط آخر كان يمارسه ببعض الحرص، وهو تردد بعض البغايا عليه بحجة دخول دورة المياه، فيغمز لهن بإحدى عينيه، وذلك يعني أن هناك زبوناً ينتظر، ثم يهمس لها برقم الغرفة واسم النزيل.

واخترع عم عبده شيئاً جديداً يعرضه على من يراه سيرحب بذلك من نزلاء الفندق أسماه «الراحة» . فكان يسألهم مبيت أم راحة؟! وكان يقصد بالراحة الإقامة لعدة ساعات. وهذه لمن جاء ومعه أنثى أو أتت به أنثى، وكان يداري باختراعه «الراحة»، ما يفعله مع طلاب الهوى والعشق غير الشرعي، دون التسجيل في دفاتر الفندق مقابل مبالغ مالية، كل حسب قدره وقدرها.

وإذا صادف وحذره أحد من تلك التصرفات ينكر بشدة ويقسم بأغلظ الأيمان أنها زوجته أو أخته وأنه رأى قسيمة الزواج أو البطاقات التي تؤكد ذلك، ثم يشير إلي بياض شعر رأسه، مؤكداً أن ذلك عيب كبير علي هذه الشيّبة، وهو يخطو نحو القبر ويستعد لمغادرة الحياة!! وكل ما هنالك أن هؤلاء، جاءوا من بلاد بعيدة ولا يرغبون في المبيت، فقط أخذ قسط من

الراحة لظروف العمل الذي جاءوا إلي القاهرة من أجله. أين يذهبون إذن؟ يجلسون في الشوارع كالشحاذين؟! ثم يشيح بيده في وجه من يحدثه غاضباً بل ومحذراً وهو يقول:

- «أن تصيبوا قوماً بجهالة»!

الطريف في عم عبده أنه كان خفيف الظل ظريف، ويستغل ذلك في طلب المزيد من الأموال لنزلاء ونزيلات الراحة دون النظر لما اعطا، ومعرفة عدده,,, وإذا قال له النزيل بأنه أعطاه الكثير، يقول عم عبده ضاحكاً حتي تبدو بقايا أسنانه المتآكلة وقد لمعت عيناه وبرقت بنظرات جائعة:

- «معاك أحلي نتاية في بر مصر، هات يا رجل هات، ياريت عندي صحة وأنا كنت أدفع باقي عمري».

كان عم عبده كعادته يبرر كل شيء ويقنع نفسه به، ويتمتم:

- «الناس غلابة، ولن تخرب الدنيا إذا أخذوا قسطاً من الراحة، وأن من يضطر إلي ذلك بالتأكيد عنده ظروف سيئة، والرسول الكريم ،يقول: من ستر الناس ستره الله في الدنيا والآخرة، ربنا يحسن ختامنا ويسترنا».

وظل الحال هكذا حتي افتضح أمره ذات يوم عقيم- على حد وصفه- فقد كان يصف اليوم الذي لا يحصل فيه علي ما يتمني من نقود: «أعوذ بالله، يوم عقيم»، ويصف من يبخل فى عطائه بأنه رجل «زاقولى» وناس «زواقيل». وعندما سأله حسين عن معنى الكلمة ضحك كثيراً حتى دمعت عيناه ثم إنتشى غروراً وقال:

- ألا تعرف معنى زواقيل يارجل يامتعلم؟!

- الحق أنها كلمة غريبة ياعم عبده!

- الغريب هو الشيطان ياستاذ، سمعت هذه الكلمة منذ أربعين عاماً من أحد شيوخ مسجد مولانا الإمام الحسين فى درس الجمعة وأعجبتنى الكلمة جداً.

- مامعنى الكلمة ياعم عبده لا تكن مراوغاً كعادتك؟

- أنا لا أراوغ ولكن لكل علم ثمنه.

- حتى هذه ياعم عبده، وأين زكاة العلم ؟

- غلبتنى ياحسين، ياسمى مولانا حبيبى، الزواقيل تعنى اللصوص ياأستاذ، وكان الشيخ يصف رجلاً من أهل الزمن الأول يسرق أحاديث الرسول الكريم، يعنى يكذب عليه ووصفوه أنه زاقولى من الزواقيل يعنى لص من اللصوص ، لايمكن تصديق كلامه أو تؤخذ عنه رواية أحاديت سيدنا النبى.

- افادك الله ياعم عبده.

- لا بل قل افادك الله ياعم الشيخ عبده .

ذات يوم لفظ رجل كبير السن أنفاسه على صدر أحدى فتيات عم عبده اعتادت اصطياد الرجال وقضاء وقت «الراحة» معهم في غرف الفندق. وكان الحادث مباغت للفتاة فلم تستطع التحكم في تصرفاتها، فصرخت بقوة شديدة وهرولت منصرفة خارج الفندق.

إلا أن التحقيقات أجبرت عم عبده الإرشاد عنها، لكنه أنكر بشدة معرفته بما كان يحدث وأكد أنها كانت تستأذن في دخول دورة المياه، وربما رأت الرجل وهو يسقط على الأرض ففعلت ما فعلت.. وأقسم أغلظ الأيمان أن البنت بريئة ولا تعرف الرجل المتوفى.. وأرجع عري الرجل إلي أنه شيء عادي، وربما كان يستبدل ملابسه فمات وهو عاري الجسم، وأرجع شهادة الشهود إلي الحقد الخاص ضد الفتاة لأنها لا تعطي لطامع فيها الفرصة لملاطفة جمالها، وقال:

- هي صحيح سليطة اللسان، وسافلة الألفاظ لأنهم ذئاب، لكنها مؤدبة وعفيفة جداً.

وعندما واجهه المحقق بتقرير الطبيب الشرعي، انحدرت من عينه دمعه وقال في حزن بالغ:

- تكذبون الشعر الأبيض، واللسان الذي ينتظر الموت، ومقابلة رب كريم، وتصدقون كلاماً في الأوراق، الله أعلم بصحتها؟!

ولما قيل له، إن البنت أعترفت بالجريمة، قال بحزم شديد:

- أنا بريء، والبنت الملعونة خدعتني بحكاية دورة المياه.

كانت زوجة عم عبده والتي لا تفارق الكنبة في مدخل الفندق معظم الوقت، ينبيء هيكلها بأنها كانت ذات صحة وجمال وتاريخ طويل في أشياء عديدة، لا تكف عن طلب السجائر من النزلاء ثم تدخنها علي طريقة الغواني وهي تعلم جيداً ما يفعله زوجها، ولكنها كانت لا تعترض بشكل جدي حتى لا يحرمها من الإنفاق عليها، فتقول وكأنها تبريء ذمتها:

- يا رجل يا شايب حرام عليك!.. ماذا ستقول لله، في يوم الحساب؟!

- فيرد عم عبده ساخراً، وكأنه يذكرها بشيء ما: سأقول له أنكِ امرأة بنت كلب وسخة، اخرسي أحسن لك.

وكان يضيق بها كثيراً ويؤكد أن تحمله لرذالتها ربما يكون سبباً في دخوله الجنة. ورغم ذلك، كان لها، دور هو القيام بجلب الأعمال السحرية لمن يريد من النساء والرجال.

بعد عدة أيام من حبس عم عبده على ذمة التحقيقات، جاء خبر وفاته، وبطبيعة الحال جاء كاتب جديد للفندق بتوصية من أقاربه الذين يعرفون أصحاب الفندق، يدعي «قابيل»، شاب أسمر نحيل الجسد جاء من «الصعيد» منذ أكثر من عام يبحث عن عمل يستقر فيه بدلاً من بيع العصي الخشبية،والتحف المقلدة ، في ميدان الحسين..

*****

كان عم عبده يمارس العديد من الأنشطة الأخري، مثل بيع المصاحف والمسابح وكتب السحر ودواوين الشعر الصوفي، يضعهم فوق مدرج خشبي أمام باب الفندق، وإذا ابتاع أحد منه كتاباً ضحك ضحكة ذات معني قائلاً:

- يا أستاذ يبدو عليك أنك مثقف، لذلك ستقدر قيمة هذا الكتاب، فهو جوهرة ثمينة ولن تجده إلا هنا ، وإذا وجدته لن يكون بهذا السعر البسيط!

وتكون المفاجأة أنك تكتشف أن سعر الكتاب أقل بكثير مما دفعته له، فتعود إلي عم عبده غاضباً مما فعله فإذا به يقول:

- يا رجل عيب، انظر إلى طبعة الكتاب، هناك فرق كبير، وإذا أخبرته أنها هي هي ضحك قائلاً: يا سيدي اعتبر الزيادة صدقة عن صحتك، وأنا رجل كبير في عمر والدك، اعتبر الزيادة هدية لوالدك، وإذا لم يفلح في كل الآعيبه يقول لك: اترك الكتاب حتي أبيعه فالنقود التي معي سددت بها دين لبعض المكتبات.

وأما كتب السحر فكان لها حديث آخر، حيث يهمس في أذن المشتري:

- هذا الكتاب عظيم الفائدة تستطيع به فعل كل ما تحلم، يمكنك تحريك جبل المقطم من مكانه! وجلب أي شيء في أي وقت حتى ولو كانت ملكة جمال العالم، ولكنه مرتفع الثمن لكنك طبعاً تقدر قيمة الكتاب.

كان عم عبده أيضاً يبيع أشياء ملفوفة في قراطيس، عبارة عن أعشاب طبية يخلطها بطريقة عشوائية، لا يعرف كثيراً عن فوائدها على أنها آخر ما توصل إليه العلم للقوة الجنسية، ويظل يغمز بعينيه وحركات يديه للزبون حتي يشتري بالثمن الذي يحدده!

وكانت تلك تجارة رائجة بحكم طبيعة النزلاء، فمعظمهم من الطبقات الشعبية- وإن كان في استطاعة عم عبده أن يبيعها للأطباء أنفسهم-! وإذا صادف أن جاءه أحد يشكو عدم نفع «القرطاس»، يؤكد له أن عنده نوع آخر شديد المفعول لكنه مرتفع الثمن، ثم يعطي الرجل أي قرطاس يصادف يده في خزانة المكتب الذي يجلس خلفه.

أما إذا تكررت الشكوي، فإذا به يتهم المشتري بأنه لا فائدة منه هو، ولو جاء له بأعشاب الدنيا.

واذا حدث وطلب أحد المشترين رد ما دفعه من أموال، فإذا بعم عبده يرتفع صوته الهامس قاصداً كشف المستور أمام النزلاء، فيسكت صاحب الحق أو ينصرف خوفاً من سخرية الناس منه.

إلى جوار هذه الأنشطة، لم ينس عم عبده أنه بجوار «الباطنية»، وكر المخدرات الكبير خلف الجامع الأزهر.. فكان يمارس ذلك النشاط لكن بحذر شديد.

وقد حزن كثيراً لتدخل «الحكومة» وانتشارها في شوارع الباطنية ومحاصرة تجار المخدرات، وكان يتمتم:

- ما للحكومة والحشيش، أناس يريدون أن يعتدل مزاجهم، فهل الحكومة ضد المزاج، شيء غريب.!

مات عم عبده وفضحه إلى جوار ما حدث خزينة المكتب العامرة بصنوف الوصفات الطبية وبقايا قطع الحشيش المعدة للبيع، والذي يؤكد لمن يشتريه أنه هدية خاصة جداً لهذا الدماغ الذي يقدر الهدايا الثمينة.

وكانت الدهشة أنهم لم يجدوا أية نقود في خزينة المكتب، فتسألوا جميعاً:

- أين ذهبت نقود المرحوم؟!

الحقيقة أن أصحاب الفندق كانوا يعرفون طمع وجشع المرحوم، ولكنهم كانوا يكذبون الأحاديث التي لا تليق برجل كبير السن، وكانوا يرغبون في استبداله بكاتب شاب يستطيع الصعود والنزول وتلبية طلبات النزلاء، لكنهم أمام دموع عينيه وتمسكه بالمكان يتراجعون عن رغبتهم والتي كان وراءها الإشفاق عليه لكبر سنه.

تسلم قابيل، الشاب الصعيدي الأسمر، والذي توحي تضاريس وجهه منذ اللحظة الأولي بالطيبة والإنسانية، يؤكدها الحزن الساكن فى عينيه بشكل ملحوظ.

ورغم مضى الحياة بصورة هادئة، ظلت فضائح عم عبده لمدة طويلة هي القاسم المشترك للمسامرات بين النزلاء، وتتناقل السيرة لمن لا يعرفها ولا يعرف عم عبده في جلسات الشاي والقهوة والشيشة التي أدخلها قابيل إلى نشاطه بعد موافقة أصحاب الفندق، حيث تحول مدخل الفندق الفسيح بعض الشيء إلى مقهي صغير للنزلاء، يكفيهم مؤنة الذهاب إلى المقاهي المجاورة للمسجد الحسيني، وهي في معظمها مرتفعة الأسعار، أما الشعبية منها بعيدة عن الفندق.

*****

١١

قلوبنا بيوت الرحمن ومساجده

حائر صاحبنا حسين ما بين دراويش جده ومشايخهم، وأفكار صديقه وفلاسفته، وما تجبره عليه الحياة وما كان في حسبانه أن يفعله في قوادم أيامه، لكنه كان يبرر ذلك بقوله:

- « لواقع في بعض الأحيان أغرب وأعجب من الخيال بل والخيال الجامح».

حائر ما بين أفكار الدراويش الساذجة البسيطة القانعة الراضية الطامعة في رحمة الله وجنته، وبين شطحات المشايخ وأقوالهم الغريبة العجيبة وأفعالهم الأشد عجبا.

حائر في فلسفة صديقه «ياقوت» وخزائن كتبه المليئة بالآراء المتباينة، المقطبة الجبين المتشائمة التي تؤكد شقاء الإنسان ودورانه في دوائر لا قبل له بها ولا طاقة.

حائر بين ما يريد وما هو متاح وما هو مأمول، وما يمكن تحقيقه رغم بساطته، وهل ما يفعله خطأ أم صواب؟!... وهل حياته بهذا الشكل الذي لم يخطر بقلبه يوما ما، تسمي حياة أم ماذا؟!

حائر علي كل حال، رأسه يدور كمن به زوبعة شديدة أو رياح هوجاء تعبث بداخله فيشتد به الصراع.

- «شيء غريب حقاً»- هتف في نفسه-: كلٌّ يحلم بحسب عيشته وثقافته ومعرفته، وما يستطيع عقله الخوض في بحاره، ويرى أن حلمه هو الكون بكل ما فيه!... الدراويش البسطاء الجهلاء الفقراء الأميون المرضى،

الطامعون في التمتع بالحور العين، بدلا من تلك النساء التي تقرف الكلاب- علي حد قول جعيصة ابن شريفة الغزية- ، والذي زاد في وصفه قائلاً:

- الواحدة منهن تقوم من النوم شعرها منكوش والعماص في عينيها، منظر يجعل الشيطان يقول: أعوذ بالله من نسوان الفلاحين .

وبعد أن تهدأ نوبات الضحك، يقول: لطفي سعدية، كما يطلق عليه نسبة إلى زوجته- لأنها تتحكم فيه تحكم زوجة الأب القاسية في طفل زوجها:

- اسم الله عليك يا بيومي يا قفا، شلفك وحده كيلو جرام وجسمك عليه من الصدأ كأنه حديد مرمي على السكك من خمسين سنه، أما قفاك فحدث ولا حرج على رأي شيخ المسجد، أما الشق في رجليك يخبيء تعلب، فهل هذا بني آدم يدخل الجنة وينفع لحور العين؟

- فقال بيومي: وهل تكلمت يا بارد حتى تخرج الخرا من حنكك!

- وغضب شحاته الأعور قائلاً: الله يسامحك يا لطفي سعدية.

ضحك الجميع بشدة بعدما علموا أن ما فهمه شحاته الأعور وقاله لطفي وهو يغالب الضحك :

- حور يا شحاته وليس عور.

حاول شحاته أن يخفي جهله فقال ضاحكاً:

- والله يا إخوانى كل طمعي في الجنة- إن شاء الله- اللقمة الطرية واللحم الجميل، بدل العيش الجاف والمش والبصل وبلاليص الحادق.

*****

يحدث ذلك ومثله في الجلسات التي تعقب حلقات الذكر، حيث يتحلقون حول أكواب الشاي ودخان المعسل والضحكات العالية بعيداً عن مجلس الشيخ الذي يحرم عليهم الدخان ويوبخهم على ارتفاع أصواتهم وضحكاتهم، قائلاً:

- «المؤمن يجب أن يكون لطيفاً نظيفاً، لا مدخنة تنفث الخبائث، ولا يقهقه عالياً كصوت الحمير».

كان بعضهم يهمس لنفسه قائلاً:

- من حقه أن يقول ذلك وأكثر، فهو لا يمسك الفأس بل أن يديه ناعمة وحمراء كأيدي نسوان البندر، ويأكل الفطير المشلتت والبيض المحمر والقشدة، وملابسه نظيفة، يخدمه الجميع، من حقه طبعاً أن يقول ما يحلو له، ويفعل ما يريد!

الغريب أن هؤلاء باستطاعتهم عدم طاعة الشيخ أو حتى عدم الاعتراف به وخدمته، وعدم حرمان أنفسهم من خيرات بيوتهم وتقديمها له، إلا أنهم مع ما يعتمل في نفوسهم نحوه لا يجرؤن علي ذلك خشية غضب الشيخ والذي سيكون سبباً لغضب الله.

فقد حدث مرة وفعلها خميس ابن الحاج محمد أبو عوض، ودعا عليه الشيخ ووصفه بالفسق والفجور والنجاسة، وكان خميس اتهم الشيخ بالنصب والاحتيال والعيشة المرتاحة علي قفا الفلاحين الغلابة وأن الله لا يرضيه ذلك ابداً. وقال:

- لماذا لايعمل بدلاً من التنطع باسم الله؟! ووصف حال الشيخ بأنه سرقة لعرق الفلاحين الغلابة.

ومن يومها والمصائب تحط علي رأس خميس، فقد ماتت زوجه وهي تضع مولودها الأول، وبعد ذلك بأشهر قلائل ماتت الجاموسة التي يمتلكها، وفوق ذلك ركبه هو نفسه المرض! وقال بعض من يدعون العلم ببواطن الأمور إن العفاريت التي تحب الشيخ هي التي فعلت في خميس كل ذلك، فالجن فيهم المؤمن والكافر.

وأقسم علي السفروتي أن وصف الشيخ لخميس، «أنه نجاسة» صحيح فقد رآه بعينيه وهو... ثم صمت قائلاً:

- الله حليم ستار ولا داع للفضائح.

ثم عاود الصمت، ولما لم يستوضحه أحد قال ضاحكاً:

- لوطي ابن لوطي!

ثم صمت وهز رأسه مرة أخري في شماته لا يعلم أحد مصدرها وسرها، وقال:

- لوطي ابن لوطي، مدد يا سيدنا يا الشيخ، إنها كرامة يا إخوانى والله.

زعق شحاته الأعور في وجه علي السفروتي قائلاً:

- كفى يا عم علي، كلمونا عن الجنة واللحمة والفاكهة التي يقول عنها الشيخ؟ يا سلام يا ولاد والواحد نايم مرحرح فوق سرير نظيف والعنب يتدلي ويدخل حنكي، أول ما أفكر في العنب.

ثم رفع يديه الخشنة التي صبغها السباخ وأعمال الحقل وكأنها لم تغسل منذ ولادته:

- يارب تب علينا من البراغيث ونوم التراب والحصير، أما من ناحية النسوان لا أريد حورا ولاعورا كفاني ما شفته.

ضحك حسان الطيب قائلاً:

- والله العظيم أنت رجل مجنون لا عقل لك، فهل الحياة هنا أو هناك تحلو ويكون لها طعم ومذاق إلا بالنسوان؟!

قاطعه السفروتي قائلاً:

- لا تؤاخذ الأخ شحاته لأنه يرى النساء بالعين العوراء فقط.

وضج الجميع بالضحك حتى شحاته نفسه شاركهم الضحك مؤكداً صحة كلامهم، قائلاً:

- أي والله صحيح!

كان ابن شريفة الغزية شارد الذهن لدرجة لفتت الأنظار إليه، ولكن بدد تلك الدهشة وتساؤل العيون قائلاً:

- عندما ندخل الجنة بإذن واحد أحد، بعد أن ينتهوا معنا من الحساب والكتاب الذي يطير ويلصق في رقبة العبد، سيسلموننا هدوم أم سنبقي بلابيص كما كنا ساعة الحساب؟!

واكتشف الجميع إن السؤال لم يخطر ببال أحد منهم، وتبادلوا نظرات الدهشة!

- قال قائل منهم: صحيح يا إخوان العلم نور.

- وصادق عليه آخر قائلا: فعلاً.

- قال علي السفروتي: ألم يسمع أحد منكم كلاماً في هذا الموضوع من الشيخ ؟!

أجابوا بالنفي، فقال دون ترو ولا مناسبة:

- ألا يأتي اللوطي ابن اللوطي، ليقول لنا ما هي الإجابة؟!

عزموا الأمر علي سؤال الشيخ في جلسة الليلة القادمة.

*****

بعد انتهاء حلقة الذكر! تقدم علي السفروتي من الشيخ وقبّل يده ثم جلس بجواره، وقال:

- قل لي يا عمي، إن شاء الله، إن شاء الله، بعد انتهاء الحساب في الآخرة ودخولنا الجنة، سيسلموننا هدوم أم سنظل بلابيص؟!

احمر وجه الشيخ، زعق فيه غاضباَ:

- ماذا تقول يا جاهل، بلابيص؟! ويسلموننا هدوم؟! في أي مكان أنت، وعمن تتكلم؟!

انفجرت الضحكات، وعلق بعضهم سيسلموننا هدوم، ستدخل سيادتك التجنيد، أم ستدخل الجنة؟!

زعق الشيخ غاضباً مرة أخر، وقال للسفروتي:

- تب إلى الله يا ولدي، ودع أفكار الشيطان.

- همس بعضهم: ذنب ابن اللوطي!

غامت عينا الشيخ الأخضر، وأطال النظر إلى سقف قاعة الدراويش والتي عمل جد حسين على اتساعها قدر ما تسمح به العروق الخشبية عند بناء الدار، وكم أيقظ جدته «ضياء النفوس» في ساعات متأخرة من الليل لتصنع للدراويش والمشايخ الفطير المشلتت، أو الخبز الساخن، وما تيسر من الجبن الأبيض أو القديم والعسل الأبيض والأسمر، أو إحضار ما عندها من طعام إذا لم يتوفر ذلك.

تربع الشيخ الأخضر في هيئة من يقرأ القرآن الكريم، ثم استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وبسمل ثم قرأ من سورة الحج: «إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار، يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير»... صدق الله العظيم.

ثم نظر إلى الحاج عبد اللطيف نظرة ذات معني قائلاً:

- هل عرفت يا سفروتي؟!

حكايات كثيرة وطريفة يفعلها الدراويش المحرومين من متاع الدنيا، وينتظرون التعويض في الجنة، حكايات يفزع الشيخ منها ويتسائل أي شيطان ماكر يلهم هؤلاء الأغبياء تلك الأفكار؟!

*****

أما شطحات المشايخ فلها العجب العجاب، والذي لا يفكر فيه الدراويش فللمشايخ عوالمهم ومعارفهم بالله، وليس الدراويش أهلا لذلك فهم علي حد قولهم:

- نحن مساكين مالنا وهذا الكلام الكبير.

وتقف شطحات الشيخ أصيل على رأس الشطحات جميعاً، فهو أحيانا لا يصلي الفروض، ويعلل ذلك بأن الصلاة صلة بين العبد والرب، فما بالنا بالعبد الفاني في ذات الله وقد ذهبت الصلة بالفناء.

علي عكس هذا الاتجاه تماماً يقف الحاج عبد اللطيف شيخ الطريقة، قبل أن يقسمها الشيخ أصيل ويتبعه خلق منهم، على رأسهم الشيخ فؤاد الذي يرى في عقل الشيخ أصيل فيلسوفاً كبيراً وموحداً عظيم شأنه شأن الحسين بن منصور الحلاج شهيد العشق الإلهي، فقد كان لكلامه باطن يخالف الظاهر.

بينما يعتمد الشيخ عبد اللطيف في تربيته للمريدين علي الحب ونقاء القلب والمواظبة علي الصلاة والصيام والعبادات واتباع الشريعة، وليس كما يزعم «أصيل الفاسق»- علي حد وصفه له- إتباع الحقيقة، فلا حقيقة لغير متشرع .

- ويقول أصيل: إن عبده- يقصد الشيخ عبد اللطيف- صغير العقل يخاف على الناس أن يتركوه إذا عرفوا الحقيقة، وهو على عطاياهم في معيشته ولولاهم ما عرف من أين يأكل، فهو تاجر بل شاطر، يدل الناس علي الله ويقبض الثمن.

كان الحاج عبد اللطيف، يصرخ في حلقة الذكر ثم ترتعش يداه في الهواء يدعو الله:

- استرنا فوق الأرض، استرنا تحت الأرض، استرنا يوم العرض.

ويبكي بكاءً يتجاوب معه الدراويش وتنهمر الدموع، وتعلو الأصوات تلهج بلفظ الجلالة:

- الله.. الله.. الله.. الله..

ومنهم من تأخذه النشوى- «الجلالة « كما يقولون- ويقفز إلى أعلي، يشخر، يشق ملابسه، يسقط مغشيا عليه.

وكان الشيخ أصيل ذو جرأة في كلماته عن علاقة البشر بالله، تقشعر منها أبدان البعض ويستغفرون الله ولكن العجيب أنهم يحبون كلماته ويحضرون جلساته يتحلقون حوله، من يريد التدخين يدخن، من يريد أن

يمدد رجليه يفعل دون استئذان، ومن يريد أن ينصرف هو وشأنه، يعني حرية كاملة، بخلاف الشيخ عبد اللطيف الذي يفرض الأدب فرضاً على المريدين ، فالأدب بداية الطريق إلى الله- كما كان يردد دائماً-.

*****

أهم الشخصيات التي انشقت عن الحاج عبد اللطيف والتصقت بالشيخ أصيل هو الشيخ فؤاد.

شخصية أخرى مثيرة للجدل وهو الشيخ الأخضر، ولكنه كان عاملاً مشتركاً بين الشيخين، مثل طائر يحط على الأشجار التى تحلو له، جريء غير هياب، يقول للحاج عبد اللطيف إذا نهاه عن الجلوس عند أصيل:

- أنت يا عبد اللطيف لم تتعلم، والبيت الخرب تزعق فيه البوم، فحافظ على العصافير الخضراء أن تهجر أعشاشها .

وكان جد حسين عند كل خلاف ينادي بأعلي صوته:

- «طيّب يارب، طيّب يارب»، وكان يعلن حبه لصاحب القلب والروح والأدب وهو الشيخ عبد اللطيف ويناديه، يا عمي.

كانت عادة الشيخ عبد اللطيف، مثله مثل شيوخ الطريق يعطي «العهد»، أي يمد يده في يد المريد الجديد معاهداً الله علي الطاعة لله وللشيخ والمحافظة على الحدود وعدم اقتراف المعاصي.

أما الشيخ أصيل، فكان يرفض ذلك، ويقول لمن يطلبه، عهدك مع خالقك إذا كنت خائناً أو مخلصاً فشأنك مع الله إن عفا عنك أو عذبك.

*****

كان الشيخ الأخضر لا يستحم ولا يغير ملابسه إلا إذا بليت فيقذف بها في الأنهار، وكان من عجيب أحواله أن «القمل» يتراص في ثيابه الداخلية كصفوف الجند ولا يخرج عن هذه الصفوف ولا تسقط منها واحدة أبداً،

ومن العجيب أنه كان طيب الرائحة - ولا تدري كيف!!- وكان الشيوخ يصفون تلك الحالة أنها «حملة»، أى إبتلاء من الله ليختبر قوة إيمانه .

تأخذه حالةٌ وكأنه يخاطب غير الناس، يروي حكايات كأنها من نسج الخيال بل والخيال الجامح لكنه عذب الكلمات، دقيق العبارة، رائع التناول يروي عن نفسه :

- «قال الأخضر إن المجنون حين أتاه الطير، يهمس في أذنه يلقي سر الأسرار، ليلي معشوقة قلبك، تنتظرك بالصحراء ومضى يرفرف بجناحيه، والزعب يطول ويطول، يعانق أشجار الليل ونهر الشوق والمجنون يصيح: ليلى، ليلى، ليلى.

وريح الكون يردد صدى الصوت الاسيان، المجنون يصيح والريح يردد، الأشجار، الأنهار، الأطيار، وخيام الصحراء تاه المجنون، وتاه، لكن الصوت أتاه: حدق في قلبك فتش في أوردة دمائك، ليلى تسكن فيك!

ثم يصمت لحظه، ويقول:

- قال الشيخ: اعلم أيدك المحبوب برائع وصله، أعلى مراتب الحب الجنون... وقال نبي الحق: «رب اشعث أغبر، مدفوع بالأبواب، لو أقسم علي الله لأبره»... حلق في أفقك، تجاوز نور العين، ونور القلب، وقلب القلب، وأصعد للنور الأعلى، تجد الحب وتجد المحبوب.

ذات مرة صرخ أحد الحاضرين بعد أن صاح أبو الشعور بأعلى صوته:

- الله في الحب، الله في النور، الله، الله، الله، الله مشيرًا إلى الحاضرين بالوقوف والتحلق، وبدأت حلقة الذكر والإنشاد دون ترتيب، وجعل الأخضر صاحب الصوت الرخيم يترنم بأبيات شعرية للصوفي الأثير عنده أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج ، حتي أنه يصف نفسه قائلاً:

- أنا حلاجي الهوي... الحب ما دام مكتوماً، علي خطر: وغـاية الأمـن أن تـدنـو من الحذر... وأطيب الحـب ما نـم الحديث به: كالنار لا تأت

نفعاً وهي في الحجر.

بينما كان الشيخ عبد العاطي ينقر بمسبحته على كوب زجاجي فارغ، فيحدث نغمات رائعة تزيد من شجن الكلمات.

وكان الشيخ عبد اللطيف ترتعش يداه، وهو يجول وسط حلقة الذكر يستحث الذاكرين علي إخراج لفظ الجلالة من قلوبهم، وإستحلابه في أفواههم حتي يتذوقوا طعم الحب، والدراويش بين هائم وهائج وصارخ وباك يرددون:

- الله..الله.. الله.. الله.. الله.. الله.. الله

وكان الحاج عبد اللطيف يعشق حكايات الشيخ الأخضر، ولا يغضب من تطاوله أحيانا عليه، حتى لا يحرم من حكاياته الرائعة والتي يهيم لها وينتشي نشوة روحية لا حدود لها، وكان الأخضر هو الوحيد المسموح له بذلك،- فالحب يصنع الأعاجيب- كما يقول الشيخ عبد اللطيف عن تلك العلاقة.

ومن الحكايات التي صرخ بعدها الحاج عبد اللطيف وبكى كل من في مجلسه، قال الأخضر:

- كانوا ثلاثة، جمعتهم خلوة الليل، فسبحوا في نهر الشوق، وبحر العشق.

- قالوا: ليذكر كل منا حاله في حضرة محبوبته .

- قال قائل منهم: أطير إلى حبيبي حيث المستقر يطعمني ويسقيني، ويريح وجع القلب بجميل الوصال، ويبل أوصالى بخمر الشوق. فأعود منتشياً وقد أسكرتني عيونه ولكنني حين أفيق، أملأ الكون بصرخات تلهفي:أنت وحدك غاية إشباعي.

- وأطرق الثاني حزيناً ثم همس: مسكين قلبي، مسكون بامرأة لا تحويها حروف اللغة البشرية، فماذا يسميها حين ينادي عليها؟!

ثم زعق بأعلى صوته ووجهه شارد نحو الأفق البعيد:

- يا امرأة مستحيله، بعدك كل النساء هوامش.

ثم سكت ساعة وقد صوب بصره يتأمل الحصى وحباب الرمال وذرات الغبار، وهي تسبح بحمد خالقها وتشكره، يراقب النباتات الصغيرة وهي تطول ثم قال هامساً وكأنه يودعهما سراً: قال أسيادنا السكارى- عليهم رحمة ربي- : «من لم يذق الخمر في الدنيا، حرمت عليه الخمر في الآخرة».

- بينما شحب وجه ثالثهم وقال: قال المجنون: «أنا ليلي، وليلي أنا» ثم بكى طويلاً وسقط مغشياً عليه.

*****

كان الشيخ عبد اللطيف كثيراً ما يطالب الأخضر بعدم ذكر الروايات الملغزة أمام العامة من الدراويش فتلك كلمات ثقال لا تحملها إلا الجبال، وعليه بإنتقاء البسيطة الصريحة المليئة بالحكمة، ولكنه كان لا يأبه ويقول وعيناه مغرورقتان بالدموع سله:

- ربما أعتقني من رق التحريض.

وكان الشيخ أصيل يقول له:

- يا أخضر قل الحقيقة وإن هلك الناس جميعاً، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها، ومن أحيا نفس كأنما أحيا الناس جميعاً يا أخضر، فيهز رأسه وهو مغمض العينين ولا يتكلم.

وكان من عجيب أفعاله، أنه كان يأكل الصابون ويدخن بشراهة. وإذا حذره أحد خوفاً على معدته من ذلك قال:

- الصابون يقتل شهوتي، فأنا رجل عزب كما أطلق الدخان على روحي حتى لا تشف كثيراً وتفارقني وتتركني مجنوناً في الفلوات.

فيضحك الحاضرون وربما قال بعضهم :

- والله يا مولانا الأخضر أن أحوالك غريبة.

وكان من غريب عاداته أن يقول كلمات لا صلة لها بالحال القائم!

- قال ذات مرة ليبدد الصمت: حين قتل العباسيون أبي المغيث الحسين بن منصور الحلاج في عام ٩٠٣ هجرية، وسالت الدماء على الأرض فإذا بها تكتب «أحد.. أحد.. أحد» بضع وثلاثين موضعاً، وذلك يعني أنه بريء من تهم الحمقي.

- فقال الشيخ عبد اللطيف: ما هذا يا أخضر؟! ما سمعنا أن حدث مثل ذلك للإمام الحسين ولا والده الإمام على.

- فنظر إليه الأخضر نظرة ذات معنى وقال: وهل يحتاج الإمام الحسين أو والده إلى تبرئه يا عبد اللطيف؟!

*****

حائر صاحبنا حسين في فلسفة صديقه «ياقوت»، وذلك الحزن الغريب الذي يسكن عينيه وصورته، وآرائه في الحياة والبشر.التى ملخصها إن العمر مهما طال فهو قصير ولا يستأهل أن يعبأ الإنسان بالحياة، مادامت زائلة فكن في الدنيا غريب أو عابر سبيل، ولا ضرورة على الإطلاق لإنجاب معذبين جدد للحياة!

- وكان يحدث نفسه قائلاً: وكأن لك حسين في كل مكان هموماً من نوع مختلف! ربما كانت لذيذة مثل التي يعيشها مع «ياقوت» زميل العمل والذي سبقه إلى القاهرة بعدة أعوام، وتشاء الأقدار التلاقى والصداقة، والإتفاق والإختلاف في كثير من الآراء ولكنه سعد كثيرا بخياله الغريب.

شيء واحد يمكننا أن نؤكد أنه اختلاف جوهري بين الصديقين حسين وياقوت وهو النساء. أو بالأحرى حب الإرتباط بالنساء، حيث يرى حسين أن لكل إمرأة مذاق مختلف، رائحة مختلفة، طعماً، كلاماً، دلالاً، شراسة مختلفة، ولا بد من التمتع بكل هذه الكنوز التى خلقها الله، وذا حقها على الرجل وإلا أصبح أنانياً بخيلاً لايستحق الحياة.

- حقيقة المرأة واحدة ياسيد حسين، وكلهن سواء.
- العلم أثبت أن بصمات الأصابع لا تتشابه في اليد الواحدة فهل تتكرر النساء يا سيد ياقوت؟! المرأة يا صديقي رائعة النعم وهدية الله للرجل والحرمان منها حرمان من لذة الحياة.
- أنا لا أكره النساء يا حسين، وإلا لكنت كارهاً لأمي وأختي! ولكن لكل إنسان ظروفه الخاصة به وأسراره التي ربما دفنت معه في قبره أو باح بها لمن يراه آهلاً للبوح.
- حيرتني معك يا صديقي، لا أدري هل أنت زاهد في الحياة أم كاره لها أم خليط بين الإثنين، أم أنك صوفي كبير وأنا لا أدري؟!
- لا زاهد ولا كاره ولا صوفي، ولكن يمكن أن تقول: مستسلم.
- ولماذا يا صديقي؟!
- أجد في ذلك راحة وسلاماً كبيرين، وما غاية الإنسان في الحياة إلا الراحة والسلام؟!
- ولكن كيف تحتمل أعضاء جسمك أفكار عقلك، تفهمني طبعا؟!
- الإنسان الكامل هو المستغني بشكل كبير عن الناس، هو غير المحتاج لغيره من الخلائق، وأنا أجاهد في طريق الكمال وأولها قتل الغرائز التي تجعلني أحتاج لغيري.
- ولكن هذا جنون يا صديقي، ومخالفة للناموس الإلهي!
- وهل كان أبو العلاء المعري مجنونا أم شاعراً وفيلسوفاً؟! هل تذكر الآن أولاده أم تذكر أشعاره وأقواله؟! هل كان نبي الله عيسي مجنونا؟! هل كان السيد البدوي وإبراهيم الدسوقي وابن تيمية مجانين؟! إن المخلوق الوحيد الذي يمكنه رفض الزواج والتزاوج هو الإنسان فقط وليس الحيوان! ثم إنني أحب الوحدة ولا أطيق أن يشاركني أحد في مسكني، وذلك يتيح لي الإستمتاع بحريتي بعيداً عن المشاركة حتى لو كانت الزوجة والأولاد،

أجوع كما أرغب، أكتب إذا أردت، أمزق ما كتبت، أنام بملابسي أو بغيرها، أغني، أصرخ، أبكي، أضحك.

- صديقي الحبيب أحترم أفكارك في الكون والحياة البشرية، إلا في مسألة النساء هذه فأنا أحبهم حبا شديدا، فلكل واحدة كما قلت لك لون وطعم بغض النظر عن كونها جميلة أم لا، والحقيقة إن الجمال الانثوي مسألة نسبية.،وحسب ذوق الشخص وثقافته وعاداته، وبيئته التي نشأ فيها.

- لك يا صديقي ما شئت.

- مثلي ومثلك رجلين أحبهما حباً شديداً الشيخ الأخضر والشيخ فؤاد، الشيخ الأخضر مثلك تماماً ودود رائع صاحب حكايات مبهرة، لكنه يعيش سائح في البلاد لا يقر له قرار، وإذا سألته عن عدم زواجه ضحك قائلا: النساء نعمة كبيرة لا أستحقها.

- ولكنهن يستحقونك يا أخضر.

- من تستحقنى استحقت العذاب، فلا راحة لهائم في البرية!

أما الشيخ فؤاد فقد كان محباً كبيراً للنساء، ويقول إن الحب الإلهي لابد وأن يبدأ بالحب الأرضي الأنثوي، فالحب الأرضى ما هو إلا تمرين وتدريب للقلب لتلقي فيوضات الحب الإلهي.

- أصارحك القول يا صديقي ياقوت، تعرفت من الشيخ فؤاد علي مؤلفات الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، الفتوحات المكية ونصوص الحكم والرسائل وغيرها. وعرفت منه أقطاب الصوفية، الجنيد والشبلي ومعروف الكرخي حين كنت طالباً بالمدرسة الثانوية، وعجبت لذلك فيما بعد فكيف يتوفر لرجل لم يحصل على شهادات دراسية، هذه القراءات العميقة والآراء والأفكار الأكثر عمقاً، وحالة الإستغراب التى كان يواجهها الشيخ فؤاد من موظفي الجمعية الزراعية التي كان يعمل بها، مجرد عامل بسيط يحمل في يديه كتباً ما سمعوا عنها ولا يستطيعون معها صبرا ولافهماً،

وكان هو لا يعجب من ذلك مبرراً ضيق أفقهم وعدم سيعهم إلى المعرفة قائلاً:

- هؤلاء أطفال فكر لم يتذوقوا ومن لا يذق لا يعرف، يكفيهم ما هم فيه من شئون الزراعة وإصلاح الأرض فذلك عمل كبير وجليل .

ولا ينسي الشيخ فؤاد عندما سأله أحدهم:

- كيف تفهم هذا الكلام الغريب؟!

ورده عليه ضاحكاً :

- إرادة الله يا باشمهندس!

فتعجب الباشمهندس قائلاً:

- لله فى خلقه شؤون !

*****

كان الأستاذ ياقوت يعيش في مسكن بسيط بحارة درب البهلوان المتفرعة من شارع زين العابدين في حي السيدة زينب، ورغم شعبية الحارة وضجيجها الدائم ليل نهار، وأصوات الباعة، وشجار النساء بل والرجال وحكايات عجيبة وغريبة لنسائها ورجالها، رغم كل ذلك وأكثر إلا أن للمكان دفء منقطع النظير وحنان غامض يرجعه الصغير والكبير إلى بركة السيدة زينب، أم العواجز ورئيسة الديوان.

- قال حسين: لن أقول لك الا كما قال الشيخ فؤاد للأخضر: ولكنهن يستحقونك، فأنت يا صديقي ودود ورائع تحب الجميع بإنسانية مبهرة.

- إسمع يا صديقي: الجنس أحد أنواع القهر، والناس ما بين مقهور بقوة فتراه شرها في ذلك، وما بين مقهور بشكل عادي وعلي ذلك غالبية البشر، وغير مقهور جسدياً ولكن نفسياً ويعاني قهراً آخر هو قهر المنشطات والوصفات والأعشاب وغيرها لأن مخافة المألوف- كما يقول الناس- نقصان. أنا وصاحبك الأخضر خارج تلك المنظومة.

وفجأة انخرط ياقوت في نوبة ضحك وقال:

- رأيت في قريتي وأنا صغير مشهداً وإن كان مألوفا في الريف لكنني لا أنساه، لماذا؟! وقال وهو يغالب ضحكه: رأيت حماراً يمارس حقه الطبيعي مع أنثاه، وصاحبه ظل يضربه ضرباً عنيفاً حتي لا يتم له ما أراد إلا أن الحمار تحمل كل هذا العذاب وكان له ما أراد.

وكانت حجة صاحب الحمار أن ذلك سيضعف صحته وسيولد عنده حالة من الهيجان الدائم كلما رأي أتان.

- وضحك ياقوت أكثر وقال: هل تعرف يا صديقي أن الحمار يستطيع تمييز بين بول أنثاه في أي مكان يصادفه، ويظل يشمه شماً عميقا ثم يرفع رأسه في الهواء بنشوة رائعة، حقا لكل مخلوق مزاجه الخاص به!

وزاد ضحكه قائلاً:

- الغريب أن بعض إخواننا في الريف يرفضون أن يمارس الحمار حقه الطبيعي مع أنثاه بحجة الخوف علي صحته وحيويته، في الوقت الذي نسمع فيه عمن يغتصب حق الحمار لنفسه ويمارسه هو، ألا يخشي «الإنسان الحمار» علي صحته وحيويته؟!... ألا تري يا صديقي أن هذا القهر الجنسي سببٌ في كثير من المصائب حتى في جهنم؟! فيروى أن هناك نهر يسمي «الغوطة» يجري من فروج المومسات يتأذي منه أهل النار!

كان من صفات ياقوت الحرص وعدم الإسراف، وربما وصفه البعض بالبخل، في الوقت ذاته لا يكترث ولا يهتم بأية وسيلة من شأنها زيادة دخله المالي، فقد كان يرفض الدروس الخصوصية ولا يمارسها إطلاقا، قائلا:

- ليس ذلك موقف خاص ولكن عندي ما يكفيني، فلماذا المزيد؟!

كان ياقوت رغم أفكاره الحزينة هاشاً باشاً خفيف الظل، ضحوك رغم حزنه، فالإنسان في نظره مسكين غلبان وقدره صعب، ولابد من الترويح واللهو البريء والحب الطاهر، وما المجون والخطيئة إلا أحد مظاهر الضعف

في الإنسان المسكين. أما القتل والعنف والدمار والحروب والجشع والطمع ما هي إلا الجانب المظلم للقمر «الصخري» الذي هو الإنسان.

*****

قال حسين في نفسه:

- واضح أن صديقي الطيب يعاني من مشاكل نفسية لا يريد البوح بها أو إطلاع أحد عليها وقد استطاب الحياة بهذه الصورة، وإما أن أقبله بهذا الشكل أو أبتعد عنه..

والحقيقة أنه خشي على نفسه من أفكاره في بداية الأمر، رغم أوجه الشبه غير القليلة بينهما وحاول الابتعاد عنه، ولكنه عاد إليه سريعاً فمن الصعب أن يصادف إنساناً بكل هذا التميز وكل هذا الحب.

كان ياقوت يتمتع بقدر من القلق الفلسفى، لو كانت في رأس غيره لانتحر منذ زمن طويل. فقد كان يشرع في كتابة العمل الأدبي ثم يتركه، ما في داخله أكبر من الرواية والقصة والشعر ومن كتابة مسرحية أو مقال. وما تهيم فيه روحه أكبر بكثير من حروف اللغة ومن الأوراق البيضاء غير المسودة، وربما أكبر من الحياة بضجيجها وكثافتها، ماذا يكتب إذن؟!

رغم أنه يتمنى أن يترك عملاً جليلاً يذكره الخلائق به بعد رحيله الحتمي عن الدنيا، تلك الفكرة الضخمة تتضاءل عندما يجلس على كرسي اعتراف نفسه مقرراً الحقيقة المرعبة «ميتُ يكتب لميتِ».. ميت يخترع لميت، ميت يقاتل ميت ثم يتركا الدنيا ويرحلا، لا ضير إذن من يسبق الآخر في الرحيل! ولكنه الرحيل الذي لا مفر منه.

لا جدوي من أي شيء وإن كان عبقرياً، ولا حصاد لشيء مهما تعاظم وكثر وتعددت فوائده، ما حصاد المعرفة سوى رأس مثقل مهموم يشرف على الانفجار.إنه ابتلاء المعرفة، ابتلاء الرؤية الواسعة ما أوفر حظ الحيوان بعدم المعرفة! ما أقدر حظ الإنسان!

إن الحيوانات والطيور والأسماك والأشجار وباقي خلق الله لا تعرف الملابس الفاخرة وخطوط الموضة ولا المساحيق ومواد التجميل والزبرقة وديكورات المنازل والقصور، والإغتراعات التى ننشد منها الرفاهية، والإغتراعات التى تمكننا بإبادة أنفسنا ، لحماية أطماعنا ونهب حقوق الضعفاء. حقاً غابة الحياة عجيبة ومؤلمة، لمن يراها بشكل صحيح!

*****

١٢

حكايات من درب البهلوان

تعود حسين النبوي الذهاب مع صديقه ياقوت الي مسكنه لتناول الغداء تارة والذي يشتركا في شرائه من السوق، وغالباً ما يكون بسيطاً جداً، إلا في مفاجآت ياقوت كل عدة أيام التي يقدم فيها لحم الدجاج ولا يقبل من حسين في ذلك مشاركة مالية، وكان ذلك مصدر دهشة لحسين! والذي يتساءل:

- كيف يقبل المشاركة المالية في الفول والطعمية ولا يقبلها في الدجاج والبيض؟!

وأما البيض فقد كان مثار دهشة أخري، لكثرته وتواجده بشكل دائم وعندما سأل ياقوت عن سر حبه للبيض بهذه الصورة؟ ضحك قائلاً:

- هذه أسرار عسكرية.

سبب أخر لذهاب حسين الى مسكن صديقه ياقوت وهو إستعارة بعض الكتب والتي ما كان ليقبل إعارتها لغير حسين ومحيي الدين خريج كلية التجارة المحب للفلسفة والآداب والشاعر صاحب قصيدة «من مذكرات أبليس» التي حصل بها علي جائزة أدبية كبيرة، أسماها ساخراً «جائزة أبليس».

إبن الحاج مدبولي البقال صاحب المنزل الذى يسكن فيه ياقوت، وكان محيي الدين صاحب مرح وظرف، ودعابة رائعة، يكسبه شكله العام تلك الروح فقد كان أصلع مقدم الرأس يرتدي نظارة طبية من النوع السميك، نحيل يميل الي الطول بعض الشيء، أبيض البشرة مشوب بحمرة خفيفة.

عندما عرفه حسين للمرة الأولي، قال عنه ياقوت:

- الأستاذ محيي الدين، فيلسوف مجنون وشاعر متميز يفعل أشياء غريبة وطرائف لا يصدقها أحد، وله آراء متطرفة، ومتطرفة جداً ورغم كل ذلك هو الشخص الوحيد في الحارة الذي يمكنه دخول مسكني. بل أنني لا أحتمل غيابه وعدم رؤيته والاستمتاع بالإستماع اليه، ورغم ذلك فقد ورطني في بعض حكاياته المجنونة.

- فقال حسين: هذه الحكايات مسموح بسماعها؟!

- قال: طبعا فلست غريبا عنا وعلي الأقل لنعرف رأيك، وأنا علي يقين أن محيي الدين سيسعد وهو يحكي لك، أليس كذلك يا أستاذ محيي؟!

هز محيي الدين رأسه وقال ضاحكاً:

- مفضوح يا ولدي مفضوح!

*****

ذات يوم وهم على مشارف درب البهلوان، ترامت الي أسماعهم جلبة تشير بأن شيئاً غير عادي يحدث بالحارة. وكان لغط الأصوات المتداخلة والمتباينة يترامي في كل ناحية، يفضح- دون جهد لمن يشتهي المعرفة- أسرار تلك المعركة الحامية.

- قال رجل: دعوها تؤدبها، إمرأة تعودت الرذيلة وسيرتها شوهت سمعة الحارة ليس في السيدة زينب وحدها وإنما في كل مكان بمصر!

- ضحك شاب ساخراً: تقصد في أنحاء القاهرة الكبري ، مع مراعاة فروق التوقيت؟

إزدحمت نوافذ الحارة برؤوس المشاهدين من النساء والأطفال والشباب، تتهلل وجوه الأطفال وتتعالي ضحكاتهم البريئة، كلما همت «سماسم» بالنهوض، ثم تجذبها إمرأة الأسطي عويس من شعرها الفاحم الطويل الي الأرض فيتبعثر لحمها ثانية.

- هتف أحدهم:»سلاحف النينجا» يا ماما.

وكان النسوة يتعجبن من القوة الخرافية التي هبطت فجأة علي إمرأة الأسطي عويس، وهي التي تشكو المرض دائماً، وبالمقابل ضعف وهوان سماسم التي يخشي الجميع الشجار معها لبسطة جسمها وقوتها وسلاطة لسانها.

- علقت إحداهن: إنها قوة الحق!

كان جسم سماسم الأبيض الممتليء لحماً وشحماً وحيوية، يفترش أرض الحارة شبه عارياً بعدما هجمت عليها كالوحش الكاسر امرأة الأسطي عويس «الحلاق»، ممزقة لملابسها في تصميم بالغ علي تمزيق ملابسها الداخلية، وهي تقسم بأغلظ الإيمان علي أن تضربها بالحذاء علي عورتها، بعد أن كشفتها أمام الناس جميعاً حتي تتوب توبة نصوح، زاعقة بغيظ يتفجر:

- يا زانية، يا بنت الزانية، لم تجدي غير زوجي؟!

*****

زعق رجل مسن:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، كفاكم فضائح يا أهل درب البهلوان، وشيلوا إمرأة الأسطي زفت عويس من فوق بنت الكلب هذه، حرام يا عالم يا كفره!

- علق محيي الدين هازئاً: من لا يعجبه يرحل ويترك الحارة!

- حدجه الرجل بنظرة قاسية: الي أين يرحل يا أفندي يا بارد، والبلد ليس فيها ثقب إبرة خال؟!

- فضحك دون مبالاة: خال من ماذا ؟! الرذيلة تقصد؟!

- هتف الرجل حانقاً: جيل ملعون أعوذ بالله.

- ضحك محيي الدين أكثر دون إنفعال قائلاً: قاتل الله الفقر والبطالة وإنعدام القدوة.

- إستشاط الرجل غيظاً: ماذا تقول أيها الأحمق؟

فتدخل عبد المعز المحامي الشاب الذي إبتكر حلاً هادئاً لعمله بعد أن كاد يحطمه اليأس ويضيع حلمه في تملك مكتباً للمحاماه فقسم حجرة نومه الي قسمين، أحدهما حجيرة المكتب والآخر للنوم.

- لا موآخذة يا عم الحاج، الأستاذ «محيي الدين» لا يقصد إهانتك.

- تقول أستاذ؟!

- أهتز رأس محيي الدين الأصلع فوق عنقه الطويل وقال هازئاً: نعم أستاذ يا حيوان ناطق.

- أسمعت ما يقول؟! هل رأي هذا البارد صنف تعليم؟! ابن من هذا يا أستاذ؟!

- ألا تعرفه؟! انه ابن الحاج مدبولي البقال.

- لا تواخذني يا أستاذ كثرة الإنجاب جعلتنا لا نعرف بعضا، رحم الله أيام زمان كان كل من بالحارة يعرفون بعضهم الصغير قبل الكبير، ولكن اليوم ربنا يستر!

إبتعد محيي الدين قليلاً، ثم جال ببصره في النوافذ المزدحمة بالرؤوس، وما أن لمح رأس صديقه السيد البرغوتي غارقاً في تفاصيل جسم سماسم العاري، حتي ناداه بطريقة ذات معني:

- كيف حالك يا برغوتي؟!

إنتفض البرغوتي منتبها كمن ضبط متلبساً بفعل فاضح، فأكمل محيي الدين:

- أتشاهد فيلماً ثقافياً؟!

- قال مدعياً البراءة والأدب: عيب يا محيي الدين...

وأشار بطرف عينه الي النسوة والفتيات المتحلقات حول زوجة عويس وسماسم، يستنكرون ما حدث فقط دون القيام بأي فعل من شأنه التفريق بينهما. حتي ضاق الرجل المسن بالسلبية التي لم يتعودها وصرخ ثانية:

- يا ناس يا ناس كفاكم فضائح.
ولما لم يجد لصراخه صدي إنحدرت من عينيه دمعه بعدما رفع وجهه نحو السماء:
- رحمتك يارب قوتي لا تساعدني علي عمل شيء، وأهل الحارة حل بهم غضبك فتبلدوا.
وخطرت له فكرة، فالتقط حجرا وزعق كمن يستغيث : يارب. وقذفه فأصطدم برأس إمرأة الأسطي عويس وكأنه حربه فصرخت متأوهه وفزعها منظر الدم الذي سال من رأسها، فنهضت سماسم وهرعت الي داخل بيتها تحاول ستر جسمها.

*****

ما أن لمح محيي الدين، حسيناً وياقوت حتي ذهب اليهما ضاحكاً وهو يضرب كفاً بكف ويقول:
- مهزلة أرضية بهلوانية أيها السادة!
ثم إستدار نحو والده وهو يقف في دكانه، فرآه يضرب كفة الميزان بحركة عبثية وكأنها إحتجاج علي ما يحدث فقال له:
- أيرضيك هذا يا حاج مدبولي؟!
- فقال الرجل في شبه غيظ كلمته الشهيرة المستسلمة: أقام العباد فيما أراد يا أستاذ محيي الدين، يا فاضحني!
وكان الرجل المسن قد شكا اليه ما فعله محيي الدين معه. وكانت علاقة الحاج مدبولي بولده محيي الدين أشبه ما تكون بعلاقة الصديق المعارض لآراء صديقه دائماً، ولكنه يحبه جداً.
- قال محيي الدين: «فرويد»- رحمه الله- أكد أن النفس البشرية جبلت علي غريزة الشر، وما الخير الا مظهر عارض وليس بجوهر أصيل فيها.
- إخوانك الفلاسفة يا سيد محيي الدين، بصراحة لحسوا مخك وربنا

يعوض عليّ فيك يا ابني!

- ضحك محيي الدين هازئاً كعادته: بحكم المعاشرة يا والدي ليس أمامي سوي كتبهم! ثم أن فرويد عالم نفساني يا والدي العزيز وليس فيلسوفاً... ثم أقسم قائلاً: ورحمة فرويد، لا فائدة ترجي من الحكومة، وسنظل بدون عمل حتي يوم القيامة.

- فقال عبد المعز المحامي: ليس وحدك يا حضرة المحاسب العاطل، بل كل التخصصات لا يجدون الآن فرصة عمل ولو بسيطة إلا بشق الأنفس! وها أنا خير مثال، ولولا نصف حجرة نومي التي حولتها الي مكتب لجلست علي المقهي طوال اليوم أو علي سلالم المحاكم أنتظر الزبون التعبان.

- أقبل السيد البرغوتي مبتسماً يقول: وكأننا في هذه الحارة «طرابيش» أو «أكياس جوافه» يا سيد محيي الدين! أكان أحد يصدق أن يخرج كل هذا من الأسطي عويس الطيب صاحب اللسان العفيف والخلق القويم؟!

- المرأة كنز لا يفني من الرذيلة، ثم هز رأسه ضاحكاً وأكمل: الممتعة.

- وأين؟! في دورة مياه المسجد، آه لو شاهدت منظره حين ضبطه صاحبنا الأخ شاكر. وكان ذاهب لصلاة نافلة الضحي، وإذا به يصفعه علي وجهه صائحا:

- يا كافر، يا خبيث، يا ملعون، أهكذا تفعل وأنت المتزوج المحصن؟! ماذا تركت للشباب العزب، العاطل، المتسكع، الذي يملأ الحارة بلا أمل في أي شيء؟!

واذا بالرجل يرتطم بالحائط ثم ينهض مسرعاً فزعاً الي خارج المسجد دون كلمة واحدة، وحتي هذه الساعة لا نعلم له أرضا تقله.

- وماذا فعل مع سماسم؟!

- قال النساء كلاماً كثيراً وقصصاً متعددة منها أنها تركت عورتها مكشوفة في مواجهته حتي يغض بصره كعادته، فتستطيع الهرب، وقالت أخري:

- أنها من هول الصدمة إنكفأت علي وجهها، في فتحة دورة المياه

فتلطخ بالخراء.

- وقالت ثالثة: الأخ شاكر رجل طيب، بصق عليها وإنصرف.

- قاطعتها إمرأة مستنكره: طيب؟! خلي الطابق مستور!! ولكنها لم تقل شيئاً يدينه ولكنني سأظل الح عليها حتي أعرف قصدها. ربما عرفنا جديدا يؤكد أننا سنظل «أكياس جوافة» في هذه الحارة.

- وقال بتصميم غريب: لابد وأن أقف علي الحقيقة بنفسي.

- ضحك محيي الدين قائلاً: أتمنى ألا تنكسر الحقيقة تحت قدميك فوزنك الثقيل يا صديقي لا يستهان به.

*****

بعد حوالي نصف الساعة، كان ياقوت قد أعد لحم الدجاج، بينما حسين يجهز باقي الطعام من الأرز المسلوق وعمل السلاطة الخضراء.

لحظات وجاء صوت محيي الدين يعتذر عن التأخير في مشاركتهم تجهيز طعام الغداء الذي عمر بسيرة سماسم وأسرتها وزواجها رسمياً للمرة الرابعة، طلقت خلالها مرة واحدة ومات عنها زوجين...

قال أهل الحارة أنها قتلتهم بنهمها الجنسي، وأفلت الطلاق زوجها الثالث من الموت. أما الرابع فالجميع ينتظرون قدومه ليروا ما سيفعل بعد تلك الفضيحة. وإن كان الكثيرون يؤكدون أنه رجل «نعجة» ولن يستطيع عمل شيئا يذكر سوي أن يوبخها ويشتمها، وإنها سوف ترد عليه كعادتها رداً مفزعاً قائلة، دون حياء بأنه لو كان رجلاً حقيقياً ما فعلت ذلك.

وأقسمت واحدة منهن أن سر أسرار سماسم في جعبتها وقالت:

- أنها تفعل ما لا يستطيع الشيطان ذاته أن يفعله. وأقسمت أن أمها كانت تربطها من رجلها ليلاً في السرير حتي لا تخرج لمقابلة الشباب ولكن دون فائدة، طوال عمرها لا تخشي الفضائح!

أخبرهما محيي الدين بما قالته المرأة، من أن سماسم تستطيع فعل مالم

يستطيع الشيطان فعله ، ثم ضحك طويلاً وجعل يضرب الأرض بقدميه، ويضرب كفاً بكف ويقول:

- فعلاً، الشيطان لن يفرط في شرفه مثلما فرطت سماسم! الوحيدة التي تستطيع فعل ذلك هي زوجة الشيطان وليس هو!

ثم سكت لحظة وهو يغالب ضحكة قائلاً:

- هو؟! هو تبقي فضيحة! يعني يرفض السجود لآدم ثم يسجد للأسطي عويس الحلاق؟! ساعتها سيعلن»عبدة الشيطان»كفرهم بسيادته أو ربما راق لهم ذلك وفعلوا مثله، من يدري؟!

فقال ياقوت وهو ينظر الي محيي الدين نظرة ذات معني:

- أو ربما تخلي عن من يتعاطفون معه ويكتبون شعراً يناصرونه فيه.

- قال حسين دهشاً: ماذا تقصد يا سيد ياقوت؟!

- الأستاذ محيي الدين يتعاطف مع الشيطان، وكتب في ذلك قصيدة عصماء، حصل بها علي جائزة كبيرة.

نظر حسين الي محيي الدين مستفسراً فقال:

- هي قصيدة والسلام لكنني لست من عبدة الشيطان، لقد جلست معهم واستمعت لكلامهم وفلسفاتهم وتبرراتهم، ورأيت طقوسهم ولكن لم يعجبني ذلك فابتعدت عنهم، ورأيي الشخصي أنها حالة فوضي يفتعلها أبناء الزواقيل الأثرياء، وحرية غير مسئولة- علي رأي المسئولين-! ضحك حسين كأن لم يضحك من قبل، حتى تعجب ياقوت ومحى الدين لتلك الحالة، وقالا:

- ماذا حدث، مارأيناك تضحك هكذا من قبل؟!

مسح حسين دمعات عينيه وقال:

- ما سمعت وصف «زواقيل» إلا من عم عبده كاتب الفندق صاحب الالأعيب العجيبة، وله الفضل فى معرفتى بمعناه، والآن أسمعه من محى الدين المتعاطف مع الشيطان، اليس فى ذلك مايضحك؟

- إبتسم ياقوت وقال: ومامعناه جزاكم الله خيراً ياأكبار؟

- إتخذ محى الدين هيئة الواعظ وقال: الزواقل صفة مفردها زاقولى وهو اللص وهؤلاء كانوا جماعة فى الجزيرة وبلاد الشام أشبه بالصعاليك فى الجاهلية، يسرقون الناس وينهبون أموالهم، وبلغ من وقاحة أحدهم ويسمى علوان بن داوود البجلى انه كان يتحدث بالكذب على الرسول والصحابة، ومن أشهر اكاذيبه قوله أن الصديق ابو بكر أمر بحرق الفجاءة السلمى حياً .

- ثم ضحك محى الدين وأشار الى رأسه قائلاً، يقول الأزاهرة: زوقل العمامة، اذا أسدل طرفيها على جانبى رأسه، وتقول العامة: زقله زقلاً، أى رماه بما فى يده أو بما فى فمه من أرذل الكلمات، كما تفعلون بى الآن! أما الزَّقيلة هى السكة الضيقة، والله أعلم.

- نظر اليه ياقوت دهشاً وقال: رائع يامحى الدين، سمعتها كثيراً منك، لكننى كنت أظنها من مفرداتك التى تخترعها!

- حسين: وهل حكاية الشيطان هذه أحد أسرارك مع أبناء زواقيل العصر الحديث؟

- لا، فهذا شيء مفضوح ومعروف.

- اسمعني إذن هذه القصيدة حتي أعرفك جيداً ياصاحبى.

- لن أسمعك القصيدة الآن، أولا تعرف الأسرار العجيبة التي وعدتكم بالحديث عنها، ثم فيما بعد أسمعك القصيدة فالأيام طويلة يا سيد حسين.

*****

كان محيي الدين تلميذاً نجيباً، خفيف الروح يتمتع بذكاء كبير، تملأه البراءة مثل كل الأطفال الأسوياء والذين نشأوا في بيئة صالحة، وكان والده يحلم- ككل الآباء في حينها- أن يصبح ولده في يوم ما طبيباً أو مهندساً. فيجيب محيي الدين ككل التلاميذ:

- ماذا تريد أن تكون؟! فيقول: ضابط في الجيش...
- فيضحك الأستاذ وهو يربت علي كتفه قائلاً: ولماذا ضابط في الجيش؟!
- حتي أقتل أعداء البلاد، وأحرر الأرض المصرية والعربية من الإحتلال الإسرائيلي.

جرت السنون بمحيي الدين وتخرج في الجامعة، ولكن أحلام الطفل الصغير ووطنية المحارب الجسور التي كانت تملأه تبددت وتلاشت. كان الحاج مدبولي البقال والد محيي الدين، يصحب ولده الي مسجد السيدة زينب في كثير من الصلوات ويجلسه معه في حلق العلم بالمسجد، فشب محيي الدين علي كلمات رائعة سكنت فؤاده، حتي إن والده كان يقول ضاحكاً:

- كنت أريده طبيباً أو مهندساً فإذا به سيصبح شيخاً أزهرياً، وهذا أيضاً خيراُ كبيراً في الدنيا والآخرة.

لكن محيي الدين بعد ان تخرج في الجامعة جلس في بيت والده لا يجد عملاً!! لينضم بدوره الي صفوف البطالة بعد الإنتهاء من أداء الخدمة العسكرية. وما عاد يواظب علي الصلاة حتي يصلي، لم يعد يملأه أمل الوطنية وإخراج اسرائيل من الأرض العربية، ولا يجد في نفسه غضاضة أن يسافر الي هناك اذا أتيحت له فرصة عمل جيدة. ويقول لمن يري الدهشة في تضاريس وجهه:

- وماذا في ذلك؟! هل ذهبت وخضت التجربة حتي ترفضها؟! إن مستوي دخل الفرد هناك أكثر بكثير جداً من بلادنا، مع أن خيرات بلادنا كثيرة وعديدة ومتنوعة! ولكن الآفة يا سيدي أنك تجد فرداً واحداً وما أكثر هؤلاء الأفراد، ابن تسعة أشهر، مثل أي مواطن في بلادنا لديه من الثروة ما يكفي لحياة ألف ألف شاب، يفتحون ألف ألف بيت، يعولون ألف ألف أسرة! فهل هذه بلاد وهؤلاء مسلمين؟! وحديث النبي الذي يؤمنون به ويبكون طويلاً أمام قبره يقول: «من كان عنده فضل زاد فليعد به علي من

لا زاد له، ومن كان عنده فضل ظهر فليعد به علي من لا ظهر له»... وقال الصحابي راوي الحديث: «مازال رسول الله يعدد، حتي ظننا أنه لا حق لأحد في فضل عنده». وفضل يعني زيادة عن حاجته، أيها السادة! وليس معني كلامي الدعوة للشيوعية ولكن أن تكون هناك عدالة إجتماعية، إنني لم أر ولن يري أحد من الناس، ابن مسئول أي مسئول عاطلاً أو في وظيفة بسيطة، الظلم يولد الكفر، وقديماً وحديثاً قالوا ويقولون: «عض قلبي ولا تعض رغيفي». أنك يا سيدي لن تجد إبن مسؤل كبير أو صغير يبحث عن شقه يعيش فيها. إيه الهموم كثيرة ومتنوعة،. وبعد ذلك تعيب علي كلامي؟! ألا تري معي إن الظلم وضياع العدالة سبب إنتكاستنا وتراجعنا الي خارج دائرة التطور ووقوفنا في ذيل الأمم، وفيها من ليس له عقيدة دينية علي الإطلاق بل يري الدين أفيوناً للشعوب، ومضيعة للوقت.

أقول لك بعض ما حوته ذاكرتي منذ الصغر في مسجد السيدة زينب، قال الشيخ: الله يقول في حديثه القدسي: إن الله ينصر الكافر العادل علي المسلم الظالم».. اليس ذلك ما يحدث الآن؟!... أنا لا أحب أسرائيل كما يوحي كلامي ولكنني أصبحت لا أكرهها مع ما بيننا من ميراث قتل ودماء وتدمير ونهب لديارنا ومستقبلنا لا ينسى ولكن المحتل الوطنى الذى نهب كل شىء جعل الشباب يكفر بكل شيء.

وهكذا الحياة في صراعها الغريب، ومن لم يمت بالسيف مات بالبطالة، ومن لم يمت بالبطالة أماته الغيظ مما يفعله بنا حكامنا وأتباعهم بداية من «حمامة المخبر» وحتي السادة الذين يدفعون لحمامة المخبر كي يستمر في إخافتنا منهم!

ثم ضحك هازئاً كعادته وقال:

- يا سيدي الفاضل قل يا باسط، تجدها هاصت، مدد يا صاحب المدد، هيا بنا الي السيدة زينب نأكل الفول النابت، وأرغفة اللحم البلدي وليس المستورد فإخواننا أولاد الهرمة- الأغنياء ـ لا يغشون هذه اللحوم بالذات

لأنهم يستغفرون بها لله ويكفرون عن سيئاتهم، ثم يكفروننا من الظلم بعد ذلك.

ثم زاد محيي الدين من ضحكه قائلاً:

- إمرأتي التي سأتزوجها في الجنة- إن شاء الله- طالق بالثلاثة، أو هي عليّ كظهر أمي- كما يقول أجدادنا العرب- إن منفقي الفول النابت واللحم البلدي سيزاحموننا في الجنة أيضاً، وكما يستخدمون هم السيارات الفارهة ويتركون لنا سيارات النقل العام، سينامون علي السرر والنعيم، وسننام نحن علي الأرض.

أصبح محيي الدين مع كرور أيام البطالة والإنتظار والسأم وإرتفاع تكاليف الحياة، وإنعدام الموارد لا يؤمن بعقيدة دينية، ولا يجد ضرورة لذلك فلا فرق بين مؤمن وغير مؤمن، بين شيخ المسجد وشيخ المنسر. وكان يقول:

- ما جدوي العقيدة وما فائدة العبادة؟! اذا كان معتنقوها ومؤدوها ومن يعلنون أيمانهم المطلق بها لا يطيقون تطبيقها. كل العقائد السماوية وحتي غير السماوية تحض علي الفضيلة، وتؤكد أننا أخوه، شركاء في مال الله وأرض الله، ومع ذلك فصفحات الجرائد مليئة بما يشيب له الولدان من حوادث، منها ما يفعله الفقر ومنها ما يفعله الغني والثراء وذلك يعني خلل التوازن في المجتمع،المحلى والعالمى!!

ثم يضحك محيي الدين ويهز رأسه كعادته قائلاً:

- هذا المفضوح منهم، أما المستور خارج السطور فهو أبشع. العالم ليس قرية واحدة كما تردد أجهزة الإعلام، وإنما أصبح غابة واحدة، يأكل فيها القوي الضعيف علي مستوي الأفراد والدول. لا وجود لخشية الله الذي يؤكدون وجوده ويؤمنون به، القوة يا سيدي بل غطرسة القوة هي الإله الحقيقي الذي به يتحقق المراد، سواء في ذلك القوة المعنوية أو المادية فلا وظيفة لعاطل، ليس وراءها قوة توفرها، ولا حق لمسلوب الحق ألا

اذا توفرت له القوة ، ولا صوت لدولة صغيرة بين ذئاب الدول العظمي، فالعقيدة الوحيدة الناجحة ، هي عقيدة القوة. يعني كما يقول المرحوم الشاعر العربي:

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

إن المساجد والكنائس والمعابد تمتليء كل يوم بالمصلين والمستغفرين، ومع ذلك معدلات الجريمة بكل أنواعها فردياً أو دولياً في زيادة مستمرة، ومتنوعة... أيها الأوغاد أين الله الذي تعلنون إيمانكم به، وخوفكم منه من هذه الأفعال البغيضة؟! الحق يقال: العقائد الدينية فشلت في حل مشاكل النفس البشرية وإزالة طمعها وجشعها، فما الضرورة إذن لإنفاق الأموال في بناء دور العبادة وتزيينها والإهتمام بها، وقلوبنا خربة لا رحمة فيها ولا إنسانية.

ما فائدة الطقوس والشعائر والحج، والبكاء المفتعل أو حتي الصادق، وأفعالنا تجاه إخواننا في الإنسانية مليئة بالظلم والقسوة، لماذا لا تتسع الأرض لنا جميعا؟... لماذا لا توزع خيراتها علينا جميعا؟!... لماذا لا نعود الي إنسانيتنا ونترك حماقة أن يقتل بعضنا بعضا.. حتي يرضي الله عنا.. وهل يرضي الله اذا سفك بعض خلقه دماء خلقه؟ شيء غريب حقاً أو علي رأي الشاعر الكبير المرحوم صلاح عبدالصبور:

«كم أنت قاس، موحش يا أيها الإله»

- قال له ياقوت: شيء غريب، اسمك محيي الدين وأنت لا تعترف بفائدة الدين!!.. أليس ذلك فحشاً منك؟

فهز رأسه ضاحكاً وقال:

- ليس كل الفحش مكروه يا سيد ياقوت، بل هناك نوع منه محبب جدا ألا تراهم يقولون ثراء فاحش، وغني فاحش.

ثم رفع يديه نحو السماء قائلاً:

- اللهم أرزقنا بهذا «الفاحش».

ضحك حسين قائلاً :

- هذا الفاحش هو الحل الأمثل لديك؟

- ليس لدي وحدي يا أخ حسين، وأنما لدي الناس جميعا.

- ولكنه مطلب عسير، بل ومستحيل، لمن لا حظ له.

- أما غير المستحيل هو الطلب الثاني، وبالمناسبة لن يكلف سوي الماء فقط.

- لا أفهم ما تقول؟!

- الطوفان يا أستاذ، الحل هو الطوفان، طالما ضاع العدل ولا أمل في عودته، فلا حل سوي عودة «نوح» بالطوفان مرة أخري.

ضحك حسين وياقوت طويلاً، وعقب حسين قائلاً:

- والله أنك لمجنون، لحست البطالة عقلك الراجح يا صديقي.

- بل لحسه الظلم يا محترم!

- أسمعنا قصيدة الشيطان، ودعك من حكاية نوح والطوفان هذه نتدارسها فيما بعد.

- لا بل سأسمعك قصيدة «نوح والطوفان».

- نظر اليه ياقوت دهشاً: أو قد كتبت في ذلك شعراً؟!

هز محيي الدين رأسه موافقاً...

- لم تخبرني بذلك؟

- هي قصيدة لم تفض بكارتها بعد، سأفتضها أمامكما الآن.

تهيأ حسين وياقوت للسماع.،دهشين لما سيقوله محيي الدين.

- القصيدة يا جماعة الخير بعنوان «رسالة الي نوح» اقول فيها:

نوح إرجع ثانية بالطوفان قد حان الوقت إشتقت لمائك من أزمان يعلو الشفتين، العينين يغطي كل نواصي الجهل القابع في قلب الأكوان.

نوح ارجع وثنياً ثانية عاد العالم إمتلأت عن آخرها علب الليل والنسوة يتباهين بموفور العهر فمن زمن قطعن الأيدي واليوم،»تنام علي الخصر

ذراعاه». «أو تزني الحرة؟!» بل أمست تتباهي يا هند والليل المومسي يوقعنا بشباك الصيد نوح إستئذن في العودة وارجع طهر هذا الزمن، وهذى الأرض استشاقت روحي طوفانك فالعالم يرغمني بل يحشو نفسي بالأثم

يا نوح.. العصر الفاجر أنساني،أن أذكر اسم الرحمن علمني،أن أرتاد الحانات وفي جيبي القرآن رباه.. ثانية، فجر كل الأرض عيونا ما عادت نفسي لوامه ما عاد الطهر يزحرح من حجرات القلب الذنب فالدين يعطل أعمال البشر الآن. ويعوق تقدمهم نحو القاع.

صفق حسين وياقوت بشدة وقالا في نفس واحد:

- رائعة يا محيي الدين.

- وعقب حسين: صحيح أنها كعمل أدبي نص رائع، ولكنها نظرة غير سوية للحياة والكون.

- وقال ياقوت: والله معك حق يا محيي الدين، فعلاً فساد الكون لا يطهره سوي الطوفان

- ضحك حسين قائلاً: الا تخشي الموت؟

- ياقوت: هو نهاية كل حي، بل إنها فكرة رائعة لبداية كون جديد، طاهر ونقي وغير مزدحم.

- حسين: أنت يا حضرة الشاعر، ألا تخشي الموت؟!

- فضحك محيي الدين وهز رأسه الأصلع كعادته قائلاً: سأركب مع نوح الجديد في سفينته.

- ضحك ثلاثتهم وعقب ياقوت قائلاً: وهل ستأخذ معك البيض والدجاج أم ستتركهم؟

- نظر اليه محى الدين نظرة ذات معنى وقال: هكذا تفضح أسراري بكل سهولة ويسر، ألا تخشي الحرمان منها؟!

- تسأل حسين دهشاً: ما الحكاية يا عصابة الشيطان أخبروني، وإلا...

- قاطعه محيي الدين: وإلا ماذا؟! لن تأكل منهما؟! عموما سأفتح جعبة

أسراري ومواهبي الأخري وأمري لله، إغاظة في صاحب الفتنة الكبري ياقوت أفندي الأحول.

عاد الضحك من جديد لثلاثتهم وقال ياقوت:

- أنا أحول يا... لا داعي!

*****

هز محيي الدين رأسه وهو مغمض العينين، وقد مط شفتيه للأمام وكأنه فيلسوف كبير، وقال:

- إسمع يا سيدي أنا ولا فخر حرامي بيض وفراخ، وأشياء أخري. ففي يوم من أيام البطالة، في بداية عهدي بها، قبل تعودي عليها وعشرتي لها حتي أصبحت أخشي العمل. قرأت خبراً عن أحد المسئولين الكبار، متهما بسرقة كبيرة، أو علي الأصح عدة سرقات تم إكتشافها جميعا في السرقة الأخيرة، فغلي الدم في عروقي خاصة أنني قرأت فضيحة بعض أولاد المسئولين مشاركين شقيق مسئول كبير في إستيراد أغذية لا تصلح للأستخدام الآدمي فقط للكلاب، ووجدتني دون شعور أقول: أنحن كلاب يا اولاد الكلب؟! وفجأة ودون تعقل وجدتني أفكر في السرقة، وتساءلت في نفسي، وماذا أسرق؟! أي شيء أسرق أي شيء، ربما يكون ذلك هو الطريق الي المسئولية والوظيفة المرموقة، وبدأت ذلك بالهروب من محصل التذاكر في المواصلات الحكومية. ثم تابعت حقائب النساء في المواصلات العامة، ولكنني وجدتها مسألة صعبة وتحتاج الي تدريب شاق. وتابعت جيوب الرجال لكنني اكتشفت أنها هي الأخري تحتاج لخفة يد وحركات سريعة وإلا كان الضرب والبهدلة واخيراً استسلمت للفشل.

وذات يوم تعالت أصوات النساء بالسباب وقلة الأدب وإتهام بعضهن بسرقة بيض الدجاج. فقررت في نفسي أن أؤدبهن جميعاً، وكان بيض الدجاج من الحظائر التي تملأ السطوح هو البداية، بعده كانت سرقة الدجاج نفسه،

ولكن بشكل متقطع حتي لا يتم رصدي وضبطي في كمين، والحمد لله حتي الآن لم يحدث ذلك. وطبعاً الأستاذ المبجل ياقوت بك الأحول التهم حتي الآن ما يقرب من مائتي دجاجة وألف بيضة.

سكت محيي الدين ثم أبتسم وهو يحملق في حسين، قائلاً:

- لماذا هذه الدهشة يا أستاذ؟! أنت نفسك أكلت من البيض الدجاج، صحيح أنت لا تعرف أنه «حلال» ولكن هذا ليس ذنبك.

ضحك حسين مقهقهاً،متذكراً الرفض الصارم للأستاذ ياقوت، لمحاولاته المشاركة المالية معه في وجبات الدجاج. وفهم ياقوت سر ضحكه وهو يضرب علي كتفه وقال:

- حتي لا تكون سرقة مضاعفة يا صديقي، وفوق ذلك فإن راتبك الشهري لا يكفي دوام المشاركة.

هز محيي الدين رأسه كعادته وقال وقد أغمض عين وفتح الأخري:

- طبعا هناك تفاصيل في أشياء أخري أكثر خزياً لن أذكرها مهما فعلت معي، وسأكذب عليك اذا الحت في ذلك فالكذب في هذه الحالة أهون بكثير من الفضائح بين خلق الله . وأشار بيده نحوهما: ولكن إذا صممت علي ذلك فسأعمل كتاب لهذه الإنجازات وأهدي اليك نسخة منه، فليس من المعقول أن تأكل الدجاج بالمجان وتشتري الكلام عن الدجاج!!

- قال مبتسماً : وما اسم ذلك الكتاب يا عبقري؟

- هز رأسه قائلاً: هذه مسألة صعبة استغرقت وقتاً طويلاً ولكنني بعد عدة أختيارات رأيت العنوان المناسب، «صعود الأبراج في جلب البيض والدجاج» ما رأيك يا سيدي؟!

وضحك الجميع وكأن الضحك كان موافقة من حسين علي الاستمرار. بعدها قال ياقوت:

- محيي الدين الفيلسوف له آراء رائعة، أرجو أن ترويها لك.

- هز محيي الدين رأسه: في وقت لاحق، فأنا اليوم مشغول، عندي ندوة

أدبية سألقي فيها قصيدة عصماء، أي والله عصماء!

*****

بعد إنصراف محيي الدين نظر حسين الي صديقه ياقوت نظرة ذات معني قائلا:

- أليست الدروس الخصوصية أشرف من البيض والدجاج المسروق؟!

- ضحك طويلا وقال: ليست المسألة هكذا، وقد فكرت في ذلك، وكلما قررت الإبتعاد عنه وأفعاله المجنونة أجدني أبحث عنه، فهو صديق رائع وإنسان بمعني الكلمة، والحكاية كلها مداعبات ولكن محيي الدين أطال في مداعباته وأكثر.

- ضحك حسين ساخراً: ياعزيزى كلنا زواقيل، يبدو إن مهنة الزاقولى أقدم مهنة فى التاريخ منذ سرق والدنا العزيز آدم من الشجرة المحرمة وطرده الله من الجنة الى صحراء الدنيا- على رأى محى الدين.

ثم شرد الخيال بحسين حتي ذهب الي القرية وتحديداً الشيخ فؤاد وكلماته الرائعة: الحب يفعل ما لا يفعله السحر، يجعلك لا تنام الليل لتجد متعتك في السجود لخالقك، أو تسلك المهالك من أجل محبوبتك، فالحب يجعل البخيل كريما سخياً، ويجعل الجبان شجاعاً، بل ويجعلك تري رذائل ومساويء حبيبك فضائل ومزايا، وتري قبحه حسناً، فالقبح والحب لا يجتمعان مهما كان الحبيب قبيحاً فالمحب يراه مثال الجمال والروعة.

تذكر ضحكة الشيخ فؤاد التي تميزه وهو يرفع رأسه الي أعلي مغمض العينين ثم يقول بنفس طويل: الله. هل تصدق أنني كنت أسرق القطن والأرز والذرة مع صديق لي يرحمه الله وتجاوز عن سيئاته، رغم كراهتي للسرقة إلا أنني كنت أحبه وأحب كلامه ولمحاته الذكية وفقره المدقع الذي كان يواجهه بروح غريبة، أحكي لك عن بعض نوادر فقره المدقع، والذي ظل ملاصقا له حتي قابل رب كريم.

- كان كل ما في بيته المكون من غرفة واحدة نصف رغيف عيش، وما يكفي لعمل كوب واحد من الشاي، وقد وضع براد الشاي علي الموقد وبجواره نصف رغيف العيش وبجوارهما نصف أوقية «الدخان اللف» يحمصها حتي تزول منها الرطوبة. وكان يربي في الغرفة أفراخ صغيرة تروح وتجيء كما يحلو لها، وإذا بأحد هذه الأفراخ يقفز ضاربا براد الشاي لينسكب علي نصف رغيف العيش والدخان ، ففسد كل شىء. وفكر صاحبي كيف ينتقم من هذا الفرخ الذي أضاع كل شيء وعكر مزاجه، وأتى بالورقة التي كان فيها الدخان ثم ثقبها وأدخلها في رقبة الفرخ الصغير، فكان كلما نظر الي الشمال واليمين فلا يري جسمه، ويرى الورقة ببصره الصغير وكأنها حائط منيع، فيصاب بالهلع ويجري وسط الأفراخ وكأنه سيارة مدرعة، فتخاف منه وتصاب بالفزع، وصاحبي يضحك بقوة ضارباً كفاً بكف ويكلمه، قائلاً: عكرت مزاجي، وهذه هي النتيجة! وهكذا كانت حياته فقر شديد وضحك وسخرية من هذا الفقر أشد.

- تمتم حسين ضاحكاً: «زواقيل» أيضاً ياشيخ فؤاد؟! ثم قص الحكاية لياقوت.

*****

اتسعت حكاية سماسم مع الأسطي عويس وكثرت رواياتها كل حسب هواه ورغباته، وضاق الأخ شاكر بالأسئلة التي فقد أصحابها الحياء، حين كانوا يطلبون منه أن يروى لهم بكل دقة تفاصيل ما رآه. ضحك بعض الشباب قائلا:

- حظك عظيم يا أخ شاكر، رأيت الفيلم الثقافي منذ اللقطة الأولي وفي عرض خاص جداً.

وأحيت مهزلة سماسم حكايات قديمة، ربما مات أصحابها منذ سنوات طوال، وجعلت الألسنة تلوك أعراضاً ما كان ليذكرها أحد بسوء ، لولاما

حدث . ذات صباح كان شاكر يخطو الي المسجد ليصلي نافلة الضحي، هتف أحد الشباب يمازحه:

- إنتبه جيداً يا أخ شاكر ربما وجدت سماسم أخري وعويس آخر. وقف شاكر علي باب المسجد والغضب يرسم علامته في وجهه، ثم عبث بلحيته الكثة واتسعت حدقتا عيناه وقال غاضبا:

- رجل كافر، وإمرأة كافرة، وحارة كافرة تري الكفر ولا تتحرك بل يضحك من فيها، ويقولون كلاما خبيثاً «فيلم ثقافي»، نعم فيلم ثقافي مثل الأفلام التي يعرضها عليهم صباح مساء الكفرة في أجهزة الإعلام!

ثم زفر بضيق شديد ورفع وجهه الي السماء داعياً:

- اللهم طهرنا من هذا المجتمع الكافر والحكومة الكافرة التي تنشر الكفر بين الناس حتي فسدت الأرض. إقترب منه «حمامة» المخبر السري لأجهزة الأمن بالمنطقة، وقال وكأنه معاتباً ولكن يحمل صوته نبرة تهديد ما:

- الحكومة ليست كافرة يا أخ شاكر، وما تقوله عيب كبير!

- وهل يرضي الله ما رأيت يا رجل الحكومة- وسكت لحظة وأكمل متهكماً- السرى؟!

- قلت لك الحكومة ليست كافرة، واذا لم تعجبك بلدنا فلترحل الي بلد آخر.

- إذهب الي عملك يا حمامة ولا داعي للإستفزاز.

- أنت عملي اليوم يا أخ شاكر، ثم ما حدث شيء عادي يحدث كل ساعة وفي كل بلاد الدنيا، وربنا غفور رحيم، أم لك رأي آخر في رحمة ربنا؟! تكلم ربما كان هناك شيء آخر تعرفه أنت وإخوانك أصحاب الجلاليب القصيرة والذقون الطويله؟!

- لن أرد عليك، وسأعذرك لجهلك. - إستشاط «حمامة المخبر» غيظا وقال: أنا جاهل يا عاطل، يا أجهل من الدابة؟! ورحمة أمي لأجعلك تكره اليوم الذي ولدت فيه. إحمر وجه شاكر غيظاً وفجأة إنقض علي عنق حمامة

المخبر ولف حوله أصابعه وضغط عليه بشدة وهو يقول:

- أنا يا كافر، يا ابن الكافر؟

وكادت روح حمامة المخبر تفارقه لولا تدخل أهل الحارة وبصعوبة بالغة باعدوا بينهما، وكان للقوة البدنية التي يتمتع بها شاكر التأثير الكبير في حالة الإرهاق الشديد الذي عاني منه حمامة وظل لوقت طويل يشكو منه بعد أن أخذه بعض الشاب الي المقهي المجاور. بعضهم يصب اللعنات علي شاكر ورفاقه وبعضهم يستميل حمامة المخبر حتي ينسي ما حدث ويتعهدون له بحمل شاكر علي الأعتذار له حتي يرضي. ولكن حمامة كان بين اللحظة والأخري يتوعد بشر مستطير لشاكر، ومن يتضامن معه مبررا ذلك بأن إهانة رجل الحكومة هو إهانة للحكومة ورأس الحكم. وكانت أصوات النسوة وصرخاتهن قد تعالت حين انقض شاكر علي رقبة المخبر حمامة، وجعلن يزعقن:

- يا سنة سوده الأخ شاكر، قتل حمامة المخبر.

*****

في المساء إزدحمت الحارة بسيارات الأمن في مشهد لم تعرفه قبل ذلك، صعد الرجال المدججين بالسلاح وسط صرخات النسوة وحالة الفزع التي إنتشرت في الحارة بصورة هستيرية، الي مسكن عائلة شاكر بعثروا كل ما يقابلهم من أشياء، حطموا أشياء أخري، هددوا منذ اللحظة الأولي بإعتقال الأخت والأم والأب اذا إختفي شاكر! لحظات وكانت القيود الحديدية تكبل معصميه، والجنود يقودونه الي أحد سياراتهم، رفع أحدهم جهاز لاسلكي، كان بيده وقال بشموخ-عجب له كل من سمعوه-:

- نفذنا المهمة يا فندم.

*****

مرت الأيام والأسابيع والشهور والسنوات ولم يعد شاكر الي الحارة بل

لحق به الكثير من شبابها، وتغيرت الوجوه رحل الكبار وكبر الصغار وتعاقبت الأحداث والحوادث التي أصابت الحارة في فلذات أكبادها، وجعلت الأحزان تعشش في بيوتها.

فقد إستفحل أمر حمامة وجعل يفرض جبروته وسطوته علي الكبار والصغار، وترك الأهالي لقب حمامة المخبر إلا فيما بينهم وكانوا ينادونه «حمامة باشا» حتي يرضي عنهم.. بل جعل بعض الشباب عيون له يرقبون ويسمعون من يتحدثون عنه ويخبرونه بذلك، أكثر من ذلك جعلوا من الفتن والأكاذيب رسائل اليه حتي لا يوبخهم اذا لم يأتوه بجديد. وقد جن جنونه حين اكتشف مخططاً لقتله أعده بعض الشباب ممن كان حمامة سبباً في إعتقال إخوتهم أو أصدقائهم، دون ذنب أو سلوك معيب، اللهم إلا رفضهم الإنصياع لرغبات حمامة وأوامره، وكان يلذ له الحديث الماجن مع سماسم دون مراعاة لمشاعر الأهالي، حتى اصبح حمامة وسماسم رمزاً للشر والمجون في الحارة. - يرجو الناس فيما بينهم دون البوح بذلك - بأن يرفع الله عنهم هذا البلاء.

*****

١٣

حكايات من عم عبده

في شبه سرية، تم الإتفاق بين محيي الدين وياقوت على البحث عن مسكن بسيط بمنطقة السيدة زينب للصديق الجديد حسين، حتى تكون اللقاءات أكثر وفي أي وقت يحلو لهم. ووافق حسين مرغماً رغم حزنه الشديد لفراق جوارالإمام الحسين والحرمان من الصلاة فيه خاصة صلاة الفجر، وما فيها من سحر وروعة «الفجر الحسيني» كما كان يسميه.

ولكن كان جوار السيدة زينب عوضاً مقبولاً، وذلك ما جعل حسين يرغم نفسه على قبول العرض الجديد، إلا أنه قد ضحك مما يدور في نفسه ساخراً:

- تقول حزين لفراق الحسين وكأنك لم تفارقه عدة مرات لتقيم في أحضان زوجاتك؟! حتى الفت نفسك هذا العالم الجديد الغريب! عام في فراش هذه، وأشهر في فراش أخرى وهكذا، حتى سرقن شبابك دون ولد أو زواج تفخر به، أو حتى تشكو منه، كما يفعل الخلائق!

وفي ثورة عارمة علي النفس، قرر حسين الإقلاع تماماً عن عادة الزواج العرفي حتى لو توفرت أسبابه ووجاهته!

والحقيقة المضحكة أنه ثار علي نفسه، مثل تلك الثورة عدة مرات ولكن ما أن تمر عدة أسابيع حتى يجد نفسه مشوقاً لحضن امرأة! وحتى لا يقع في الخطيئة كان يماحك عم عبده كاتب الفندق الشعبى الذي يقيم فيه قبالة أحد ابواب مسجد الحسين، فيفهم الرجل الخبير ما يعتمل في صدره، ويلبي طلبه بعد يومين أو ثلاث علي الأكثر.

وكان الرجل الماكر يملي شروطه كلما كانت اللهفة أشد، وشروطه كلها

تنصب في زيادة ما يحصل عليه من أموال، أو أن يرضي بما سيقدمها له، فهي التي ستدفع جميع الأتعاب.

وظل حسين هكذا، بين ثورة ونكسة حتى كانت الثورة الكبرى، والتي كانت سبباً جوهرياً في هجرة الفندق الشعبى رخيص الأجرة الذي يقيم فيه إلي المسكن الجديد، بعد الحادث الغريب للزوجة الأخيرة والذي فكك مفاصله، ومزق أعصابه، وشتت نفسه لمدة طويلة.

كانت- رحمها الله- سيدة بدينة بعض الشيء، تميل إلي السمرة ورغم كونها غادرت الخمسين من العمر، إلا أنها تعشق المعاشرة الزوجية عشقاً غريباً!! ولها فيه فنون وفنون لم يرها مع غيرها ولم يسمع عنها فكانت ترقص وتغني وتدخن وتقهقه وتبذل مجهوداً أشفق هو عليها منه، إلا أنها كانت تقول:

- لا يموت الإنسان إلا إذا حان أجله، لنفرح بالحياة فمن يدري ماذا ينتظرنا بعدها!

حتى حدثت الفاجعة، تصبب عرقها وتوقف قلبها المشتعل فجأة، خمدت أنفاسها المتلاحقة، ووقف معهما شعر رأسه، ثم غزاه الشيب!

*****

استقر المقام بالمسكن الجديد ودارت الأيام فكان بين الحين والآخر يفتح صندوق الذكريات وكلمات عم عبده وحركاته واستسلامه له، عم عبده الذي رأي علي يديه ما لم يشطح به خياله يوماً ما، تلك الأحداث التي لو تنبأ بها عراف لكذبه دون أدنى تفكير.

كلمات عم عبده ورأيه في الناس إذا ضاق بهم قائلاً:

- مجموعة من البهائم، لو خلقهم الله أغناماً لكان أفضل، وأصبح لهم فائدة أكثر من تلك الجلافة والسماجة.

ويجد نفسه مرغماً علي الضحك وهو يتخيل عم عبده يحاكي حركات

بعض من كان يسميهم «الأجلاف»، أو طريقة ضحكاتهم الفجة فتبدو بقايا أسنانه قطعاً سوداءً صغيرة. ثم يتنهد قائلاً:

- رحمك الله يا عم عبده، كنت فيلسوفاً وحكيماً في سخريتك من الناس وابتزازهم وإخراج ما يبخلون به في يسر ولين وكأنك ساحر عجيب!

*****

أجمل ما يحمل حسين من ذكريات هو يوم الجمعة، فكان كثيراً ما يحضر حلقات الذكر عقب الصلاة خاصة حلقة الحاج عبد اللطيف، وأحياناً كان يذهب مع المريدين والمحبين ورجال الشيخ إلي الحضرة الدينية في المسجد الزينبى بعد الحسين ثم إلي مسجد الحاج في مقابر الدراسة، وقد بناه في مسارات أحد شوارع المقابر بالمخالفة لنظامها بعد أن وافق له علي ذلك أحد كبار المسئولين من محبي الشيخ، ولكن لحساسية منصبه كان يذهب للشيخ في منزله بعيداً عن حلقات الذكر وعيون الدراويش، حتى لا يكثر الكلام وتروج الشائعات ضده خاصة من الأحزاب المعارضة وشباب المثقفين والذى كان يسميهم «العيال الملحدين الكفرة»، وشباب الجماعات الإسلامية المتشددة، وكلاهما يرون التصوف والصوفية نوعاً من البدع والتخلف .

ترك حسين الفندق، وفيه ترك «قابيل» الطيب الكاتب الجديد الذي كانت طيبته وبساطته سبباً في موته، فقد تربص به مجموعة من الأشقياء العاطلين بالمنطقة وما أكثرهم، وما أكثر ما يفعلون من جرائم فسرقوا حصيلة الفندق ثم توالت بعدها المصائب.

والسرقة في ساحة المسجد وحوله تهون، إذا ما علمنا أن هناك شباب تخصصوا في سرقة أحذية المصلين، وبخاصة الغرباء والذين ما أن يدخلوا إلي المسجد الحسيني، حتى يأخذهم الحنين والشوق لزيارة ضريح الإمام. ويرون أنه من العيب الدخول إلي الإمام، وفي أيديهم أحذيتهم فيتركونها

بالخارج، وإذا بالشباب العاطل يسرقون كل حذاء يمكن أن يباع.

*****

جاءه الشبان العاطلون ذات ليلة- وكانوا قد تعرفوا عليه فيما قبل - يحملون بعض المأكولات والعصائر وفي بعضها دسوا شيئاً مخدراً، ما أن تناولها قابيل حتى نام في مكانه. فأخذوا مفتاح مكتب الإدارة من يده، وكان به خزينة الإيراد اليومي، ثم ذهبوا.

ظل قابيل في قسم شرطة الجمالية أربعة أيام حتى يدل علي اللصوص، أو يقول هو أين ذهب بالنقود؟! وكانت القسوة أكثر مما يحتمل حين طرده أصحاب الفندق رغم تنازلهم عن البلاغ تقديراً لأمانته وحسن أخلاقة، ولكنه ما عاد يصلح لمهنة كهذه.

تدهورت صحة قابيل، ولفظ آخر أنفاسه في غرفته الفقيرة العشوائية في جبل منشأة ناصر بمنطقة الدويقة. وتطوع أهل الخير لتوصيل زوجته وابنته الرضيعة إلي بلدها في الصعيد.

هتف حسين في نفسه حزيناً:

- رحمك الله يا قابيل، ثم تساءل: هل تتطلب الحياة من الإنسان أن يتحول إلي ذئب حتى يستطيع العيش؟! شيء فظيع أن يسيطر الشر ويسود ويسحق تحت قدميه الإنسان،الإنسان !ملعونة البطالة والسفالة.

*****

عادت سيرة عم عبده بقوة عندما حدث ما حدث لقابيل من سرقة نقود الفندق، ووصفوه بأنه رجل ثعلب ماكر لا يمكن التلاعب به أبداً، فلم يحدث له طيلة خمسين عاماً قضاها في تلك المهنة بالفندق مثل ما حدث مع قابيل. وكان يمكن أن يكون مثالاً للحزم والذكاء والأمانة الصدق لولا ما حدث قبل رحيله بأيام، وموته مداناً في دورة المياه بقسم شرطة الجمالية،

فلم يمهله القدر ليكمل إرتداء لباسه فسقط علي وجهه فوق الكنيف القذر فتقذر جسمه وملبسه.

- هتف حسين في نفسه: ذكريات حفرت علامات عميقة في نفسك يا سيد حسين لا يمكن نسيانها، ما دمت حياً حتى لو حاولت طردها من ذاكرتك، وما الإنسان إلا ذكريات وذكرى.

كان عم عبده أحد أبطال هذه الذكريات، بل هو السبب في أولى حلقاتها، الطريف هو أنني عندما سألته فيما بعد عن اهتمامه بي وتوريطي في أكثر من زيجة غريبة الأطوار، قال بعد أن ضحك طويلاً: حبي لك!

وإن كان الكذب يطل من عينيه ولكن لابد وأن أصدقه أو حتى لا أكذبه، فالحديث عن الحب يجعل الإنسان ضعيفاً أمام من يقول له: أنني أحبك حتى لو كان كاذباً.

- قلت له: أريد تفاصيل أكثر يا عم عبده...

- ضحك مرة أخرى وقال: ماذا تريد بالضبط؟! واتبع ذلك بنظرة ماكرة لمعت لها عيناه.

- قلت له: أنت تعرف أنني أحب حديثك وتعجبني مسامراتك وآرائك في الناس والدنيا، فإنك خبرة طويلة.

فضرب علي يدي قائلاً:

- وهل الخبرة الطويلة تؤخذ هكذا بالمجان؟!

- تكلم يا رجل ولا تحيرني.

- رأيتك وكأنك مقطوعاً من شجرة، لا يسأل عنك أحد ولا تسأل عن أحد، فقلت في نفسي لابد وأن أكون سبباً في أن يسأل عنك أحد وتسأل عنه، ويكون لي الأجر والثواب عند الله.

ابتسم قائلاً: هذا هو كل شيء. وظننتك مثل عمك عبده يعرف الأسرار دون أن يسأل ويعرف الناس من عيونهم وملامحهم، ووالله ياا بني ما خاب

حدثي أبداً طوال عمري!

- هذه موهبة يا عم عبده.

- بلا شك، وأحمد الله علي ذلك، ولكنني بصدق أحبك جداً، لماذا؟! لا أدري، ولو عاملتك مثل ما أعامل به الناس لجعلتك تترك الفندق، فأنت لا تدفع أكثر من الإيجار، ولكني وجدتك هادئ لا مشاكل ولا عين زائغة.

ثم فجّر عم عبده قنبلة أسراره حين أخبر حسين أنه تزوج عشر مرات زواجاً عرفياً دون أن تدري زوجته، فأخذت حسين الدهشة لحظات ثم انفجر في الضحك حتى دمعت عيناه، وإذا به ينفجر هو الآخر في الضحك ثم يقول وهو يحرك حاجبيه:

- هذا هو عمك عبده!

وكان من مواهب عم عبده خفة الدم والقبول، ففي تضاريس وجهه وطريقة كلامه شيء ما يجعلك تحب حديثه. وكان كثير الكذب حتى أصبح الكذب طبعاً فيه، وقد أتاح له خياله الخصب ذلك ،حتى أنه كان يصدق نفسه أحياناً .

- قال له حسين ذات يوم: أخشى عليك الموت يا عم عبده وأنت تؤلف أكاذيبك!

فاتسعت عيناه وحذره غاضباً أن يقول مثل هذا الكلام أمام الناس، ثم ضحك قائلاً:

- خذ نصيحتي فإنك مازلت عيل: الله سبحانه وتعالي اسمه أرحم الراحمين، يعني لا تضيقها فيضيقها عليك، المهم أن تكون أميناً ولا تسرق لأن الرسول عليه الصلاة والسلام، يقول: المؤمن لا يسرق.

- يا عم عبده الحديث الشريف يقول: المؤمن لا يكذب.

- يا حبيبي المؤمن لا يسرق، لا يكذب هذه غلط، وهل كان أبوك مفتي الديار حتى تكذبني؟!... أنا أكبر منك وأعرف أكثر منك، يكفيني جوار مولانا

العمر كله، والله لولا حبي لك لآخذتك بما تقول.

*****

ذات يوم وبعد عودة حسين من المدرسة وجد فتاة تخطو نحو العشرين من عمرها، ذات جمال مقبول في حوار ضاحك مع عم عبده، تراقبهما زوجته الجالسة علي كنبة في مدخل الفندق في سرور بالغ، وربما شاركت في بعض كلماتها. وما أن خطت قدمه عتبة الفندق، حتى غمز إليها عم عبده وهو ينظر نحوه ، وقال مرحباً:

- أهلاً، أهلاً حبيب القلب.

ثم قدمه إليها وقدمها إليه قائلاً:

- «قمر» أليس كذلك؟

فابتسم موافقاً، فواصل كلامه:

- إبنة أختي، يعني أنا شخصياً خالها، ما رأيك؟!

- عظيم...

- أي عظيم يا أستاذ؟! ما رأيك في القمر؟!

ما كان من حسين إلا أن أمتدحها ثم استأذنهما وصعد إلي غرفته بالفندق، بعد دقائق سمع طرقات علي باب الغرفة وإذا بعم عبده.

- خيراً يا عم عبده؟!

- كل الخير إن شاء الله، ثم رفع يديه إلي السماء داعياً: اللهم أجعل له نصيباً في هذا الخير.

- أي خير تقصد؟!

- ما رأيك في «القمر» الذي رأيته معي؟!

ولم ينتظر الرد وقال:

- تتزوجها؟ لا تقل لا؟! البنت أدب وجمال ومال وحسب ونسب!

- أنت تعرف أن ظروفي لا تسمح.

- تسمح إن شاء الله، البنت لا ينقصها شيء، ولن تنفق عليها مليماً واحداً ويمكنك إدخار راتبك الشهري في دفتر توفير، أو ترسله إلي أهلك إذا كانوا ولا مؤاخذه، يحتاجونه.

- وكيف تقبل هى وأهلها مثل هذا الوضع؟!

- مسكينة زوجها مات بعد شهور من زواجها، وهي كما تري قطعة ملبن، لو أحبك الله يجعل لك فيها نصيباً تزوجها عرفياً ولن تخسر شيئاً، مجرد ورقة وأنا الذي سأكتبها يا سيدي.

- ولكن يا عم عبده.

- لا لكن ولا عم عبده، توكل علي الله ثق بي، هل تعجبك حياتك بهذه الصورة؟! ستعود من عملك تجد الطعام والشراب وملابسك نظيفة، وفوق ذلك كله البنت مهرة تقولك أركب يا فارس.

وظل الرجل فى حديث الغواية، حتى انتزع منه الموافقة علي الزواج منها عرفياً!.. وانتقل حسين إلي بيت الزوجية سعيداً بتلك الزيجة التي لن ترهقه مادياً، وكانت كما قال عم عبده ترفض كل من تقدموا لخطبتها حتى فوجئت به في الفندق فانقلب حالها وطلبت من خالها أن يحدثه في ذلك، ورغم الكذب الواضح في تلك الكلمة بالذات، صدقه- كالعادة- وقال في نفسه: فلأجرب طالما كانت التجربة في الإمكان.

*****

بعد ستة أشهر وجده عم عبده أمام مكتبة، في مدخل الفندق وفي يده حقيبة ملابسه. وما أن رآه حتى نهض من مكانه مرحباً أهلاً أهلاً، ثم نظر إلي الحقيبة وإلي الغضب في وجهه فعرف كل شيء، وقال:

- قل لي بربك يا أستاذ أليست تجربة رائعة.

- ماذا أفعل بك؟! لو لم تكن رجلاً كبير السن، لكان لي معك شأن آخر.

فضحك كعادته حتى بدت بقاياً أسنانه، وقال:

- إذا كان هذا الغضب حقيقي فلماذا لبدت في حضنها شهوراً ، وليس أسابيع أو أيام والأمر في يدك أنت؟! أكنت أكذب عليك وأنا أقول لك أنها قطعة ملبن؟!

نظر حسين نحوه ولم يتكلم، فقال له وهو يبتسم ويربت علي صدره بحنان محاولاً امتصاص الموقف: الحمد لله لم أكذب عليك وهاهي عيناك تؤكد صدقي إنها قطعة ملبن.

- يا عم عبده حرام عليك ما تفعله بالناس!

- دعك من هذا الآن، يجب أن تنسي ما فات، النسيان اختراع عظيم، أليس كذلك؟!

ثم لمعت عيناه وابتسم قائلاً :

- سأعوضك في المرة القادمة تعويضاً لن تنساه، وستقول فعلاً عم عبده يريد لي الخير.

- زواج مرة أخرى؟!

- هذه المرة لن أكذب عليك في أي شيء وستري!

*****

وكان عم عبده أقسم لأسرتها أغلظ الأيمان بأن حسين هول الحل السحري لفقرهم، وأنه من أسرة ثرية ولكن تواضعه الشديد جعله يقيم في هذا الفندق البسيط، فهو يحب الفقراء والبسطاء ويعتبرهم أهله، وفوق هذا وذاك فإن راتبه كبير وما يأتيه من الدروس الخصوصية أكبر.

أكثر من ذلك إن عم عبده لا يمت لها بصلة قرابة من بعيد أو قريب ولكنها مجرد معرفة من ناحية زوجها السابق. وعندما عاتبه حسين فى ذلك ضحك قائلاً:

- يا رجل لم أكذب عليك ، كلنا أقرباء وأخوة ألسنا أولاد آدم وحواء؟!

وكانت صدمة نفسية كبيرة عندما علم حسين أن زوجها السابق يقضي

عقوبة السجن المؤبد بعد أن ضبط متلبساً بالاتجار في المخدرات، وأنه كان صديقاً لعم عبده.

*****

قال له غاضباً:

- لا تحدثني في مثل هذه الأمور مرة أخرى! وهمس فى نفسه: يصف الناس أنهم زاوقيل وهو شيخهم وزاقولهم الأكبر، المشكلة هى أننا جميعاً زاوقيل ولكن لكل منا حكايته الخاصة، والأدهى أننا لانتهم أنفسنا ولا نعترف بأخطائنا، وحتى لو إعترفنا لانتوب عنها مادمنا فى مأمن من سيف القانون .

مرت عدة أسابيع ولم يحدثه عم عبده عن زيجة جديدة، وكان يتمنى أن يفعل فقد عصفت به رغبة جامحة بالزواج بأية طريقة، وانتظر أن يتحدث الرجل لكنه التزم الصمت.

حاول حسين الحديث معه في ذلك بطريقة فيها مواربة، ولكنه كان يتحاشى الحديث في ذلك بصورة أغاظته منه، فتكلم معه بوضوح تام، فضحك الرجل بصورة لم يعهدها فيه حتى دمعت عيناه الماكرتان، وقال:

- كنت أعلم أنك لن تستطيع الصبر وستتكلم، فالجوع كافر!

دهش حسين لكلام وسأله:

- أي جوع يا رجل؟! بل أنا الذي كنت أنفق عليهم كل ما معي، واستدنت من أجلهم حتى كثرت ديوني فتركتهم مرغماً.

ضحك مرة أخرى وقال:

- مازلت طفلاً يا أستاذ، لا أقصد ما دار في رأسك، من ذاق الطعام عرف حلاوته.

ففهم حسين ما يرمي إيه. ثم نظر بخبث شديد قائلاً:

- ما رأيك يا أستاذ؟!

- والله طعامك مر، يا رجل يا غريب، ولكننى أحبك!

- ستسعد هذه المرة أكثر، فقط اسمع ما أقول جيداً وسترى الخير كله.

ثم صمت قليلاً وقال:

- ولكن هذه المرة إن شاء الله ، ستكون هديتى واجبة عليك أنت أيضاً.

وهكذا ظلت الحياة مع عم عبده مجموعة من المغامرات اللذيذة:

- هذه المرة زوجة سمراء اللون ياأستاذ هل تريد أن تموت دون أن تعرف طعم الأنثى السمراء التى أخذت سخونتها من نار جهنم ؟!

- وأخرى يقول: جرب هذه المرة، إنها كبيرة السن بعض الشيء، لكنها مكتنزة اللحم والشحم، جرب يا أستاذ إنها ستفعل المستحيل لإسعادك.

وكان–رحمه الله- في كل مرة يضحك قائلاً:

- والله، والله، أنت شاب طيب ومحظوظ وإلا ما جاء بك القدر إلي عمك عبده لتري السعادة علي يديه، وبعد أن أموت ستذكر هذا وتشتاق لأيامي، وخدماتي لك.

وعندما سأله حسين عن تفاصيل حياته ومغامراته، ضحك وهز رأسه قائلاً:

- تاريخ طويل، تستطيع القول بأنني صندوق الدنيا الذي يقولون عنه، ولكن الحمد لله والشكر لله، تمتعت بها جداً. ـ قالها وهو يمسح على صدره بثقة مفرطة- فنظر إليه حسين نظرة ذات معنى، فقال مشيراً بيده:

- كله حلال، والله العظيم حلال في حلال، كما كنت أفعل معك فى زيجاتك.

*****

١٤

محيى الدين شاعر الشيطان

كان محيي الدين يطلق علي الندوات الأدبية اسم «جلسات الدخان والقهوة»، ويرى أنها مجرد ثرثرة لا طائل منها ولا فائدة فيها! وكان يتسأل:

- من يسمع كلمات النقد للإخوة المبدعين نحو إبداع إخوانهم، وما يتشدقون به من كلمات رنانة مثل الحداثة وما بعد الحداثة، الومضة، درجات الدراما في النص، طرح الرؤية، الضوء والدلالات، الإغراق الداخلي والخارجي، زاوية الإلتقاط، الإحساس بالشخوص والمواقف، وغيرها وغيرها مجهزين علي النص الأدبي، حتي يبدو وكأنه كلاماً فارغاً لا قيمة له. من يسمع هؤلاء لا يشك لحظة في أنهم سيقولون كلاماً رائعاً مغايراً لما قيل، فإذا هم يقدمون نصوصاً ربما أقل جودة مما قيل، شيء غريب حقاً..! وحقاً هي جلسات الدخان والقهوة!

*****

ما أن جلس محيي الدين في الندوة الأدبية، حتي وجد من يستنشدونه قصيدته الرائعة- علي حد قولهم- «من مذكرات أبليس»، التي فازت بجائزة أحسن قصيدة في المسابقة الكبري، فما كان منه إلا الإنصياع لتلك الرغبة، التي جعلت تتنامي بين الحاضرين، حتي أجمعوا علي طلبها، فأنشدهم إياها، رغم أنها المرة الرابعة التي يستنشدونه تلك القصيدة، مما أثار دهشته وجعل يؤكد لنفسه بأن هناك سراً يغيب عنه.

فأغلب من يطالبونه بذلك ليسوا بهذا الوفاء للشعر والفن بوجه عام، بل أكثرهم حاقدون على كل شيء يجعلون من الغيبة والنميمة مجالساً لسمرهم التي لا تحلو إلا بتشويه كل جميل، غير ذلك فهو لا يري القصيدة

بهذه الروعة التي قوبلت بها، وتلك الحفاوة التي جعلت المحكمين يمنحوها الجائزة الكبري! وكان يضحك في نفسه هازئاً ويقول:

- ما كل هذا التعاطف مع الشيطان ؟! كثر محبوك في البلاد يا أبليس باشا، فهنيئاً لك.

وكان يطلق علي الجائزة اسم «جائزة أبليس»، وأحياناً يقول ساخراً:

- يجب عليَّ أن أشكر الشيطان، لأنه كان سبباً في شهرتي وإحترام النقاد والأدباء وأجهزة الإعلام لشخصي المحترم. ثم يطلق ضحكته العالية قائلاً:

- يجب علي الآن أن أكتب قصيدة عن سرقة الدجاج والبيض، أكيد ستأخد شهرة قصيدة إبليس، وربما فاقتها فالناس جياع والنقاد أكثر جوعاً، وربما دلتهم القصيدة الي مفتاح عمل سحري للخروج من قسوة الجوع الي جنة عشش الدجاج!

*****

في مساء اليوم التالي لندوة إبليس- كما اسماها محيي الدين- وبعد تناول وجبة الدجاج، طلب منه حسين أن ينشده تلك القصيدة المعجزة، فهتف محيي الدين هازئاً كعادته:

- إبليس مرة أخري؟! الرحمة يا سادة، هذه القصيدة الملعونة ستجعلني أكره إبليس- أي والله- سأكرهه!

- ثم زاد ضحكه قائلاً: ساعتها سيقرر»الزواقيل النقاد» أنها أسوأ قصيدة كتبتها، وأن ميزان الشعر عندي كسرت كفته، ويجب علي إصلاحه في مصلحة الموازين والتمغة، إيه ما هذا القرف الإبليسي يا بشر؟!.. لتسمعوا القصيدة إذن وأمري الي الله. عنوانها كما علمتم : «من مذكرات إبليس»، وتحت العنوان إعتراف منه، يقول: «وما فعلته عن أمري!»

السفر الأول

صعلوكاً كنت أنفذ أمر الآمر

أرصع تاج المملكة، أغني
أجمع غنوتي العذبة، من نور الوجه الأعلي
وأرش العطر الوردي علي ملكوت
لا أحصاه
وأراقب نور مليكي فرحاً، مسرورً
وفوق رفوف التوحيد أنام
أردد أورادي، عبداً مبهورً، بما تنسجه أيدي القدرة
حولي

*****

نفخ النافخ،فيّ، نار العزة، ذات مساء
توجني ملكاً، طاووساً
أعطاني أن أتكلم في كل الأشياء
بل دون حجاب، كلمني، دون حجاب
صرت عزيز القوم
أناقش كل قضايا الأمن العام
الجنة مملكتي، الخدم، الحشم، الكرش تدلي
الكلمات تطاع
لا احني هذا الرأس الأعظم
إلا للملك الأكبر

*****

ذات مساء، حط الليل علىّ بثقل أهوج
إنغمست في أضلاعي سيوف الظلمة
نعق غراب البين ،خراب

قفز الرعب إلى اوداجي
وتزلزل كرسي المملكة أنينا مراً
دوي صوتي
هل تتظاهر كل رعاياي عليَّ؟!
أني ملك عادل
وقفت كل الأشجار، وكل الأنهار وكل الأطيار تحدق فيَّ
تتساءل ماذا أفعل!
تفحصت وجوه القوم تساءلت: هل شُرِخَ جدارُ الوحدة؟!
أم وقف غناء الطير؟!
أم غاضت كل الأنهار؟!
أم بخلت كل الأشجار أن تعطي ظلاً وثمار
الصمت يسود الأشياء
وكان مساء أعمي
كان مساء
كلمات لا أدري كيف انزلقت من حلقي الي شفتي .
حين فاجأني الآمر
- أيا هذا، أسجد للطين
= لم أسجد يوماً لسواك!
- اسجد للطين
= أتود بأن أسجد للطين، وقد دست عليه بقدميَّ سنين، بل إني خير منه!
أتود بأن أسقط في عين المملكة صريع العزة؟!
من أحكم بعد السجدة؟!
ونظرتُ لآدم، ونظرت عيون المملكة، تراقب سلطانهم الحائر
الأمر يدق صماخى

يتردد في كل الأصداء
اسجد للطين
اسجد للطين
اسجد للطين
وأسودت في عيني الرؤية، ضاقت
دار الرأس ولف ولف ولف
انفجرت في أحشائي نيران العزة
وتساءلت:
لِمَ حين قضيت بذلي ، لم تتركني عبداً الهو، كما كنت؟!
لمَ تجعلني رأس الأمر وأمام رعاياي يكون الذل؟
أعرف أنك أنت القاهر، أنت القادر، أنت وأنت وأنت
ما جال بأفكاري يوما أن أقطف ثمر العصيان
لم تصعد بي، تصعد، تصعد، دون نقاش تلقيني في مزبلة الأشياء؟!
أبصرت سطور الكلمات النورانية ، تصفع عيني الجاحظتين تساؤل
«لا يُسأل عما يفعل»
إنبجست في رأسي نافورة حيرة
وعيون المملكة تراقب سلطانهم الحائر
وفي أعلي عليين زعقت:
لن أحني الرأس لغيرك
لن أسجد للطين، لن أسجد أبداً
ولتنزع عني – إن شئت – الأشياءَ وكل السلطة
أن ابقي سلطاناً للعصيان ، خيراً من أن أغدو سلطاناً للذل الأدني
*****

السفر الثاني
طريداً، مذموماً وشريداً، أصبحت
أعرف أني لم أعص القدرة
وان كنت عصيت الأمر
قَدَرُ، ُقدِّر من قبلِ القبل
لم أكن الناطق بالعصيان الأعمي حين نطقت
أعلم كل العلم
لم الناطق بالعصيان الأعمي حين نطقت
ساخت أقدامي في مر المحنة
وأخذت عدوي هذا الآدم
هذا المصلوب علي جدران القدر النافذ، مثلي
لكن من سأنفث فيه الطعنة؟!
مسكين مثلى، لكن ليس سواه أمامي

*****

وحيداً أعدو في فلوات وسهوب
من يمنحني حق لجوء وإقامة
أتسكع خلف الأسوار
كانت مملكتي يوماً
الملك المخلوع لا حق له في العودة
تري ما يفعل هذا الآدم في مملكتي؟!
كيف يدير شئون الدولة؟!
فلأ تلصص
أو أتنكر، أو أنحل بخاراً أو حتي ريح
لابد وأن يخرج من مملكتي

*****

ودخلت اليه
- من هذى يا آدم؟!
تلك الفرعاء، الهيفاء، اللفاء؟!
ذات العينين الصاعقتين حنيناً وجمالا؟!
يبدو من مشهدها أنها شيء ممتع !
= الم يطردك القهار الي الفلوات؟!
- دع عنك حديث الطرد
أنك رجل طيب، من هذى قل لي؟!
= وما شأنك؟! هذي زوجي حواء، خلقت من ضلعي الأيسر
تؤنس وحدتي بهذى المملكة العصماء، وتطيع كلامي
أقرأ في عينيها الأحلام، ومآرب أخري
*****
ودللت الحلوة كي تأكل من شجر الخلد
(وعصى آدم ربه)، وأطاع الأنثي!!
وخرجنا يبحث كل منا عن مأواه
وظننت بأني كنت البطل الأسطوري
لكني أبصرت بعين الحكمة
فوجدت علامات تثقب عينيَّ الجاحظتين
«هذى أقدار الله «، وما نحن غير أواني التفيذ القدري
وتراودني الأحلام
أن أفعل شيئاً وحدي
لكني في قمة نشوتي الرعناء
ادرك أن القادر، يصفعني درساً آخر مرا
وما كنت لأفعل عن أمري!

هامش: سأظل سجينا لأحلامي، من منا حقق أحلامه؟!

إمضاء، إبليس

*****

ضحك ياقوت ضحكة طويلة قائلاً:

- ماذا سيكون موقفك أمام الله عندما يعلن إبليس براءته من تلك المذكرات؟!

- هز محيي الدين رأسه وقال: سأقول إنك أنت صاحبها وليس أنا، ها، ها، ها.

أخذت الدهشة بعقل حسين من كلمات محيي الدين وكاد يسأله:

- كيف جال بأفكارك مثل هذا الكلام؟! ولكنه صمت قليلاً ثم سأله: هل قرأت «طواسين الحلاج»؟!

- هز رأسه قائلاً : للأسف الشديد سمعت عنها فقط .

- إبتسم حسين قائلاً: لقد قال يا سيدي دفاعاً عن إبليس ما لا يستطيع إبليس نفسه أن يقوله أو يفلسف به حاله، ليخرج مما أوقع نفسه فيه بحماقة شديدة!

- ضحك محى الدين قائلاً: أسمِعني يا حسين ماذا كتب شهيد التصوف عن طريد المعصية يرحمك الله.

- فقال حسين: قرأت في طواسين الحلاج ـ ويقال إن الطواسين تعني الآيات- قال الحلاج :

التقي موسي- عليه السلام- وإبليس علي عقبة الطور، فقال:

- «يا إبليس ما منعك من السجود؟

- فقال: منعي الدعوي بمعبود واحد.، ولو سجدت لآدم لكنت مثلك، فإنك نوديت مرة واحدة «انظر الي الجبل» فنظرت. ونوديت الف مرة:

أسجد، أسجد، فما سجدت لدعواي بمعناي.

- فقال له: لا جرم، قد غيرت صورتك!

- قال: يا موسي ذا تلبس وهذا تلبيس والحال لا معول عليه، لأنه يحول لكن المعرفة صحيحة كما كانت،ما تغيرت وإن كان الشخص قد تغير.

- فقال موسي: الآن تذكره؟!

- قال «يا موسي الذكر، لا يذكر، أنا مذكور وهو مذكور، خدمتي الآن أصفي، ووقتي أخلي،. وذكري أحلي، لأني كنت أخدمه في القدم لحظي والآن أخدمه لحظه.

هتف ياقوت دهشاً: هذا كلام خطير!

- فقال حسين: بل هناك ما هو أخطر وفي الغد إن شاء الله، سآتيك بكتاب{الطواسين} لتري وتسمع وتعرف، كيف وضع الحلاج إبليس في مقام «الفتوة» وقال عنه أنه أستاذه في توحيد الله وتنزيهه.

ضحك ياقوت ضحكة طويلة وقال موجهًا كلامه لحسين:

- هل تعرف هوايات شاعر إبليس؟!

إنفجر محيي الدين في الضحك وهو يقول: «شاعر إبليس»؟! لقب رائع، تستحق عليه دخول النار يا سيد ياقوت.

- سأله حسين: أخبرني عن هواياتك التي لا نعرفها عنك يا محيي الدين؟!

- هز محيي الدين رأسه قائلاً: سل هذا الذي لا يحفظ سراً!

- اريد أن اسمعها منك أنت.

- هوايات بسيطة، أنت تعلم طبعاً مسألة الدجاج، إلى جوارها أعشق البرامج الإذاعية والتليفزيونية التي تنوه عن المفقودين، لدرجة أننى تمنيت أن اكون أحدهم لأنها صادقة بل أصدق بكثير من صفحات الوفيات التي تنشرها الصحف، والتي توسع الناس، فيها كذباً، وجعلوا يعددون الي جوار اسم ميت واحد فقط ترك الحياة، خمسين اسماً مازالوا يفسدون في الأرض

ما بين قريب، ونسيب، وحسيب، وعتيد، ورقيب، وعقيد، وعميد!! هذه يا سيدي كل هواياتي

- ضحك ياقوت قائلاً: لا تكذب يا شاعر الشيطان، لم تذكرأهم الهوايات!

- دهش حسين قائلاً: وهل هناك أغرب من ذلك؟!

- قال محيي الدين وهو يغالب ضحكة: العري الإنساني يا سيدي، أمارس هواية العودة الي لحظة الميلاد، أجلس عارياً تماماً علي مكتبي لساعات، وقد وضعت ساقاً فوق أخري أتناول القهوة وأدخن السجائر، إنها لحظات تأمل رائعة، ولك أن تتخيل علّية القوم والحكماء والأدباء والفلاسفة وقد جلسوا تلك الجلسة يتناوبون الآراء والفلسفات؟! أقول لك الحق: أن أروع ما كتبته من أشعار وأفكار وأنا علي هذه الهيئة!

- ضحك حسين قائلاً: أنت يا صديقي كنز لا يفني من الجنون! ولكنى أعتقد إن هذه هواية صيفية وإلا كنت الآن المرحوم محى الدين الذى أكل برد الشتاء عظامه، وما هي أفكارك وفلسفاتك يا حضرة الشاعر العريان؟!

- ضحك محيي الدين وهو ينظر نحو ياقوت قائلاً: الله، الله، لقب جديد يا ناس، ما هذه العظمة يا ولد يا محيي الدين!

فجأة ودون مقدمات أكتسي وجه محيي الدين بالحزن والأسي وقال بصوت مكسور:

- الحقيقة أن الإنسان كائن مقهور كُتب عليه الشقاء. وما أري المعصية إلا محاولة لكسر هذا القهر والتغلب علي هذا الشقاء والطموح الي آمال لا تتحقق، فالأمل يا صديقي سوط يلهب ظهر الآمل. ساكن المقابر يأمل السكني وسط الناس، وساكن الحارة يأمل في حي هاديء نظيف، وساكن الحي النظيف يأمل في سكني الأماكن الفاخرة جداً، وهكذا ياصديقى، صاحب الأولاد يلعن كثرتهم، والعقيم يشقي بلا حدود حتي يرزقه الله بطفل . المريض يريد الشفاء والشهوات، والمريض جداً يتمنى مجرد الحركة

العادية. والعاجز... ما أبشع أن يعجز الإنسان عن قضاء حاجته بنفسه! ما أفظع أن تنكشف عورته رغماً عنه لينظف غيره قذارته حتي ولو كان أخلص الخلصاء له وأقرب المقربين، لا أدري إن كان الإنسان يصنع شقاءه بيده أم لا؟! هو الذي يقتل ويسرق ويقترف الرذيلة ويجور ويظلم.أم انه قدره الصعب؟! ألا تري أن لكل فعل من هذه الأفعال طرفين؟ ألا تري أن الإنسان هو القاتل المقتول؟ السارق المسروق منه، والجائر والمجور عليه؟!

هل سمعت عن مخلوق غير الأنسان يتقاتل من أجل عقيدة، هل في الحيوانات مثلاً مسيحي ومسلم ويهودي وبوذي ومجوسي؟ هل بين الطيور في السماء تلك المفارقات؟! هل بين الأسماك في البحار مثل هذا الغباء؟! ولماذا لا يتوحد من يرغبون عبادة الله الواحد في عقيدة واحدة؟!! حتي يخلو العالم من الحقد الطائفي؟

- وماذا سيكون اسم هذا الدين الجديد يا حضرة الفيلسوف؟!

- يا سيد حسين أنا لا يهمني الاسم الجديد، ولكنني ارجو أن ينتشر الحب بين الناس والعيش في سلام.

- ما تحلم به يا سيد محيي الدين لن يحدث أبداً، فحتي الأسماك يأكل بعضها البعض، وهناك الطيور الجارحة والحيوانات القاتلة، فعن أي سلام تتحدث؟!

- هز محيي الدين رأسه قائلاً: صدق مولانا الشاعر صلاح عبد الصبور»الكون موبوء ولا برء». يا سيد حسين ما ذكرت صحيح، لكنها مخلوقات غير مختارة، مجبرة بالغريزة فيما تفعله إنني أتكلم عن الإنسان العاقل المختار. لقد أخطأت يا صديقي،من ألهم الإنسان الفجور، ومن ألهمه التقوي؟! أهو الذي خلقها من عدم..؟! ولماذا كان الشيطان يرانا وقبيله ولا نراهم، يشاركنا النسل والحرث، يجري في دمائنا، فهل تري الإنسان بعد ذلك حراً يجب أن يعاقب علي أفعاله؟! - الله ألهمنا مع ما ألهمنا الإستغفار والتوبة!!

- الإستغفار والتوبة بعد ماذا؟! بعد أن ملئت الأرض فساداً وظلماً وجوراً؟!

- لا حظ يا صديقي أنك تتجاوز الخطوط الحمراء!! - هذا هو القهر بعينه يا صاحبى!!

- ما هذا يا شاعر الشيطان؟!

- دعني أسألك: لماذا نتبع نحن البشر خطوات الشيطان، ما دمنا نعرف ونعترف وقد حذرنا الله في كل الأديان السماوية من مكائده؟! وقال أنه العدو لله والإنسان، وأنه سبب الكوارث التي نستحق عليها العذاب؟!

- ضعف بشري، وربما غباء.

- الضعف من أنواع القهر والغباء أيضاً، أليس من البلاهة والغباء أن يقتل الإنسان أخاه الإنسان من أجل حب إله؟! هل يرضي الإله الواحد بأن نسفك دماءنا من أجل رضاه؟ !الشيطان يا صديقي ما هو إلا حلقه من حلقات الصراع الكوني، مقهور هو أيضاً فيما يفعله، أين سيفر مخلوق من قدر خالقه؟! وهذا القهر هو سبب تعاطفي مع الشيطان، وسبب تلك القصيدة صاحبة الجائزة، وصاحبة المبالغ المالية التي تدفقت على العبد الفقير من بعض اصدقائى عبدة الشيطان.

- جحظت عينا حسين دهشة وقال: تتلقى أموال من جماعات عبدة الشيطان؟!

- همس ياقوت: ليتها وقفت عند حدود التمويل!

- صوب حسين نظره تجاه محى الدين وهويقول: تكلم ، تكلم ياسيد الأفعال الغريبة، إلى أين رست سفن افكارك مع عبدة الشيطان؟

- إبتسم ياقوت بخبث وقال: بل كان منهم.

- فقال حسين دهشاً: منهم، ثم ماذا؟! تكلم يامحى الدين، وهل لازلت منهم؟

- هز محى الدين رأسه وهو يقول: لو كنت منهم الآن ياسيد، ما عرفتك ولا جلست معك، ولكن لهذا قصة طويلة، ليس وقت حكايتها.

- ولكننى مشوق لسماعها يامحى الدين.

- غداً، غداً فعندى موعد مهم لايمكننى التأخر عنه، وقال وهو يستند إلى باب الغرفة: لو كان الأمر بيدي لصنعت محرقة كبيرة هائلة، ثم وضعت فيها الدنيا وما فيها من زواقيل من الوالد العظيم آدم عليه السلام والسيدة قرينته حواء وحتي الآن. ثم خلقت عالماً آخر جميل رائع مليء بالأنهار والغابات الجميلة والطقس الربيعي اللطيف، ثم خلقت أناساً لا يعرفون سوي الحب والجمال والمتعة في كل شيء، وما كنت لأجعلهم بهذا العدد الكثيف الذي يفسد كل رائع.

ضحك حسين وياقوت طويلاً، وكان من عادة ياقوت أن يكتفي بالضحك أو الأبتسام ولا يتدخل برأي ويؤكد أنه سعادته بالإستماع أكثر من الكلام.

- قال حسين: يمكنك فعل ذلك بسهولة ويسر، فقط عليك أن تملأ بطنك ثم تنام كاشفاً ولامؤاخذة مؤخرتك. وفي الحلم تفعل كل ذلك وأكثر، ثم ضحك الجميع وقال حسين:

- أترك الشيخ أصيل في قريتي لأجده هنا في القاهرة؟!

- دهش محيي الدين قائلاً: وهل يتكلم في قريتك إناس بهذا الكلام؟!

- نعم الشيخ أصيل، ولو رآك ورأيته لدعاك ولده ودعوته أباك.

- شوقتني اليه يا حسين، فمتي أراه؟!

- عليك الإنتظار حتي مولد الإمام الحسين أو مولد السيدة زينب.

- قال محيي الدين ضجراً: أوه، سأنتظر حتي يأتي المولد؟!

حاول محيي الدين أن يحمل حسين علي الذهاب الي الشيخ أصيل في قريته، ولكنه كان يخترع الأسباب التي تعوق السفر، وهمس في نفسه:

- فتحت علي روحي أبواب الجحيم! فهذا المجنون لن يكف عن طلبه

السفر، وتنهد قائلاً: أوه، كم تجبرنا الأقدار علي اختراع الأكاذيب حتي نحافظ علي أسرار نراها جليلة ويراها البعض أشياءً تافهة! غريبة هي الحياة، كثير ما تجعل من التوافه نفائس ومن النفائس توافه، صدقت يا محيي الدين الإنسان مخلوق غبي زاقولى بن زاقولى .

*****

ضحك حسين وياقوت حين جلس محيي الدين، وقد أشعل سيجارة بعد الغداء ورفع وجهه الي أعلي ، قائلاً:

- أخبركم بما جادت عليَّ به الجلسة العارية بالأمس؟!

- أخبرنا يا حضرة الشاعر العريان.

- ألم يفكر أحدكم ماذا سيتحول بعد إنتقاله الي دار الآخرة القرافة يعنى، ويضعون جسده في التراب!

- حسين : وهل في هذه فلسفة؟! التفتت والتحلل والترمم والدود ثم التراب، أما الروح فهذه لا يعلمها إلا خالقها.

- محيي الدين: مهك الحق لا يعلمها إلا خالقها، ألا تري أن الناس تقول «طلعت روحه» أي روح الله طلعت اليه.

- ضحك حسين وياقوت، وقال حسين: والله تخريج رائع ثم أضاف: وهل هذا التفسير جاء في جلسة العري؟!

- قال محيي الدين متجاهلاً التعليق: أين سيذهب التراب، طبعاً سيختلط بتراب الأرض، ولو تصورنا أين ذهب البشر منذ آدم وحتي الآن فلن يمكننا القول إلا أنهم ذابوا في تراب الأرض، يقول ابو العلاء المعري:

خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

- وماذا في ذلك يا حضرة الشاعر؟!

- ألا يجوز أن يصنع من تراب أجسادنا فيما بعد طوباً يبني به مسجداً أو كنيسة أو معبداً أو مرحاضاً؟!

ثم يضحك فجأة بصورة هستيرية ضارباً كفًا بكف ويقول:

- تخيلوا أيها السادة، الناس الجدد بعد الف عام مثلاً وهو يتبولون في رؤوسكم التي صنع منها المرحاض! أو أن زيت أجسادكم صار غذاء لنبات أو غذاء لأسماك في بحار أو أنهار، يأكلها إنسان أو حيوان ثم يخرجكم فضلات عفنة؟! وربما إجتمع ترابكما مع تراب أحد الملوك أو تراب أحدى الداعرات في مرحاض واحد، أو ملهي ليلي، أو قلعة حربية، أو تمثال فني!

- هتف حسين قائلًا: قسما بالله لو رآك الشيخ أصيل لأقسم بأغلظ الإيمان إنك إبنه الحقيقي، وعض عليك بالنواجز.

- محيي الدين: لا تذكرني به حتي لا أجبرك علي السفر اليه قبل المولد.

- قال حسين موجهاً كلامه لياقوت: ما رأيك في هذا المجنون؟! ألا يجب الذهاب به حالا الي المارستان»، هذا رجل خانكة؟!

- ضحك محيي الدين قائلاً: «خانكة» تحريف للكلمة الفارسية «خانقاه» ومعناها بيت الدراويش المنقطعين لعبادة الله، إنظر كيف قلبنا الموازين وجعلنا عُبّاد الله مجانين؟!

- قال ياقوت مبتسماً: أكثر ما يستفزني في تصرفات وعادات محيي الدين، هذا الأنيق النظيف الثياب الخارجية، إن ملابسه الداخلية دائماً متسخة وتلك عادة عجيبة! ولا أدري السر وراء ذلك وكلما سألته عنه قال :لا أدري.

- هز محيي الدين رأسه قائلاً: فعلا لا أدري ولكنها عادة تريحني والسلام.

*****

١٥

ليالٍ فى حب عزازيل

سر عميق نجح محى الدين، شاعر الشيطان، أن يخفيه عن اقرب الناس اليه حتى إنفجرت الفضيحة الكبرى! حين داست الاحذية الغليظة لقوات الشرطة أرض الحارة قبيل آذان الفجرمحدثة جلبة كبيرة كادت تسقط تحت وطأتها درجات السلم الرخامى العتيق وينهار لشدة الطرقات وتلاحقها باب البيت .

رغم تخمينه سبب مجىء هؤلاء إلا أن محى الدين أخذته المباغتة وجعل يسألهم:

- ماذا حدث؟ ماذا فعلت؟

بينما أيدى المخبرين تقلب اوراق حجرته، وتعبث في عناوين كتبه، علها تظفر بما تبحث عنه، تجمع الصغير والكبير وكأن الحارة لم تنم أو كانت في إنتظار الحدث، وعلت أصوات النسوة بالصراخ والعويل، ولونت الدهشة وجوه الرجال، وجعلوا يضربون كفاً بكف، وما نطقت شفاه والد محى الدين، سوى:

- لاحول ولا قوة الا بالله، رب لا اسألك رد القضاء ولكن اسألك اللطف فيه.

وقد اسند ظهره للحائط بعدما خارت قواه وعجزت ساقيه عن حمله.

وحاول أحدهم معرفة سبب القبض على محى الدين وسط أيمانه الغليظة بأنه «أطيب شباب الحارة»، ولا يترك من الصلاة فرضاً!

- همس أحد الشباب اليه: اسكت ياحاج، لاتضيف إتهامات على محى الدين.

- وهل اصبحت صلاة فرض ربنا اتهامات؟

- طبعاً، ومن اكبر الاتهامات، اكبر والعياذ بالله من عبادة الشيطان عند اسيادنا الحكام.

- لطفك يارب !

لم يفلح أحد في معرفة سبب ما يحدث، حتى حمامة المخبر نفسه غاب عنه سر ذلك ولم يستطع التخمين وخاصة انهم لم يصادروا كتباً أو اوراقاً تشير إلى اى إتهام . ما اضعف من قوة بأسه بعد ذلك بل وصفه بعض شباب الحارة بالوهن والخرف، وان المسؤلين سيضربونه بالنار مثل خيل الحكومة ويطعمونه لاسود حديقة الحيوان .

*****

قبيل ساعات من بداية التحقيق، كانت مجموعة كبيرة من شباب عبدة الشيطان، تم القبض عليها وإيداعهم الحجز الشرطى.

ضحك محى الدين ساخراً وهو يقول:

- أهلاً وسهلاً يا اصدقاء الشيط... ولكنه تنبه إلى الكلمة فكتمها سريعاً، خشية أن تجد طريقها إلى أذن أحدهم، فتكون دليل إدانة عليه ومن معه.

سريعاً كان بين الشباب المقبوض عليهم عدة محامين من اصحاب الاسماء الشهيرة بالبلاد، كانت النصيحة ثم التنبيه والتحذير من المحامين لكل الشباب إنكار التهمة وتبرير لقاءتهم وحفلاتهم بالتسلية والترويح عن النفس فقط، وأن يكثروا في أقوالهم من الكلمات التي تدل على تدينهم وكراهيتهم للشيطان، واستنكارهم لفكرة عبادته، ووصف من يفعلها بالعته والجنون.

في الصباح تصدرت أسماء وصور الشباب المتهمين صفحات الجرائد والمجلات، واكتشف الناس أن اغلبهم أبناء كبار المسؤلين والاسماء المعروفة بالثراء. ووجد عامة الشعب في تلك الحادثة تسلية وشماتة في هؤلاء الكبار

الذين نهبوا خيرات البلاد، واعتبروا أن مايحدث هو انتقام الله لهم وحمدوا وشكروا على نعمة الستر رغم الفقر.

- ملعون المال الذي يجلب في ذيله الفضائح.
- قصدك المال الحرام ياحاج؟
- حلال حرام، المال جالب الشرور من بداية الكون.

تهكم بعض الشباب فيما بينهم من حكمة الشيوخ التي هى سبب كل تخلف حسب زعمهم.

تضآلت سيرة محى الدين وسط هذا الاهتمام الكبير بأبناء المسؤلين وإنتقام الله للمنهوبين. ورغم تأكيد من يدعى منهم ببواطن الامور أن الحكاية ستمر مرور الكرام، مبرراً ذلك بأن القانون لا يطبق الا على البسطاء، اما اصحاب الكروش الكبيرة فهم انفسهم القانون وبطبيعة الحال لايطبق القانون على نفسه .

إنصب إستغراب الأهالي بما فيهم الحاج توفيق على صداقة محى الدين ـ ابن الحارة الشعبية ـ بأبناء الكبار وبدأوا يتوجسون خيفة منه.

*****

مضت الأيام سريعة وقليلة، وزفت وسائل الاعلام لجميع الخلائق نبأ براءة المتهمين بعبادة الشيطان، وظهر رجال الدين ينددون بالظلم الذي وقع على شباب متدين يصلون الفروض ويصومون شهر رمضان ويوحدون الله، ويصلون على النبى والامنية المفضلة لهم ذكور وإناث هى الحج وزيارة بيت الله الحرام والمسجد النبوى الشريف، واقسموا انهم سمعوا منهم هذا الكلام من فم إلى أذن دون نقل عن أحد.

هذا عن المسلمين، أما اخوانهم المسيحيين فهم ايضاً يذهبون إلى الكنيسة ويرشمون الصليب بكل حب للرب ويعملون الصلوات المطلوبة، وحذروا بشدة من دعاة الفتنة ومن ينشرون الشائعات ليفرقوا بين نسيج المجتمع

الواحد المتدين بطبيعته، وان الله لن يبارك لهم في أولادهم جراء ما ظلموا الشباب الطيب من ابناء المسؤلين.

الذي تعجب له محى الدين ومازال، أن وجوهاً مهمة من الذين كانوا يقودون طقوس حفلات الشيطان، لم يقبض عليهم ولم يذكرهم أحدُ بالمرة، وحتى الآن لايعرف أسماءهم الحقيقية، واختفوا كأن لم يكونوا!

*****

يصف محى الدين جلسات عبادة الشيطان وقائدهم فيها لصديقيه ياقوت وحسين قائلاً:

- كان رجلاً نحيل الجسد، طويل القامة، يرتدى ملابس وأسمال سوداء اللون، كالحة السواد، يتدلى على صدره العارى حتى اسفل بطنه، جماجم صغيرة وصلبان مقلوبة ومعقوفة، ونجوم خماسية الابعاد، واشكال هندسية متداخلة .

كان حليق شعر الرأس، تبدو ضخامة تضاريس وجهه قاسية، تحت ضوء الشموع الخافت، فيظهر وكأنه شبح جنى وليس بشر . في يده جمجمة بشرية وكتاب قديم، قال أن اسمه «الحقائق الشيطانية» وطاووس نحاسى بحجم قبضة اليد رمزاً لعزازيل طاووس الملائكة، ويحمل عصا غليظة طويلة تفوق طوله بقليل، عليها جمجمة بشرية.

قبل أن يتكلم، يدق بها فوق الارض سبع دقات، ذا صوت جهورى عريض وكأنه يتكلم في بوق ردىء.

- «بسم عزازيل الإله الحق، له الطاعة والمحبة، نحيا ليلة ممتعة».

ثم يفتح الكتاب القديم، بعد أن يضعه فوق منضدة صغيرة امامه إلى جوار الجمجمة والطاووس، ينظر في الكتاب نظرة طويلة يسود فيها صمت مرعب، ساعتها يطلق أحدهم بخوراً كريه الرائحة، وكأنه يشعل النار في قمامة عفنة، ثم يجلجل صوته بالحقائق الشيطانية ، إيذاناً ببدء طقوس

الليل. وهى كلمات عن الشيطان وعلاقته بالبشر، والكون والله ـ سبحانه وتعإلى ـ لايدرى أحد من ألفها أو اين عُثر عليها!

الطريف ان لكل «حقيقة»، عنوان واسم على نسق سور القرآن الكريم، يقوله اولاً ثم يصمت قليلاً، والجميع سامع ومصغ مأخوذ بكل جوارحه في تقديس واجلال ورهبة.

يبدأ الحقيقة الشيطانية بقوله: «اعلموا يا أحباب الشيطان»- وهو رافعاً يديه في الهواء قابضاً كفيه الا من أصبعى الخنصر والبنصر-. وبعد إنتهاء «الحقيقة »، نردد خلفه نشيد تجديد العهد والولاء للشيطان:

- «إلهنا ابليس الأكبر، اقبل صلاتى وتذللى، وأنر طريقى ببهائك الساطع، وعندما يدنو يومى الأخير تجدنى شجاعاً عند استقبال الموت. وعلى أتم الإستعداد للإنتقال إلى أمجادك، في النيران الأبدية... آمين».

*****

صمت محى الدين قليلاً، ثم هز رأسه قائلاً:

- اشعلوا لى سيجارة واصنعوا لى كوباً من الشاى المعتبر حتى استطيع مواصلة الحديث.

- ضحك ياقوت قائلاً: لاحاجة لى بحديثك الآن فقد سمعته منك قبل ذلك.

- نظر اليه حسين قائلاً: سمعاً وطاعة يا سيد محى الدين ياعابد الشيطان .

هز محى الدين رأسه وقال:

- سابقاً من فضلك، «عابد الرحمن، الشيطان سابقاً». تماماً مثل اسماء الشوارع. «شارع القلعة، محمد على سابقاً»، وسابقاً هذه يعنى قبل ثورة يوليو ورغم اسم الشارع المعلق على الجدران، لا يعرفه المصريون الا باسم محمدعلى! وهز رأسه وقال:

- لا أدرى أهو إعتراف من الناس بجميل الألبانى محمد على الذي بنى مصر، أم ماذا؟!

- حسين: ارجوك دع عنك حديث الشوارع الآن، واكمل حديث الشيطان ياأستاذ «سابقاً».

- قال محى الدين بعد أن أخذ نفساً عميقاً من الدخان وقد تهيأ في ثوب العلماء والمتخصصين: عبادة الشيطان ليست لوناً واحداً وعقيدة واحدة وانما طرق عديدة وعقائد مختلفة، تماماً مثل عبادة الله. فأصحاب الديانات السماوية الابراهيمية.ـ نسبة إلى ابى الانبياء ابراهيم الخليل ـ مختلفون رغم زعمهم بإله واحد!

فالله عند المسلمين واحد، أحد لايقبل القسمة ولا التجزئة، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد. أما اتباع المسيح ـ عليه السلام ـ فيقولون ان «الآب والابن والروح القدس «، كل هذه الاقانيم إله واحد .بل ان المسيح هو الله. أما اليهود رغم زعمهم أن «يهوه» ـ الذي هو الله ـ واحد غير متفرق، ينسبون اليه ولداً فيقولون عن «عزير» النبى، انه ابن الله، بل قالوا انهم ابناء الله واحباؤه.

وهكذا حتى نصل إلى عُباد الاصنام، الذين يقولون انهم يعبدونها زلفي لتقربهم إلى الله الذي لايرونه ، فرأوا عبادة» الواسطة» التي تقربهم إلى غير ذلك من مئات العقائد، بوذية وهندوسية وقديانية، وزرادشتية ومجوس وغير ذلك الكثير، بل ان هناك معجم في الف صفحة من القطع الكبير واسمه «الدليل الكامل للأديان العالمية» وهو جهد لعشرات الباحثين الغربيين، ومترجم للعديد من اللغات منها اللغة العربية، وهكذا لكل عابد فلسفة ولكل عقيدة رؤية؟

انتهى حسين من عمل الشاى وصب كوباً وقدمه لمحى الدين الذي يقف إلى جواره، مواصلاً كلامه عن اختلافات الاديان، واكمل بعد أن شد

شفطة لسعت لسانه، قال على اثرها «لعن الله الشيطان». فأبتسم حسين وقال :

- الا تدرى أن الرسول الكريم نهى عن سب الشيطان؟
- فقال محى الدين مستنكراً : ماذا تقول؟ يا نهار أسود!
- لا تلعب بك الاوهام... سر النهى ان الشيطان يتعاظم ويشعر بأنه فاعل في الكون ومؤثرفي أفعال البشروإنما نقول: نعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإنه يخنث ويتقازم.

- هز محى الدين رأسه وقال : نعود إلى حديثنا وهو أن عبادة الشيطان ليست فكراً واحداً او توجه يخضع الجميع له، وانما هناك من يرون أن الشيطان مخلوقاً مثله مثل آدم ـ عليه السلام ـ ولكن الله ـ حشاه ـ ظلمه ، بأن علم آدم كلمات إن قالها تاب عليه ولم يقبل توبة الشيطان مع انه في العبادة أقدم، وقد فعل من الامجاد في خدمة الرب مالم يستطع آدم واولاده فعله.

وفي الغرب هناك كنيس الشيطان التي اسسها كاهنها الاعظم «انطون ليفي» بولايه سان فرنسسكوا الامريكية، ولهم كتاب مقدس اسمه الإنجيل الاسود، ولهم طقوس غير التي يؤديها أهل الشرق، وينكرون وجود الله والجنة والنار والحياة الآخرة، وبعضهم يرى ان الشيطان هو الشقيق الاكبر للمسيح لكن الله لم يرق له غروره الزائد بعكس المسيح الطيب المسالم الوديع فطرده ومن هنا بدأت الحكاية.

أما في الشرق فأشهر الطوائف هى الأيزيدية يقال انها من «أزد» وهى لغة فارسية تعنى إله الخير ولهم كتاب «اسمه الجلوة لأهل الخلوة» وكتاب «المصحف الاسود». وهم يعترفون بوجود الله ويعتقدون أنه لا يصدر عنه سوى الخير، أما ابليس هو خالق الشر، ولذا فهم يعبدونه ليبعد عنهم الشرور. أما.....

- قاطعه حسين قائلاً : ألاتعلم أننى دارس للفلسفة وأعلم اكثر من ذلك بكثير؟ ياسيدى اريد فقط معرفة ما كنتم تفعلونه من طقوس وغرائب.

- سمعاً وطاعة يا صاحب كوب الشاى الفخيم، لقد دونت بعض المحاضرات ـ اذا جازت التسمية ـ وسأحضرها لك ولكن بعد حلول الظلام.

- ولماذا الظلام أترانا سنقيم طقساً شيطانياً؟!

- لا لا، ولكننى خبأتها بجوار عشش الدجاج فوق السطوح، وذلك كإحتراز أمنى لااكثر.

*****

كانت المحاضرة أو «الحقيقة الشيطانية» الأولى تحمل عنوان «يهوه وعزازيل» وهى مثل كل « الحقائق» مقسمة إلى فقرات على نسق الآيات:

:: اعلموا يا أحباب الشيطان، أن كل مخلوق يموت ويهلك. ولأن معبودكم خالق وليس بمخلوق، فهو لايموت، ولم يدع أحد أو كتاب لأى دين ـ رغم كثرتهمـ موت الشيطان.

:: الله والشيطان لايموتان، لا يهلكان، تلك حقيقة الحقائق ولم يثبت غيرها، بل الذين ينكرون وجود الله لم ينكروا وجود الشيطان، معبودكم العظيم.

:: رغم إعتبار الملحدين أن ابليس العظيم فكرة أسطورية، ليميز الإنسان بين الخير والشر، واعتبار اللادينيين أن الشيطان معبودكم، رمزاً للثورة على القهر والظلم والتحرر، يبقى عزازيل معبودنا المحبوب في وجدان كل الناس حتى الكافرين به.

:: الله وعزازيل كانا منذ الأزل، لم يخلقهما أحد بل خلقا العالم واقتسما الخلق بينهما كان يهوه ـ كما يسميه اليهود ـ قوياً جداً، ولذا كان يقسم الأشياء ويختار هو اولاً، قال لعزازيل: أنا اخلق الخير ليذكرونى به، وأنت تخلق الشر، كان عزازيل أضعف بنية بالمقارنة بقوة يهوه، ولكنها قوة لا

تمكنه من قتله او إماتته ـ كما يفعل بالبشر ـ فإقتسم معه العالم واختار مايحلو في عينيه.

:: يردد المؤمنون بيهوه، بأن معبودهم هو الذي أمهل معبودنا ووعده بعدم إماتته حتى نهاية العالم، وتلك سخافة لا يصدقها عاقل، فلو كان الأمر كذلك، فلما هذه الحرب وتلك الكراهية؟! ولكى يعلموا كذبهم، فحتى بعد فناء العالم لم يذكر معبودهم يهوه، أن معبودكم الشيطان سيموت بل سيظل حياً إلى جوار معشوقيه في النار المقدسة والجحيم العظيم، لتتحول بأنفاسه النورانية إلى لذة ما بعدها لذة. بينما معبودهم القاسى يلقى بمخالفيه في النار وحدهم دون رحمة، ليذوقوا صنوف العذاب .

:: خلق عزازيل الشر، وتحمل راضياً ورغم ذلك كان مخلصاً في طاعته لشريكه في الكون، لدرجة العبادة والتقديس ورضى بالنزول إلى الارض بعد أن كان طاووس الملائكة ورئيسهم في الارض والسماء، وكم خاض حروباً حتى قضى على المتمردين والكافرين بيهوه. وعندما هدأت الامور واستتب أمر الأرض والسماء. مكر به يهوه ووضعه في اختبار عجيب، وقال له: بهذا أنت عصيتنى، أنت تكرهنى، ولا يصح أن تسكن بجوارى في الجنة او أن تصبح طاووساً للملائكة.

:: ولذا يااحباب عزازيل، نحن نقدس الطاووس إجلالاً لمعبودنا، وكان آدم تمثالاً من الطين منجدلاً امام الجنة صنعه عزازيل بيديه، ونفخ يهوه فيه الروح، وأمر الجميع بالسجود له، فتعجب عزازيل من الأمر الغريب، وقال: ياشريكى العظيم، لاسجود الا للقوى القادر، لا سجود الا لك. فغضب يهوه غضباً شديداً وقال: انت لست شريكى، انا لاشريك لى وأنت عصيتنى وتستحق غضبى ولعنتى، أنت شيطان وأبليس، وهنا غضب عزازيل وعزم على إخراج آدم والمرأة التي معه من الجنة وزين لهما الأكل من الشجرة المحرمة، فأكل آدم منها بشراهة وانتفخ بطنه، وتعب تعباً شديداً وانكفأ

على وجهه، فأرسل يهوه اليه طائر فنقر له فتحة في اسفله ليخرج منها ما يؤلم بطنه، ولأن الجنة لامكان فيها للتغوط، هبط ابوكم آدم قبل حواء، ليستريح.

:: رغم اننى لا اقدر على قتلك أو إماتتك ـ قال يهوه ـ ولكنك لا تنكر أنك اضعف منى ياابليس، وجعلتك تخلق الشر ليلعنك كل الخلق. واخلق أنا الخير ليحبوننى .فقال عزازيل محتداً: وجعلتنى أخلق الأمراض والعلل لتكون أنت الشافي، والفقر والبؤس لتكون أنت الغنى، والشهوات والرزائل لتكون أنت التواب والغفار والستار. فضحك يهوه متجبراً وقال: نعم وتلك مشيئتى وارادتى.

:: لم يجد معبودكم الطيب عزازيل، طاقة له في ان يحيا في السماء، فنزل إلى الارض مع آدم، وحاول في بداية الامر ان يتفق معه على العيش في سلام ولكن آدم خشى ان يخالف تعاليم يهوه فيغضب عليه ويعذبه ووعى الدرس جيداً مما حدث فقد كان أقرب ما يكون اليه ولكنه جبار لاعزيز لديه، ونفذ آدم التعليمات فأتخذ معبودكم عزازيل عدواً، وناداه كما نعلم بالشيطان وابليس والرجيم والملعون وألفاظ أخرى قبيحة وعلم أولاده أحقر الصفات فقالوا عنه «بعل زبلول» ومعناها سيدالزبالة والقمامة، وقالوا «بعل ذبوب «يعنى سيد الذباب». ولم يغضب بل نكاية فيمن ظلمه استعذب تلك الصفات وأمرنا ان نخاطبه بها، كل ذلك مع أن معبودكم العظيم، خالد الروح والحياة، يعشق البهجة، والأفراح والمتعة واللذة . وكل ما يجلب النشوة ولا يدلنا لغيرها، ولم يطلب من الخلائق أن يعبدوه، كما يفعل يهوه، ومن هنا وجب علينا أن نعطيه حقه ونعبده كى يعلم أن في نسل آدم من يقيم ميزان العدل ويرفض الظلم، انظروا يا أحباب كم هو مظلوم، أفلا يجب أن نعتذر له عن أخطاء ابينا آدم ومعبوده الجبار؟ هيا الآن أطفئوا وهج الأحزان بلعق دمائكم، فمعبودكم عزازيل يسرى فيها

يدور في عروقكم ويمرح في قلوبكم، هيا وليحدث كل منكم جرحاً في جسمه تسيل منه الدماء العزازيلية، دماء الحزن على أخطاء ابيكم في حق ابليس العظيم ، وليلعق كل منكم دماء الآخر لتسرى الأخوة الحقة بينكم .

ولتكتمل بهجتنا بكسر جماجم الموتى التي جلبناها من القبور القتيقة، حتى يستطيع اجدادنا الموتى الإعتذار، ربما ماتوا على خداعهم الغريب.، مثل ملايين البشر منذ جحود آدم ونكرانه للصفاء مع معبودكم عزازيل، خوفاً من شدة بطش معبوده، وذلك بعد أن نطهرها بصب الخمر المباركة في قيعانها لترتوى قبل ان نشربها، بعد ذلك نمارس طقس الليلة الاخير حتى «النوم العميق» مارسوا لذة الجسد بكل أنواعها، الأنثى والأنثى، الذكر والذكر، الأنثى والذكر . كل ما يجلب اللذة افعلوه حتى النوم العميق لتسبحوا في ملكوت الشيطان الأعظم، ولتعلن الموسيقى الصاخبة بداية بهجة الأحزان، أحزان الإعتذار حتى يرضى عنكم معبودكم العظيم عزازيل.

*****

الحقيقة الشيطانية الثانية التي سجلها محى الدين في اوراقه كانت بعنوان «الشيطان وطننا» يقول:

:: ماأكثر مساجد المسلمين، وكنائس واديرة المسيحيين، ومعابد اليهود وغيرهم وغيرهم من أصحاب الاديان، ولكن اكثر منها الخمارات والبارات والمراقص وصالات القمار، وبيوت الدعارة الظاهرة والمستترة. فلمن الغلبة؟ أهى للمؤمنين بمعبودكم العظيم الشيطان، أم غيره من الآلهة الحمقى؟

:: أصحاب الأديان الأخرى يكرهون بعضهم البعض، ويظن كل صاحب دين انه الأفضل، ان مثواه الجنة وغيره الجحيم .بل ان المذاهب المختلفة في كل دين يكفر بعضهم بعضاً مع إدعائهم بخالق واحد .

:: ألانتم فقط أحباب، أنتم فقط ملوك النار، يؤنسكم معبودكم العظيم أبليس، هم كلاب النار، تخلى عنهم معبودهم، فهو عاجزعن دخول النار

معهم ، لأن خالقها ومشعل شرارتها أبليس العظيم، أبليس وحده .

:: عيشوا للشيطان، أنتم مصدر النور للعالم، نزداد يوماً بعد يوم لأننا الحق، انه بزوغ عهد جديد، يحتفل بقوة الجسد ولا يحتقره أو يكبته، انه ميلاد معبد الشيطان، عزازيل العظيم، ساتان المقدس، صاحب الهرم الاكبر، ذو العين الواضحة في رأسه، لتنير ببهائها العالم .

:: اعلموا أن قوتكم صنعها الشيطان من الشر المقدس «بشر»، احذفوا حرف الحاء لتعلموا الحقيقة، لاحكومات، لا دول، أنتم دولة الشيطان.

:: معبودكم الشيطان، كم هو عبقرى وبديع، يسيطر على معظم البشر، ولا يترك عباده يدخلون النار وحدهم ـ لانهم بغيره لن يقدروا عليها ـ ولأنهم لا يخذلوه ولا يخونوه، مثل اتباع الديانات الأخرى الذين يخونون أربابهم لعقم ما يدعونهم اليه، أربابهم العاجزين عن فعل شىء سوى التهديد بالنار التي خلقها معبودكم العظيم ابليس.

:: انظروا ياأحباب عزازيل مهازلهم، ففي الوقت الذي يعلنون فيه الإيمان بمعبودهم، يستثقلون في قلوبهم تنفيذ ما يقولون أنها اوامر ويخالفونها، وفي ذات الوقت الذي يلعنون فيه معبودكم العظيم الشيطان ويتبرأون منه، ينفذون تعاليمه بكل لذة، ألا يكون ذلك دليلاً على أن خالق اللذة وخالق الأجساد التي تسعى إلى اللذة، ابليس العظيم، أحق بالعبادة؟

:: يا زادان يا أمير الظلمات، أيها المقدس العطوف، بحق العرش وحق النار، يا طاووس ملك، بحق الدرة الحمراء، بحق الارض والسماء، تفقد أحوالنا، انقذنا من بلاء الأديان التي تخالف دينك، دين اللذة العظمى.

:: إلهنا وسيدنا وربنا، لك يا نور الوجود، أتوجه إليك أعدك بأننى سأكون عبداً لك طائعاً محباً، وعدواً لغيرك، أنت الروح الحق، أنت ياابليس النور الأبدى، تتجلى علينا بالنور، لذلك نكره الإله الخفي، إنه يعيش في الظلام ولهذا سأكون كاره للظلام واجعله يتحول إلى نار ونور، أنا لك يا إبليس،

جسماً وروحاً ودماً، سأفعل كل ما يمجد أسمك.

:: علقوا خلفكم يا أحباب الشيطان صورته الكبيرة العارية. ولتهتم بها أطهر فتاة من فتياتنا المباركات، عارية تماماً إلا من حب إبليس وكراهية كل إله غيره، ولتطوف بكم اولاً تلمس أعضاءكم التناسلية حتى يباركها إبليس العظيم فتكون ليلتكم مباركة، ولتعلموا أن البركة تزيد عندما نمارس قداس الجنس في المقابر ونضاجع الموتى ما أمكن ذلك، فلتكن صلواتنا القادمة هناك، وكذا شاطىء البحر ليلاً فهناك يتجلى معبودكم عليكم بالقوة واللذة، ولا ننسى وصية إبليس الإله بإقامة صلواتنا في الصحراء، هناك يكون المذبح وسط الهواء المبارك، لتنام فوقه العرايا بلذة عظيمة.

*****

حقيقة شيطانية بعنوان»عزازيل يجمعنا«، تقول :

:: اعلموا يا أحباب الشيطان، أن معبودكم جامع اللذات، وموحد البشر تحت لواء المتعة والسعادة. بينما معبودهم الذي يدعى الخير لعباده، يحرم عليهم اللذة والسعادة .بل يحرضهم لقتل بعضهم بعضا في سبيل محبته وابتغاء مرضاته! وأن من يفقد حياته في سبيله سيدخله الجنة، ومن غفلة هؤلاء يسمون ذلك جهاداً في سبيله! ولو كان خالقهم حقاً ما هانوا عليه بهذا الجبروت.

:: ان الملائكة الذين كانوا جنوداً وتبعاً لمعبودكم ويعرفون قدره جيداً، تمردوا وغادروا السماء وأعلنوا عصيانهم ورفضهم لما حدث من ظلم لمعبودكم عزازيل الطيب المخلص، إعترفت بذلك كتبهم المقدسة ففي «انجيل متى٩:٤٣» وكان الشيطان في الأصل من ملائكة اللهو لكنه بسبب غروره وكبريائه سقط من المجد الذي كان فيه جاراً، معه جماعة من الملائكة الموالين له لتتحول إلى أرواح نجسة {أصعد فوق مرتفعات السحاب، أصير مثل العلى}.

فعزازيل له قدرات فوق التصور، وقد اجتمع مع يهوه في صفات واحدة. انهما لا يكمن رؤيتهما أو الاحاطة بهما أو التشكيك في قدرتهما على الإنجاز والتصرف، ويقول {١بطرس٥:٨}ملائكة الله الأخيار والشيطان وملائكته الأشرار، ويظهر اسم معبودكم يا أحباب في اليهودية بأنه المقاوم والخصم في سفر أيوب وزكريا والمزامير وفي سفر أخبار الأيام الأول وسفر صموئيل الثانى» ملاك مهلك»، ويقر كتاب المسلمين بأن معبودكم لم يخلقه أحد ففي سورة الكهف «ففسق عن أمر ربه» ولم يقل خالقه، و «أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا» .

:: لتفرحوا فإنكم تقدسون صاحب الشأن العظيم، الذي لايراه أحد وهو يرى الجميع، بشراً وملائكة، لم يخلقه أحد وهو خالق ومتمرد وغاضب ورافض وعظيم، وقد عرف أجدادكم الاقدمين ذلك القدر الكبير، فكتبوا الأشعار التي تمجده:

أبليس خير من ابيكم آدم ، فلتهنأوا يامعشر الأحرار
أبليس من نار،وآدم طينة ،والطين لايسموا سمو النار

هيا أيها الأحباب لطقوس ليلتكم، فقد غربت الشمس وجاء الظلام، ظلام معبودكم الرائع الجميل وليس ظلام غيره البغيض، أريقوا الدماء تقرباً هيا أذبحوا القطط والكلاب الآن، لطخوا بها الجدران والاجسام والوجوه استمتعوا بسخونة الدم وطزاجته، ان معبودكم جامع لمعانى الشر النبيل، فمرحباً بالشر العظيم، اعزفوا الموسيقى الصاخبة، ارقصوا، اشكروا معبودكم أن منحكم الحياة الرائعة، رغم انه لم يطلب منكم الشكر ـ كما يفعل غيرهـ أوقدوا الشموع السوداء التي لها رائحة القار .

فإن الجنة المزعومة تموت من تلك الرائحة، لونوا وجوهكم بمساحيق النساء، انزعوا ملابسكم جميعاً، جميعاً، إناثاً وذكور، دوروا في حلقة عكس عقارب الساعة بعد أن تتبولوا، كل منكم في كأس خاص ثم يهمس في الماء

بما يتمنى ويشتهى وسوف يحققه عزازيل، إغتنموا الفرصة قبل الموت والفناء، افعلوا ما شئتم فالشيطان يبارككم ويقول لكم: عقيدتكم جميلة وشريرة، ضعوا كؤوس البول وسط الدائرة، وهيا للرقصة الحمراء دوروا حول الكؤوس تسع مرات ثم افرغوها في الإناء الكبير فوق المذبح، حتى تجتمع أمنياتكم ويباركها معبودكم الشيطان العظيم، قبل أن تتعطروا بها وتمسحوا وجوهكم وأجسامكم.

*****

حقيقة شيطانية بعنوان «أعوذ بالله من الشيطان»:

:: اعلموا يا أحباب الشيطان،أن أتباع الله ضعاف جداً، وأنتم وحدكم الاقوياء ببركة عزازيل، إننا نراهم ونسمعهم في كل مفتتح كلام أو حديث أو ضيق يعتريهم أوفقر يلم بهم أو جذع ووهن يستعيذون في هلع ومسكنة، بمعبودهم يطلبون منه العون والإنقاذ قائلين : «نعوذ بالله من الشيطان».

:: هذا إعتراف منهم بقوة معبودكم الخارقة فلكم الفخر والعزة، ولكم الفخر والعزة مرة أخرى أن معبودكم لم يطلب منكم أن تستعيذون به من اى قوة باطشة، لانه لا يترككم لحظة، معنا بل يسرى في دمائنا وفي احلامنا وفي خيالاتنا، فكيف نستعيذ به وهو في نسيج انفسنا واجسامنا.

:: لا يؤثر فيكم تطاول البعض على مقام معبودكم ابليس العظيم، فهو ونحن اكبر من أن نسمع لهذا الهراء، اخوانكم يزيدون يوماً بعد يوم، يتولون المناصب العليا في بلادهم، ينتشرون في كل مكان فوق الارض، شرقاً وغرباً، حديقة الشيطان تتسع والإنجيل الأسود يبشركم بأن غروب شمس الأديان الاخرى بات وشيكاً.

:: فجر الشيطان لا بد أن يلوح، ساتان «ست» صديق المتحدين على الشرور العظيمة، منذ الأف بل ملايين السنيين، عليكم ان تسمو بأنفسكم إلى قمة العاطفة والتلذذ والوصول بمشاعركم إلى قمة الكراهية المقدسة،

حتى تشعروا بعمق المحبة الكاملة.

:: الحياة هى الشهوات والملذات والموت سيحرمنا منها، اغتنموا الفرصة الآن، لا تفكروا في الموت لانه قد يأتى قبل أن تنتهو من التفكير فيه، نحن لم نعد اؤلئك الضعفاء المتوسلين إلى الله الخائفين منه.، انه لا يهتم بنا كبشر سواء عشنا أو متنا.

:: كتاب الشيطان المقدس «طاووس ملك» المصحف الاسود، يخبركم أن حكمته تقتضى عدم الترحيب الأن بمؤمنين جدد، عكس ما يطلب من إخوانكم في الغرب بالتوسع في نشر عقيدته بين الصفوف الاولى في المجتمعات، فلا تحزنوا فتلك حكمته التي لانعرفها، يقول لكم: أطيعوا واصغوا إليّ خدامى بما يلقنونكم به، ولا تبيحوا به قدام الأجانب كاليهود والنصارى والمسلمين لأنهم لايدرون ماهى تعاليمى، ولا تعطوهم من كتبكم لئلا يغيروها عليكم وأنتم لاتعلمون.

:: إفرحوا يا أحباب، هاتوا الخمر والمخدرات والدم، دخنوا إملاؤا المكان دخاناً، حتى تنتشى أجسادنا ونعش ليل اسطورى ولذة بلا نهاية.

*****

١٦

أَدُلَهم على الجنة... وأمضي إلى النار

كانت ملامح شخصية محيي الدين الضحوكة، سبباً في حب من يعرفه أو يتعامل معه، بل يتعلق بصداقته وتراه وهو يمشي يحادث الجميع ويحادثه الجميع رجال ونساء وأطفال، ولا يعلم أحد بأنه وراء المصائب والإتهامات والمشاجرات التي أحدثتها مغامراته في سرقة البيض والدجاج، فلم يشك فيه مجرد الشك أيًّا من المتطاحنين، وكيف يصل الشك اليه وهو المتعلم الودود ابن الحاج مدبولي البقال، ذلك الرجل الطيب ميسور الحال الذي لا تفوته صلاة الجماعة في المسجد الزينبي وبخاصة صلاتى العشاء والفجر؟! فكيف يصل الشك إذن الي ولده الأستاذ محيي الدين؟!

*****

كان الصديق المقرب لمحيي الدين بعد الأستاذ ياقوت، شاب غريب الأطوار نحيل الجسم، تعلو جبهته «زبيبة الصلاة»، والحق أنه ما كان يصلي ولكنه إفتعلها- علي حد قوله- لتسهيل أكل العيش!

فشل في الإلتحاق بعمل بعد حصوله علي الدرجة المتوسطة للتعليم التجاري وتأدية الخدمة العسكرية، فهداه تفكيره بعد طول عذاب في أن يتخذ مهنة القيام بها سهل رغم مشقتها، فقد كان يبيع الكتب الدينية في المواصلات العامة، يحصل عليها من أصحاب المطابع بسعر معقول ثم يمارس هو عملية البيع بخاصة فى المواصلات العامة، والحق كان له موهبة خطيب بارع في عرض موضوعات ما يبيع من الكتب.

فقد كان يأخذ بناصية القلوب وعيناه اللامعتان تترقرق فيها الدمعات

وهو يخيف الركاب من الموت والحساب والنار، وأن هذه الكتب فيها ما يمكن للإنسان به الإفلات من النار ودخول الجنة. وكان يهمس في داخله:

- أيها الأوغاد أدلكم علي طريق الجنة، وأنا أمضي في طريق النار، أليس ذلك هو الجنون بعينه؟!

كانت حصيلة البيع هي التي تحدد لسعيد نوع الطعام الذي يأكله والمشروبات الروحية التي أعتاد علي تجرعها كل مساء، حتي يستطيع النوم بعمق-علي حد قوله- أو النسيان علي طريقة نجوم السينما- كما كان يحدث نفسه-، كان في آخر النهار وقبل أن يذهب الي الغرفة الخشبية التي صنعها لنفسه في جبل قلعة الكبش بالسيدة زينب، بعدما بلغت المشاجرات مع والده حداً لا يمكن معه العيش مع الأسرة التي لا يكفي راتب والده الذي يعمل موظفاً بسيطاً في مكتب البريد، بتكاليف الحياة لوالدته واخواته الثلاث. وكانت البطالة سبباً في طرده عدة مرات، كان ينام فيها أمام المسجد الزيني إلا أن المهمة كانت قاسية جداً في فصل الشتاء. وبعد فترة قرر بناء غرفة له بقلعة الكبش، عندما كان يمر من هناك قاصداً السيدة نفيسة ووجد بيوتا المصنوعة من الخشب والصفيح والكرتون حتي كونت مجتمع عشوائي لا يعرف أحد كيف تجمع فيه كل من هب ودب من جميع المحافظات وبخاصة محافظات الصعيد، فقد كانوا غالبية سكان القلعة.

ومع مرور الوقت جعل سوراً من الحبال والأسلاك أمام قطعة من الأرض أمام الغرفة، وجعل منها حديقة بسيطة آملاً أن يتمكن من بناء بيت عليها. وشهدت هذه الغرفة سهرات عديدة بين سعيد ومحيي الدين، وغيرهم من الأصدقاء من أبناء المنطقة. كان سعيد يسخر من أسمه ويتهم والده بقصر النظر أو الكذب المتعمد. وكان محيي الدين يفاجىء سعيد في بعض الأوقات بهدية من البيض ولحوم الدجاج والخبز، وعندما يقول له سعيد:

- هذا كثير يا محيي الدين.

- يضحك قائلاً: نحن أصدقاء يا رجل، عيب عليك ما تقول! فها أنا أتجرع معك «منقوع البراطيش» التي تسميها خمراً، ولا أتحدث في كثير أو قليل، كلنا زواقيل ياحاج سعيد!

وعندما يسأله عن معناها يقول له ضاحكاً:

- يعنى أصدقاء، باللغة الإسبانية .

ورغم القسوة التي كان والد سعيد يعامله بها، كان يحاول تدبير بعض الأموال ومنحها لوالدته وإخوته حتي تحسنت العلاقة، بل زاروه فى الغرفة الخشبية فرحاً بأفكارة فى بناء مستقبلة، وكانت فكرة السيطرة علي قطعة أرض أمامها للبناء عليها في المستقبل من أفكار والدته. وعندما ضحك سعيد ساخراً لبعد نظر والدته والحالة التي هم عليها الآن قال له والده:

- كنا نعيش يا ولدي براتبي عيشة طيبة وآمنة، وما كنا نظن أن الجنون سيصيب الحياة بهذه الصورة!

وفكر سعيد- قبل أن يلقيه قدره الي جبل قلعة الكبش- في سكني المقابر، مثل العديد من الأسرالوافدة الى القاهرة أو على الأحرى المهاجرين اليها، ودار طويلاً في منطقة «ترب المجاورين» و»ترب الخفير» بالدراسة، الا أنه لم يفلح في إيجاد مكان خال يمكنه الإقامة فيه دون مؤاخذة من أحد، نفس الحال في مقابر السيدة نفيسة، ثم اهتدى الي تلك الفكرة وهو في طريق العودة. وكم تعجب كيف غاب عنه ذلك، وهو ابن المنطقة ويمر منها دون أن يلتفت اليها نظره! ولكنه حمد الله أن عثر علي هذا المكان في الوقت قبل أن يحتله أحد ويضع يده عليه، وجعل يتوسع في السيطرة علي تلك المساحة بقوة «البلطجة» والتي كان يعد لها أصدقاء علي شاكلته، حتي إذا أجبرته الظروف علي ذلك ونازعه أحد كانوا اسلحته في تلك المعارك، أما إذا أستمر الهدوء والسلام والأمن، فذلك هو غاية المراد. كان التخطيط لفكرته المستقبلية هي بيع قطعة من الأرض التى استولى عليها فيما بعد، واستغلال ثمنها في بناء بيت بسيط يمكنه من تكوين أسرة والعيش في أمان،

وكان يقول لنفسه:

- ربما يستغرق ذلك الإنتظار سنوات، ولكن هذا هو المتاح، وعلي كل حال فلن أتمكن من تدبير تكاليف بناء بيت، ولا حل سوي الإنتظار.

ومرت السنوات وسعيد ينتظر تحقيق حلمه حتي ازدحم المكان بالسكان، ولكنهم جميعا من النوع الذي لا يستطيع الشراء، فقط «يضعون إيديهم». كلما أمكن ذلك. وكانت غرفة سعيد تعج كل ليلة بالأصدقاء والضحكات العالية والتي يقصد من ورائها الظهور بمظهر القوة والبلطجة حتي لا يفكر أحد في الإعتداء علي ما وضع يده عليه من أرض فضاء حول الغرفة. كانوا يتناولون أكواب الشاي ولعب الورق. أما منقوع البراطيش فكان سعيد يدخره لحين الخلوة مع محيي الدين. وفجأة في أحد الأمسيات، شرد نظر محيي الدين طويلاً حتي استراب سعيد في أمره قائلاً:

- ماذا بك يا محيي الدين، وماذا في رأسك؟!

- فكرة خطيرة لو وجدت عندك عقل، ستقلب حياتك بصورة مدهشة الي الخير.

- قال سعيد بدهشة: وما هذه الفكرة الخطيرة التي ستقلب حياتي؟!

- قال محيي الدين وكأنه يأمره: هذا المكان يصلح لأن يكون مقهي رائع، ونحن أول الزبائن عندك.

توقف الحاضرون عما يفعلون وفكروا قليلاً وقال أكثرهم :

- فعلاً فكرة خطيرة!

أشرق وجه سعيد فرحاً بالفكرة وقال:

- فلنجرب لن نخسر شيئاً، علي الأقل استريح من القفز في المواصلات مثل القرد طوال اليوم، وكم عانيت قبل ذلك كثيراً من مصادرة«البلدية» للملابس التي كنت ابيعها علي ارصفة شارع الموسكي وميدان العتبة- قبل بيع الكتب- ثم دفع الغرامات وبوس االأحذية تارة لمن صادروا الملابس وتارة للتاجر صاحب الملابس، حتي غيرت النشاط واستأجرت «عربة فول

مدمس» ، وظهر عفريت البلدية من جديد يسأل عن الشهادة الصحية ويصادر عربة الفول لانها بدون ترخيص، ثم تهمة إشغال الطريق إذا عجزت عن دفع الرشوة الإجبارية حتى لو كنت أمتلك الترخيص الذى يحتاج إستخرجه لواسطة، والواسطة تحتاج لواسطة، ولكل منهم مطلوب مالي.

ثم يضحك سعيد قائلاً:

- كانت أياماً سوداء. فاذا كانت عربة الفول إشغال طريق؟ فهل كنت أنا إشغال طريق في تجوالي بالملابس والشنط الحريمي والأحزمة الرجالي التي أحملها علي أكتافي؟! بلد غريب وعجيب، ولا إحساس فيه بمن أكلهم قهر لقمة العيش، فليذهب الفقراء الي الجحيم أو ينفجروا كالقنبلة في المجتمع، أو تسليم أنفسهم لتجار المخدرات الكبار للعمل عندهم صبيان، وطال الوقت أم قصر فالسجن في إنتظار الصغار، العجيب فى لقمة العيش هذه التى تأتى بشق الأنفس أنها تأتى من الطريق الحرام، فالحلال ضاع فى مجتمعنا ولايبقى إلا أن ينتقم الله من أهل الحكم، أو يثور الناس عليهم أو يموتوا! ثم إنفجر سعيد في الضحك بعد أن تذكر كلام مسئول الحي عندما ذهب يشكو اليه ما حدث معه من مصادره لعربة الفول، وانه أخطأ في الشهادة الصحية وسيستخرجها سريعاً فهو شاب قوي معافي أما رخصة عربة الفول، فالبركة في مساعدة سيادتك يا افندم. واذا بالمسئول ينظر اليه بدهشة قائلاً:

- شيء غريب، هكذا؟! تأتي ببساطة تطلب رخصة؟! أخرج يا افندي، عربات الفول مخصصة فقط لمشروع شباب الخريجين. فرح سعيد وتهلل وجهه وقال:

- أنا من شباب الخريجين يا افندم، ومعي كل الشهادات الدالة علي ذلك.

ضغط السيد المسئول علي زر بجانبه، فدخل رجل طويل عريض. وهاج المسئول وماج، ونظر الي الرجل الطويل العريض قائلاً:

- هل أصبح مكتبي وكالة بدون بواب، يدخله كل من هب ودب..؟!

خرج سعيد يجر أذيال الهزيمة، شعر بمرارة كبيرة، وصرخ زاعقاً :

- ماذا أفعل يا بلد يحكمها الظلم والقهر والمحسوبية ؟! أريد أن أعمل، أي مصدر للدخل، والدي رجل بسيط رغما عني وعنه، أصبحت عالة عليه وكان يأمل أن أساعده، ثم ضرب الأرض بقدمه قائلاً: لابد أن أعمل، لا بد أن أعمل.

وعندما رأي الكتب الصغيرة عند باعة الصحف في جولاته الضائعة للبحث عن عمل، أي عمل ولو كان فى عصارة للقصب، مقهي، مسمط، متجر. بزغت في عقله فكرة بيع الكتب الصغيرة في المواصلات العامة.

*****

وكانت فكرة محيي الدين، التي وصفها سعيد بأنها جهنمية، فعلاً كما وصفها، فالمنطقة تخلو من المقاهي، وبها عدد لا بأس به من السكان، وبالفعل أعاد سعيد ترتيب أموره وتجهيز المكان. ومنحه محيي الدين بعض الأموال علي سبيل القرض، ووقف الي جواره في تنظيف المكان وتشكيله، يشاركه بعض الأصدقاء. والحق أن سعيد حاول إقناع محيي الدين بأن يشاركه في المقهي، على أساس انه صاحب الفكرة، لكنه رفض قائلاً:

- المشروع مشروعك أنت يا سعيد، أنا لا أصلح لهذه الأعمال الكبيرة! ثم هز رأسه كعادته: ربما يصبح في يوم من الأيام اسمك «سعيد»، علي مسمي.. ساعتها سنناديك يا حاج سعيد، أو يا معلم سعيد أيهما يحلو لك سأناديك به.

ومضت الشهور وكلما زاد الدخل جعل سعيد يجمّل ويحسّن في المقهي وأدواتها، وكان يشعر بسعادة بالغة. وكان تعليقه علي سؤال محيي الدين له:

- كيف الحال يا معلم سعيد؟

- يرد والرضا يملأ كلماته بالفرح: يبدو أنني سأترك طريق النار الي الأبد، وكل ذلك بفضل أفكارك ومجهوداتك يا أعز الأصدقاء.

ترك سعيد بيع الكتب الدينية، وترك معها الخمرة ومنقوع البراطيش، وجعل يفكر جيداً ماذا يصنع في المستقبل، وكيف يزداد ما يكسبه يوماً بعد يوم حتي يتمكن من تحقيق حلمه بالبيت والأسرة. الطريف أنه أكتشف أن مهنة بيع الكتب في المواصلات العامة إنتشرت بصورة كبيرة، وكان كلما رأي شاباً من هؤلاء يبتسم له طويلاً، فيظن الشاب انه يبتغي الشراء منه، ولكنه كان يضاحكه، هامساً:

- عندي الكثير من هذه الكتب، بل أنا صاحب براءة إختراع هذه المهنة!

*****

١٧

ياقوت .. صاحب الأسرار

مرض ياقوت وانقطع عن الذهاب الي المدرسة، شعر حسين بغربة قاتلة، وكان قد ألف الدفء في جواره، وصديقهما محيي الدين صاحب الآراء الغريبة! يذهبا الي المدرسة في الصباح سوياً، يعودا سوياً، الآن ومنذ عدة أيام يذهب وحده ويعود! ذهب اليه في مسكنه ليعوده ويقضي حاجياته، جعل ياقوت يتكلم عن الموت بشكل لم يعهده فيه حسين من قبل ، بل يفلسف الموت ويقسمه أقساماً كثيرة. فقال والذبول يملأ عينيه:

- رأيت الدنيا قدراً صعباً، وفكرت كثيراً في الإنتحار لكنني كنت أتراجع في اللحظات الأخيرة، ليس خوفاً أو جبناً أو حباً في الحياة، وإنما أقول لنفسي لا تكن مجنوناً، خسرت الدنيا فلا تخسر الآخرة، ثم عشت أنتظر الموت. لكن عندما نسيت الموت في صحبتك وصديقنا محيي الدين تذكرني هو! فها هو الآن أراه يقبل، أشم رائحته أحس بدبيب أقدامه، أشعر بأنه يحتويني شيئاً فشيئاً. وأنا له كاره! ثم تنهد ياقوت قائلاً: عجيبة هذه الحياة، إذا أقبلنا عليها أدبرت وإذا أدبرنا أقبلت!

تسعت عيون حسين ومحى الدين تعجباً ودهشة، قال حسين:

- ما كل هذا العذاب المكتوم ؟!

- ياقوت: أرجوك ياحسين ويامحى الدين ألا يفتح أحد منكما فمه ولا يعلق بكلمة واحدة وإلا ماتكلمت، وربما كان هذه آخر كلماتى؟

فتعهدا له بما أراد. وقال ياقوت فاتحاً خزائن أسراره للمرة الأولى وربما الأخيرة:

- خسرت كثيراً يا صديقي، لكن أهم وأعظم ما خسرته قلباً قاسياً كنت مجنوناً به، ويا لفداحة الغرابة ظل هذا القلب رقيقاً جميلاً يطرب لكل لفظ شاعري وكل كلمة حالمة سنوات طوال، وعند مفترق الطرق، عند الإختبار الحقيقي تخلي عن عالمه الوردي، وهجر أحلامه المخملية وارتمي في حضن من لوح له بالرفاهية. كتبت لها كثيراً، همست لها كثيراً، حلمت لها وحدها كثيراً، ولكن كلماتي وهمساتي وأحلامي تبخرت في لحظة إختيار غبية. بل قالت في قسوة غريبة: الكتابة مهنة الفقراء، والأشعار زاد التعساء، ولا يجلبا سوي وجع القلب وجوع المعدة. كان من يعرف قصتنا من زملاء الدراسة يحسدوننا علي تلك السعادة، بل يؤكدون أننا آخر العشاق النبلاء. فقد كانت تذوب رقة وهي تقرأ القصائد التى اختارها وتقول هذه الأشعار صداق عرسنا، ومن اسماءها سنتخذ اسماء أولادنا. فوهبتها الحياة بكل ما أملك من نبضات، قبل أن اكون عاشق في محراب جمالها، ووهبتني الموت بطعنة فراق لم يجبرها عليها أحد، بل تعجبوا كل العجب لإختيارها المجنون، وهبتها الحياة ووهبتني الموت! وكان أهلنا يعلمون قصتنا ويباركون عذرية حبنا، ويؤكدون دائماً:

- ياقوت لها وهي لياقوت. تخرجنا من الجامعة وعملت بتدريس الفلسفة، وعملت هي أيضاً وبنفس المدرسة، ووسط حلم ببناء عش رائع جميل رأيتها وقد تحولت بعد عام واحد الي آلة حاسبة، كم ستتقاضي من أجر؟! وماذا ستفعل بهذه الجنيهات الكئيبة؟! - حبنا سيجعل كل بسيط رائع، وكل قليل كثير. - يجب أن تبحث عن إعارة لدولة عربية حتي يمكننا العيش الكريم، تلك الفلسفة اللعينة لا يحتاج الطلاب فيها لدروس خصوصية.

ـ مع الصبر تهون الصعاب، ما دام الحب قائدنا وزادنا وزهورنا الجميلة.

ـ اذا طال الصبر مات الحب، واصبحت الحياة لاتطاق.

واكتشفت يا صديقي بأن هناك أحد من أصحاب الثروات يقدم اليها نفسه. ومال عقلها الي ماله، وواجهتها وذكرتها بكل نظرة من عيوننا وكل إبتسامة من شفاهنا وكل لمسة من أكفنا فقالت:

- كنا أطفالاً نحلم.، وعندما كبرنا وجدنا الحلم سراب والواقع لا يرحم، الفقر يأكل الحب، والعوز يكسر القلب! وأنذرتني وكأنني تلميذ صغير تتوعده بالرسوب اذا لم أترك كلماتي المعسولة وورد قصائدي الذي لا يثمن ولا يغني من جوع، وسافرت إلى بلد خليجى فسيكون الفراق! والحق يا صديقي، تحملت كل ذلك وفسرته لنفسي بأنها قسوة غير حقيقية، تحملني الي الكفاح أكثر والعمل أكثر من أجلها، وحاولت كثيراً كما أرادت ولكنني لم أجد عقداً للعمل خارج البلاد يرضينى، رغم عدم قناعتي به ولكنه الحب اللعين الذي يستذل القلوب، فتستعذب العذاب لإرضاء المحبوب، وفي قمة بحثي وربما إقترابي مما أرادت، سبقها سيف رغباتها المجنون وكان لها ما أرادت من ثورة ضد الفقر. وكان لا بد من الرحيل عن المدرسة، عن البلدة التي تعيش فيها، عن الوجه اللامع الأنيق الذي إختاره عقلها ودفع الثمن الغريب هل تصدق أنني مازلت أهواها، أهوي ذكرياتنا قبل أن يلوثها ما لوثها! هل تعرف إن السعادة التي كانت تنشدها، والسلام الذي كانت تريد التنعم به لم يدم طويلاً، وجعلت تشكو لأهلها والمقربين منها غلظة زوج السعادة ووقاحته وسوء تعامله معها، بل كان يذكرها دائما بعلاقتي معها وكأنها وصمة عار، وكانت اذا ما أعجبتها أغنية ما، قال هازئاً:

- نعم، نعم فأنت رومانسية قديمة! واذا إمتدحت قصيدة شعر أو أسلوب كاتب قال متهكما: أعلم جيداً أنك كنت تعشقين الشعر والكلام العذب! هل تعرف يا صديقي أنني صادفتها ذات يوم ولم أعرفها إلا بعد أن استوقفني وقد كنت فيما قبل، أشعر بالهواء القادم من عندها قبل أن أراها! نظرت اليَّ نظرةً طافحة بالإعتذار، ولم أجد في عيني ما أنظر

اليها به. ومضيت كطفل شارد، صادف رجلاً يشبه أباه المفقود فأكمل سيره الحزين. توقف القلب عند بكارة جبنا، همسنا، عناقنا تحت ضوء القمر، عند جنون خطواتنا تحت لهيب الشمس، غير عابئين حتي يكون اللهيب شاهد علينا، تحت ظلال الأشجار لتكون شاهدة علينا، أمام أمواج البحر في رحلات الجامعة، ليكون البحر شاهدً علينا، وكانت تضحك بعذوبة تسكر قلبي، قائلة:

- الشرع يقول يكفي شاهدين فقط لا كل هؤلاء الشهود، وكنت أقول لها:

- أتمني أن تشهد حبات الرمال والجبال ونجوم السماء وأسماك البحر، وكل الخلق منذ آدم وحواء وحتي الآن، وكانت تهتف:

- أيها الرائع، أعشقك بكل قطرة في دمي، بكل شهيق وزفير بكل ما لا يمكن وصفه. من يصدق ياصديقى ، أن هذه العذوبة تتحول في لحظة الي عذاب؟! من يصدق أن هذه الحالمة اسلمت أذنيها للشيطان وأخرجتنا من جنة عشقنا؟!

وصمت ياقوت فجأة، وأكملت دمعاته باقي أحزانه الحبيبة الحبيسة، كما كان يصف دائماً «حزني الحبيب» أو»أحزاني الحبيبة»، وكان حسين ومحيي الدين لا يعرفا أن خلف هذه الكلمات البسيطة بحاراً من العذاب أغرق صاحبنا فيها نفسه المعذبة، حتي ألفها وما عاد يستطيع الخروج منها ولا البوح بها! وهمس حسين في نفسه:

- ما هذا يا صديقي المعذب ياقوت؟! هل تري ملاك الموت يرفرف حولك؟ ولم تشأ أن تترك دنيانا إلا وقد تخلصت من أحمالك الثقال ونفضتها عن كاهل قلبك المتعب؟! ثم قال حتي يخرج بصاحبه من هذه الكآبة، التي أسقطت أمطارها السوداء فجأة:

- هل تعلم أن هذه قصة عظيمة تضعك في مصاف الشعراء العذريين

أمثال قيس وليلي وكثير عزه وجميل بثينه؟ حقاً يا حضرة الفيلسوف لا شيء يجعلك عظيماً سوي ألم عظيم.

- فقال وكأنما يحادث نفسه ويسبح في ملكوت لا نهائي: تعذبت كثيراً فوق وسائد الشوك، وها هو قلبي أيقونة خضراء تصعد الي السماء. التجويف الذي في صدري، مكان القلب الذي هجرني يؤلمني، أشعر فيه بدوران الرياح وكأنه صحراء شاسعة الأبعاد،وددت لو طالته يدي لأجذبه وأضعه في مكانه الذي خلي بهجرانه، فهتف محيي الدين :

- ما هذا الإبداع الجميل، انه شعر رائع ؟!

فأشار اليه دون كلام أن يسكت، فواصل وحسين الصمت المؤلم. وقال ياقوت والحزن يتقافز من عينيه:

- عندما يسيطر الموت، تفقد الألوان بهجتها ويفقد الغد معناه وتصير الأحلام وهماً لا طعم له... كنت أضحك في نفسي كثيراً من بعض الأصدقاء الذين يدعون معرفتي جيداً، بينما أنا في حيرة شديدة لأنني لا أعرف نفسي، فكلما تعرفت علي غور من أغوارها تبدت للعين أغوار سحيقة وسراديب عميقة، وأتسأل: كيف عرفها إذن هؤلاء الأصدقاء؟!

قرأت لأبي يزيد البسطامي قول أعجبني:

- «قلت يارب بما أقترب اليك؟، فقال: بما ليس لي.

- قلت: وما ليس لك؟! قال: الذلة والإفتقار.

قاطعه حسين ضاحكاً في محاولة للخروج الآمن من تلك الأزمة:

- منذ متي وأنت تتكلم بأقوال الصوفية؟! هل أنت صوفي يخفي تصوفه؟! أم من «الملامتية» تخفي حقيقة إيمانك؟! ثم قال ضاحكاً أكثر: تصوف ودجاج مسروق هل يجتمعان؟! أم أنك «أصيلي» المذهب؟! هل أعجبك الشيخ أصيل وتأثرت بأقواله وأفعاله؟!

*****

وكان حسين قد تحدث لصديقه ياقوت كثيراً عن أحوال وكلمات الشيخ أصيل وعقيدته، التي يلخصها في كلمات قليلة هي:

- «لا يحدث في ملك الله ما لا يرضاه الله، وما الحسنة والسيئة، والرذيلة والفضيلة، والحرام والحلال، إلا سوء فهم بشري وتقسيم مغلوط». وكان يقول:»إفعل ما يحلو لك، فلن تفعل إلا ما شاء الله وقدر».

- وكان الحاج عبده يصرخ غاضباً ويقول: هذا الرجل شيطان سيفسد الناس، والناس مساكين، قلوبهم ضعيفة يجذبها بريق الرغبة والشهوة، إبتعدوا عنه حتي يطهرنا الله منه!

ورغم تحذيرات الحاج عبده، إلا أن معظم من تبعوه إنشقوا عليه، وألقوا بأنفسهم تحت عتبات عقيدة الشيخ أصيل وكلماته. والحق أن الرجل كان له سطوه غريبة علي النفوس، وجاذبية لا حدود لها رغم مخالفة أفعاله وأقواله لظاهر الشرع، وكان يقول:

- أنا الحقيقة أما «عبده» فهو الشريعة، ولكم الإختيار، اذهبوا إليه يربيكم فهو مربي، أما أنا فلا أطلب إلا الرجال لا الأطفال، ثم يزعق: لله رجال. فكان الشيخ فؤاد أول من يبايعه: أنا أول الرجال أقُّبل حروف كلماتك، وأضع قلبي موطئاً لقدميها.

وكانت تلك الحالة وغيرها سبباً في غضب الحاج عبده وهجرته من البلدة فيما بعد، وقوله عنها:

- هذه بلدة تحرق الأولياء، وترحب بالشيطان، وكان يقصد بالشيطان الشيخ أصيل.

ذات مرة زعق أبو الشعور بقوة غريبة قائلاً:

- الله في الشيطان، الله في الشيطان.

فأصابت الشيخ حالة من الهياج وضربه بقوة في صدره ، قائلاً:

- إهجع يا مجنون، إهجع.

فبكي أبو الشعور، وكان نادرا ما يبكي.

*****

أبتسم ياقوت وعادت الي وجهه الحياة، وطلب من حسين أن يحدثه طويلاً بأحاديث هؤلاء القوم ففي سيرتهم راحة نفسية رائعة له. فأكمل حسين قائلاً:

- جعل أبو الشعور يردد: الله في الشيطان، الله في الشيطان.

- فعاودت الحاج عبده حالة الهياج وقال: الله في الشيطان، يا مجنون؟! هذا الشيطان، يتعاطي الدخان والحشيش ويشرب الخمر التي حرمها الله، ويبيح لكم ما تفعلون من رذائل ومصائب ويدعي أن الله هو الفاعل الحقيقي لا أنتم، إن الله سيخسف بكم وبه الأرض. ثم جعل يبكي، ويرفع يديه الي السماء، وقال: وحدك تعلم ما أريد، وحدك تستطيع أن تفعل، اللهم أنهم يبطشون علينا بقوتهم فأرنا فيهم قوتك، اللهم إسقنا حبك يا صاحب الحب.

وكان الشيخ الأخضر حاضر الجلسة، وشاهد ما يدور بين الحاج عبداللطيف وأبي الشعور، لكنه التزم الصمت والدهشة كانت تعلو تضاريس وجهه، وما أن جلس الحاج عبده حتي تربع الأخضر، وتنحنح في هيئة قاريء القرآن، ثم قال بصوته العذب الجميل من سورة ص:

«وقالوا مالنا لا نري رجالاً كُنا نَعُدُّهُم من الأشرارِ أتَّخذناهم سِخرِيَّاً أم زاغت عنهمُ الأبصارُ، إنَّ ذلك لحَقٌّ تخاصُمُ أهلِ النَّارِ».

هدأت النفوس ولكن الحاج عبده مال علي الأخضر هامساً:

- ماذا تقصد من راء ذلك يا أخضر؟ أراك تحضر مجالسه دون حياء؟!

- الأخضر: اللهم أرو عطش فقرنا بغناك.

- فنظر له الشيخ نظرة المعاتب قائلاً: يا أخضر؟!

- فضحك الأخضر وقال: تأتي العصافير حيث تكون الأشجار، ثم قال:

حدثنا الأخضر عن والده الأكبر قال: إن رجلاً من أهل السر، تعود الجلوس وسط طلاب الجامع الأزهر ليستمع الي درس أحد الشيوخ الذين أحبهم. وكان يولي وجهه شطره كأنه مستغرق فيه، مأخوذ بكلماته، يتهلل وجهه أحياناً، أحياناً أخري يكسوه الحزن الغريب.

تعود الشيخ رؤيته، وتعود الإبتسام إليه كلما التقت عيناهما، رغم أنه لا يعرفه ولم يحدثه. ولاحظ الطلاب أنه يختفي ساعة الصلاة، همهموا فيما بينهم وكثر الحديث واللغط والغلط، ما شأن هذا الرجل الغريب الذي يرتدي أسماء الدراويش وحين يعلو صوت المؤذن يختفي فجأة؟! هل يري في شيخنا شيئاً ما يجعله لا يرتضيه إماماً له؟! فلماذا إذن الجلوس إليه وبين يديه طوال الوقت؟! دب النفور منه الي النفوس، بكرور الأيام إزداد الغضب حدثوا أنفسهم بفعل مكروه تجاهه، ومنعه من الجلوس معهم في حلق العلم. وكشفوا لشيخهم عن مكنون نفوسهم، وأستأذنوا في طرده، فنهرهم قائلاً:

- كيف تطردون عبداً لله من بيت الله؟!

وأنتوي أن يحدثه حتي لا تحدث فتنة بين الطلاب. وتقدم الشيخ وصافحه، فقبل الرجل يد الشيخ بشوق غامر، وفرحة لا حدود لها، مما أدهشه وحيره في أمر الرجل الغريب وظن الظنون في قواه العقلية. خرجا من الجامع الأزهر، قال له الشيخ في هيئة المداعب:

- أيها الرجل الطيب أراك منذ وقت طويل تحضر الدرس ولا أعلم أسمك، أليس ذلك غريباً؟!

- حملق الرجل في وجه الشيخ دهشاً قائلاً: الاسم علامة، هل يكفيك لبل صداك علامة؟!

إنتفض الشيخ منتبهاً، إذن هو حيال رجل غير عادي لكنه عاد لنفسه هامساً: ربما كلمة تعود أن يقولها لمن يسأله عن اسمه، ثم عاد فسأله:

- من أي البلاد أنت يا مولانا؟!

- فقال وقد نكس رأسه: بلد الراحلين.

- لا تحيرني يا رجل، أقصد من أي الأوطان أنت؟!

هزت الرجل الغريب رعشة مفاجئة وقال:

- الأوطان لا حصر لها، فالليل وطن للعاشق والعابد واللص وقاطع الطريق وأصحاب الحسنات والمعاصي، والقلب وطن للحق والفتنة والجمال والضلال والنور والظلمة!

دب الرعب في قلب الشيخ، واستطار لبه وأيقن أنه حيال رجل غير عادي،عالم كبير ربما، قطب جليل ، فقال بصوت متهدج:

- رجاء خبرني من أنت يا سيدنا؟!

- ابتسم الدرويش الغريب وقال: وهل تستطيع أن تخبرني من أنت؟!

- إزداد الشيخ حيرة وسأله: ولماذا يا مولانا تأتي الي دروس الطلاب؟! فهل يجلس أستاذ كبير أمام طفل يحبو، ماذا سيتعلم منه؟!

- إزدادت ابتسامة الدرويش وهو يقول: النبع العذب، حياة للكائنات.

- وضع الشيخ راحة كفه فوق جبينه وزعق: القوة يارب، ثم لمعت في ذاكرته كلمات الطلاب وتهديدهم بإيقاع الضرر بالشيخ، فأزعجه الخاطر.

رفع الدرويش كفه ثم هبط ضارباً بها كتف الشيخ في حنان مشوب بالقسوة، أو بقسوة يغلفها الحنان قائلاً:

- خاطر يبعدك عني، يفرقك مني، يارب الطلاب؟!

ثم أختفي الدرويش فجأة. وبهت الشيخ وجحظت عيناه وتوقف لسانه عن النطق وعقله عن التفكير وقدماه عن المسير، وسمع صوت الدرويش وكأنما يأتيه من تحت قدميه:

- «لا تقف مبهوتاً يارب الطلاب، إذهب اليهم ولا تحدثهم عما أراك الحق، فقلوب العصافير الرقيقة ليست كقلوب الجوارح.

جر الشيخ قدمى الحيرة الي الجامع الأزهر، كان الطلاب علي شوق جارف ليعلموا ماذا فعل أستاذهم مع الرجل الغريب الذي يرتدي أسمال الدراويش ويهجر المسجد ساعة الصلاة. وفزعوا لهيئة شيخهم المكسوة بالحزن والدهشة، وتساءلوا:

- ماذا حدث؟! ماذا فعل الرجل الغريب بالشيخ الجليل؟!

الشيخ لم يتكلم وإلتزم ظاهرة الصمت، بينما داخله يريد أن يتكلم أن يفصح أن يقول لهم بئس الطلاب أنتم، آذينا ولي الله بطينتنا الثقليلة وعقولنا العجفاء. وسمع صوت الدرويش يحذره في قسوة:

- قلوب العصافير الرقيقة ليست كقلوب الجوارح، فبكي والطلاب في حيرة من أمر شيخهم وما أصابه.

*****

بعد أن إنتهي الأخضر من حكايته والتي فهم أكثر الحاضرين ما يقصده منها، وجالت العيون بينه وبين الحاج عبده، اذا بالأخضر ينظر للحاج قائلاً:

- أفهمت يا عبداللطيف، اللهم بلغت اللهم فاشهد. قال أحد الحضور ممن غاب عنهم المقصد:

- والله العظيم حواديت الشيخ الأخضر هذه غريبة ولا أفهم منها شيء. من فوره ودون كلام ودون إستئذان وعلى غير عادته، إنصرف الحاج عبده. وفي الصباح قال لجدى:

- أولادي أمانة حتي أعود. وكان جدى قد أخلي للرجل واولاده حجرة كبيرة داخل البيت يعيشون فيها، يأكلون مما يأكل البيت ويشربون مما يشرب أهله. وقال جدي أكثر من مرة لمن كانوا يأخذون عليه ذلك:

- هل من المعقول أن يضيق بيتي أمام عمي، رأينا علي يديه الخير الكثير، لقد طهّر قلوبنا، ورش النور فوق رؤوسنا، وسقانا من كأس الحب ما لم نره مع شيخ آخر، أما الشيخ أصيل فالله أعلم به، ولكنني لن أترك عمي

وأتخذ عماً آخر، ثم يضحك قائلاً: لمن يقولون له يا رجل يقاسمك واولاده، رزقك واولادك؟!

- الحق يقال أن الحاج عبده رجل مبارك، دخل الدار ودخل معه الخير من كل مكان، فلا ينقضي يوم إلا ويأتي أناس، من بلاد بعيدة يحملون الهدايا للرجل وأولاده.، وقبل هذا وذاك فالرازق هو الله.

- قال جدي للحاج عبده: الي أين يا عمي؟! إن كان سياحة في سبيل الله فخذني معك. - جاءني الليلة في نومي مولانا الإمام الحسين، وطلب مني الذهاب إليه. - إنحني جدي وخطف يد الشيخ وقبلها وهو يقول: مدد، مدد يارب، مدد يارب. عاد الحاج عبده من زيارة الإمام الحسين صامتاً لا يتكلم، فقط يشير بيده، ولزم غرفة صغيرة، أخلاها له جدي تلبية لرغبته أطلقوا عليها اسم «الخلوة»، وظل بها أربعين يوماً لا يخرج.

في تلك الآونة إنفجرت الشائعات حول الرجل، بعدما فشل المحرضون في طرده من دار جدي، قالوا إنه لا يعرف شيئاً، فقط يريد الراحة، فلماذا لا يعمل؟! ولماذا هرب من مهنة الصيد التي كان يعمل بها؟! يبدو أنه فعل فعلة شنيعة!

- قال رجل عاشق للشيخ أصيل: أسألوني عنه، أنا أعرف تاريخه جيداً، إنه رجل سيء السلوك، يبصبص للنسوان!

لم يحتمل جدي إشاعات بصبصة النسوان، رغم معرفته الجيدة بشيخه ولكن القرية لا ترحم، فأستأجر له ولأولاده داراً خاصة انتقل إليها الشيخ، ولم يلبث طويلا وحزم الأمر وهجر القرية وظل سنوات لا يطيق فكرة زيارة مريديه فيها، فذهبوا هم إليه يحملون معهم خيرات بيوتهم، ومعها قلوبهم التي تطلب المغفرة، وبعد فترة رق قلب الشيخ وجعل يزور القرية ، كل عام مرة أو مرتين. وكان من لطائف الشيخ معهم، أن علمهم ألا يطرق أحد باب أحد ويقول: أنا فلان، ولكن يقول: الله، ثم يرد من بالداخل: الله. وكان

المشهد جميلاً حين يطرق الباب طارق، فيسأل من بالداخل عمن بالخارج فيقول: الله، فيفتح الباب قائلاً: الله. وكان الشيخ يدور علي بيوت الإخوان قبيل صلاة الفجر يتبعه من أستيقظ منهم، ناقراً الشبابيك بلطف قائلاً: الله، الله وعندما يأتي صوت من بالداخل: الله ، ينصرف نحو شباك آخر. وكان مسجد القرية يشهد في صلاة الفجر ما لم يشهده في أي صلاة أخري سوي صلاة الجمعة والعشاء. ثم إبتسم حسين وقال لياقوت:

- ما رأيك يا حضرة الفيلسوف في هذا العالم العجيب والحكايات الأكثر عجباً، وذلك الصراع الذي يظن كل طرف فيه أنه يرضي الله..؟!

- فقال ياقوت وكأنه يودع الدنيا: جئت لأعيش في هذه الدنيا بعض الوقت، فكيف سأعرف كنهها؟!! ثم شهق وزفر وقال: سبحان خالق الإنسان، سبحان خالق الأكوان.

*****

في الصباح الباكر دق جرس الهاتف، وجاء صوت محيي الدين باكياً:

- ياقوت مات ياحسين! فهرول حسين إليه وهو يلملم شتات نفسه والدموع تغالبه.

تحت وسادة، ياقوت كانت صورة لفتاه رائعة الحسن، وخلف الصورة كلمات لا تفصح عن معني، كتبت بلغة خاصة لا يعرفها ولا يفك طلاسمها الا صاحبها، تفوح منها رائحة عطر ذكي، هتف حسين في نفسه:

- أهذه التي خبأت حبك لها يا ياقوت؟! أهذه التي طلقت الدنيا من أجل صورتها؟! تري أين هي الآن؟! وفي أي مكان تعيش؟! ومع أي رجل أكثر إنسانية من ياقوت الطيب الرقيق؟! رحمك الله ياقوت، وأبدلك داراً خيراً من دارك، وأهلاً خيراً من أهلك، وحبا خيراً من حبك، وإن كنت أراك سترفض غير حبك الذي قضيت حياتك راهباً في ملكوته.

*****

١٨

الأخضر .. صاحب الأعاجيب

إشتعلت حلقة الذكر، وملأت أصوات الذاكرين البيت والشارع والقرية، والنسوة يهمن إنتشاءً بالذكر في غرفة مجاورة لقاعة الرجال الكبيرة، بصوت هامس غير مسموع. تسلل صوت الحاج عبده، شيخ الطريقة، بين إزدحام الأصوات الكثيرة، محدثاً نغماً رائعاً، وهو يصرخ ويداه ترتعشان وثيابه البيضاء اللون تلتف حول جسمه الممتليء في مشهد روحي يأخذ بالالباب.

والشيخ الأخضر كعادته يترنم بأشعار الحلاج، وكلما جاءت المعاني الجليلة إزداد إشتعال الذاكرين، وتعالت الأصوات الصارخة المستغيثة بالله. والأخضر يغني والشيخ عبدالعاطي ينقر الدف بروعة فائقة. وعندما أنشد الأخضر قول الحلاج:

ما حيلة العبد والأقدار جارية :: عليه في كل حال أيها الرآئي؟!

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له :: إياك إياك أن تبتل بالماء!!

صرخ الشيخ فؤاد صرخة مدوية وخر مغشياً عليه وظل لوقت طويل حتي قال الدراويش: قتله الأخضر..!! فأبتسم الأخضر وقال: قتلتنا أشعار الحلاج ورب الحلاج..! فزعق أبو الشعور: الله في الحلاج.

*****

أنهي الحاج عبده حلقة الذكر كما هي العادة بقراءة الفاتحة والدعاء بأن ينصر الله الإسلام والمسلمين ويرحم الموتي ويشفي المرضي، ويوسع رزق الأحياء، ويشرح صدر الإخوان لكل خير. ثم جلس الذاكرون ليتناولوا «النفحة» من الشاي والقرفة والقهوة وقبلها بعض ما تيسر من الطعام.

جلس الأخضر في ركن قصي بالقاعة، يغمره حزن عميق لا يدري أحد ولا حتي هو سبباً له! وحاول الحاج عبد اللطيف إخراجه من تلك الحالة فهمس في إذنه:

- رفقاً بالقلوب يا أخضر، فأشعار صاحبك الحلاج ثقيلة ونحن بسطاء.!

نظر إليه الأخضر ولم يتكلم، فداعبه الشيخ قائلاً:

- كلامك معسول يا أخضر، يرطب القلب وكأنه الثلج والبرد.

نظر إليه الأخضر واذا بالدموع تترقرق في عينيه، فأخذ الحاج يمسحها بيده ثم قبله فوق جبينه وقال له:

- نحن جهلاء لا نعرف قدرك يا أخضر.

فإبتسم وكأنه يحادث نفسه قائلاً:

- اللهم إنا مرضي فاشفنا.

رجاه الشيخ أن يقول شيئاً يرطب به القلوب. فصمت لحظة ثم قال- كعادته-: حدثنا الشيخ الأخضر، عن والده الأكبر، في مقام العشق وحال الفناء، قال:

- كانا متقاربين،. يشربا قهوة الحديث وخمر النشوة، كان عطر البوح يفوح من أحدهما، ومن أحدهما تبدو لوعة التحرق وزفرة الأشتياق. ومسح شعر رأسه الفضي ولحيته العنبرية وسافرت عيناه في المدي وقال: رأيتها ليلة أمس! عيناها لا وصف لها، نجلاوان، ربما، حوراوان، ربما مكحولتان، مكسوتان بالجلال، ربما سوداوان، زرقاوان، فيهما الوان العشق وألوان الألوان! كانت ذراعاها عاريتين، ونهداها الا من نور وبهاء. ولأني تهت وذبت وأسكرني خمر الشفتين، بل خمر الخمر، وغرقت روحي في ملمس كفيها، وهي تربت فوق حنايا شوقي بشوق الشوق، وتطفيء لهب تحرق نفسي بنور ونار القرب. أمرتني أن ألقي قربان اللذة، وكئوس الخمرة تحت القدمين. وقالت ضاحكة:

- خمرك تالفة فاسدة الأهواء! فخذ هذى منى! وجعلت تسكرني، تسكرني، حتي الصحو فأنتعشت أوردتي وأمحت أورادي، ووجدتني عار الا من ملمس كفيها ووجدت الورق الأخضر ينبت في أطرافي ويطول. وهتفت، صرخت، زعقت:

- عبدك قد جاء إليك، فالرحمة يا رحمة، كل المشتاقين.

- قالت بدلال: ماذا تبغ؟

- قلت: رضاك لا غير!

- قالت ضاحكة: رتق ثقوب فؤادك. وأغسل خائنة الأعين وما يخفي صدرك، وأشرب خمري وحدي، ثم تعال الي مخدعي الأسني عار إلا من ضعفك، سكراناً نشواناً تهذي بكلام لا يعرفه غيري. ولتتعلم لغة العشق وكيف تجيد الوصف لمحبوبك حتي أستمع إليك كيف ستصف جمالي، وجلالي، وماذا ستقول عن العينين، الكفين، القدمين.؟! وعن ضحكتي ونظرتي وفيضي الخارق، وحالي حين أحب وحين أقول بأني غاضب، ساعتها ستري أنثاك في مخملها عارية تنتظر لقاك، بل تشتاق سخونة أنفاسك وحرقات اللهفة!

- قلت: الخمرة يا مولاتي... فلم تجبني!

- قلت: الخمرة يا مولاتي، فلم تجبني!

- قلت من أين الطريق؟ فلم تجبني!

- قلت من أين الطريق يا مولاتي؟! فلم تجبني!

- إنتفض صاحبه كعصفور بلله الماء البارد، وزعق يردد: آه يا مجنون يكفيني ملمس كفيها، يكفيني ملمس كفيها، ثم نخر، وشقهق، وزفر، وأغشي عليه!

*****

- زعق الحاج عبداللطيف باكياً: ها أنت تقتلنا جميعاً يا أخضر.

- فضحك قائلاً: بل يقتلكم والدي الأكبر.
- فزعق أبو الشعور: الله في والدك الأكبر.
- ذات يوم سأله حسين: لماذا الحلاج يا شيخي الأخضر؟!
- غامت عيناه وقال: لهذا قصة غريبة لحست عقلي وقلبي، لم أروها لأحد قبل ذلك، وما كنت أنتوي روايتها، ولكنك عندي غير الناس وسأرويها لك وليكن ما يكون، ولولا حلمك الغريب الذي رويته لي وأسرارك العجيبة التي تؤثرني دون الخلق جميعا بها ما رويت لك .

وجعل يسرد القصة التي لحست عقله قائلاً:

- حلم غريب ظل ينتابني فترة طويلة، ورغم حيرتي في تفسيره وحيرة من أرويه لهم، أجد له لذة رائعة وأرجو أن يدوم هذا الحال. أقوم من نومي كل مساء، أري وجهي وقد تبدل وتغير، يشرق نوراً كالبدر في تمامه، يطول شعر رأسي كثيراً، يطول جسمي بصورة غير عادية، أرتدي ثياباً بيضاء فضفاضة جميلة، أمشي في شوارع حلمي الغريب أنادي: «أين صاحب الحزن الجليل والزهد النبيل؟! أين النهر الظمآن؟!. البحر المسجور؟! بستان المعرفة؟! الخمر التي اسكرتني حتي الصحو؟! أين من فقدت الالوان بهجتها حين صلبوه، قتلوه ، حرقوه ثم ذروا رفاته في النهر الكبير؟! أين من كان يطير بجناحي التوحيد؟! أين شيخي؟! شيخي؟! أقرأ لافتة تتلألأ في الفضاء بحروف من نور، تحمل كلمات خير البشر: «يدخل الجنة أقوام أفئدتهم كأفئدة الطير» أصحو دهشاً وقد غلفتني الحيرة، أتمتم مثل العامة: خيراً إن شاء الله. وأتساءل، تري من يكون صاحب الحلم؟! وأين سأراه؟! طال الشوق وطال وتكرر الحلم بتفاصيله مرات عديدة. وفجأة إنقطع عني أشهر عديدة وما عدت أراه، فلازمني ضيق شديد ووجد جارف كمن إنقطعت عنه فجأة أنباء حبيبه، وكنت أنتظره في كل ليلة، إنتظار العاشق لطيف معشوقه.

وفجأة كما انقطع عاد مرة أخري. ووجدتني وأنا أتساءل عن صاحب الحلم الذي أتحرق شوقا إليه، وجدتني في مدينة كبيرة ذات قباب عظيمة ومساجد كثيرة ونهر كبير، وسمعت صوتاً لا صاحب له، يهمس : أنت في بغداد مهد العلم والعلماء، والفقه والفقهاء، والأدب والأدباء، والزهد والزهاد، ورأيتني وكأنني ولدت فيها، أعرفها شارعاً شارعاً، محلة محلة، شبراً شبراً. وهمس الهامس في أذني: أعبر نهر دجلة الي الناحية الغربية، الي محلة المنصورة، فعبرت ثم هتف بي آمراً: قف فوقفت، إقرأ فاتحة الكتاب؟ فذا قبر ولي الله الشيخ معروف الكرخي..! قرأت، بعدها سلكت طريقاً قصيراً واذا بالآمر يهتف ثانية: قف، إخلع نعليك، إرفع رأسك وإقرأ. قرأت: «هذا مرقد الولي الكامل الشيخ منصور الحلاج قدس الله شأن سره، الفاتحة» إنتابتني رعدة شديدة- لا أدري من أين أتت- ثم دارت في روحي نداءات الحلم القديم: أين، من ؟! أين، من؟! أين، من؟! قتلوه، صلبوه، حرقوه، ذروا رفاته في النهر الكبير؟! همس الآمر، تقدم، أدخلتني قدماي الي مسجد الحلاج. صغير، فقير، شأن المساجد المنتشرة لأضرحة الأولياء في ريفنا المصري. وتوقفت قدماي أمام حجرة المرقد، مصبوغاً نصف حوائطها الأسفل باللون الأصفر، أما الأعلي فمصبوغاً باللون الأزرق، ذات قبة قليلة الإرتفاع- رغم إرتفاع شأن صاحبها، في وسط الحجرة ضريح من الخشب مغطي بالقماش السندسي الأخضر، ولا توجد أية زخارف في تلك الغرفة المربعة الشكل المبنية بالجص والطابوقـ بلغة أهل بغداد. شيء ما غريب شعرت به لا أستطيع وصفه سوي أنه عزله عن العالم، وكأنني عدت الي الوراء عشرات القرون. وهتفت نفسي: مسجد غريب كصاحبه، هواء غرفة الضريح ثقيل، تكاد تشعر بملمسه، لكنه لطيف الرائحة وكأنه يأتي من حقول الياسمين والريحان والبنفسج. لعبت الدهشة برأسي، وتسألت: ولكن الحسين بن منصور الحلاج، ليس له قبر! لقد نثروا رفاته فوق مياه دجلة! فبعد أن جلدوه ألف جلده،

وما أستعفي ولا تأوه، ولا تراجع ولا إعتذر، وكان يردد: أحد، أحد، قطعوا يده ثم رجله، ثم يده، ثم رجله، وجزت رأسه، طافوا بها في البلدان ثم أحرقوا جثته ونثروا رمادها في الهواء علي ماء الدجلة، فهل دفنت رأس الشهيد الحلاج هنا؟! وبينما أنا واقف تتقاذفني الأسئلة بهيئتي الجديدة البيضاء المشرقة، اذا بالقبر يصدر صوتاً أشبه بصرير باب قديم جداً يفتح، ويزداد عبق رائحة الياسمين والريحان والبنفسج، واذا برجل يماثل هيئتي الجديدة تماماً. الوجه مثل البدر، يسبقه نوره، الشعر أسود فاحم يغطي منكبيه، يغطيه قلنسوة خضراء، طويل الجسم، أبيض الثوب فضفاض. يأخذه الهيام، وكأنه سكران، يميل يمنه ويسره في نشوة رائعة ووله جميل، ولوعة وتحرق يظهر أثرهما في عينيه السوداوين الكحلاوين النجلاوين، فتري بياضهما يميل الي حمرة شفقية، يسكن فوديه حزن نبيل ، رغم إبتسام ثغره. إحتوائي بين ذراعيه مرحباً وأنا ذاهل لا أقدر علي شيء، مسالم، مستسلم، واذا بي أعود الي هيئتي الأولي قبل أن يطول جسمي ويشرق وجهي وعاد لي لباسي الأسود اللون الذي أفضله. همس الرجل النوراني في أذني بحنان رائع: الحداد لا يليق بمقابلة الأحباب، فخلي عنك الثوب الأسود، ثم كور قبضة يده وضرب بها قلنسوته الخضراء، ثم أرسلها في الهواء وتمتم بكلمات غير مفهومة، وجذبها، ثم بسط يديه نحوي، وقال: خذ هذا الثوب. واذا بحلة حمراء اللون ، أبهي ما يكون الثياب. ثم أخذه الهيام، ومال يمنه ويسره وأنشد:

والله لو حلف العشاق أنهم :: موتي من الحب أو قتلي، لما حنثوا

قوم اذا هُجروا من بعد ما وُصلوا ::ماتوا، وإن عاد وصل بعده بُعثوا

تري المحبين صرعي في ديارهم ::كفتية الكهف، لا يدرون كم لبثوا

- هتفت دون إرادة مني: أنت الحسين بن منصور الحلاج؟! هز رأسه مبتسماً.

- قلت: وهل لك قبر يزار؟!

- قال: قبري هو الكون كله.، الماء والهواء والتراب والنار، ألا تري أنهم أحرقوا جثتي، فأخذت النار منها نصيبها، ثم ذروها في الهواء فوق الدجلة فأخذ الهواء نصيبه، ثم أخذ الماء نصيبه هو الآخر، ثم كان لتراب هذا المكان ما بقى من رماد جثتي، هنا في هذا المكان صلبوني، هنا قطعوا أطرافي، هنا صليت علي صليبي متوضأ بدمائي.

- قلت: ولكن....

- قاطعني قائلاً: داعبني بها صاحبي الشلبي، آنذاك قائلاً: الدم يفسد الضوء! فقلت له: ركعتان في العشق لا يجوز وضوءهما إلا بالدم. فقذفني بوردة حمراء في يده ثم غشي عليه.

- تقَّولوا عليك الأقاويل!

- تعني علماء الرسوم، علماء السلطان، علماء الحيض والنفاس.

- ومن غيرهم..؟!

- تجلي لي مشهد نهايتي فأخبرت عنه قائلا:

ألا أبلغ أحبائي بأني ركبت البحر وإنكسر السفينة

ففي دين الصليب يكون موتي ولا البطحا أريد ولا المدينة

فهاجوا، وماجوا، وقالوا تزندق الحلاج وكفر، وما كفر الحلاج وما تزندق، ولكنه أعلن عن نهايته، حين تجلت له صورتها، وباح بما رأي، وجعل قلوب الناس، أوعية أسراره، لكنها ضعفت وما أحتملت.

*****

حينذاك ، إنفتحت قبة الضريح وغمرالمكان نور القمر، وجعل الرجل يرتفع شيئاً فشيئاً. فامسكت بثيابه وهتفت:

- لا تتركني يا شيخي.. ولماذا تصعد ، ولم تنزل الي ضريحك كما كنت؟!

جلجل صوته، وكأنني به يملأ الكون، لتسمع جميع الكائنات كلماته، آمراً وراجياً:

ترقي من يقين الي يقين.، الي يقين، حتي يصير اليقين وطناً. وطن المحب- يا محب- قلب محبوبه وطن الغريب- يا غريب- دار أمانه وطن الحائر- يا حائر- سكون تقلب وجهه

والحلاج كل هؤلاء، محب وغريب وحائر، وذاك أول أبواب العشق والفناء. فأتبعوني اذا استطعتهم.، ولن تستطيعوا، حتي يشاء المحبوب فهو الطالب والمطلوب، وهو العاشق والمعشوق ، وهو الذاكر والمذكور.

*****

وهنا إنتفضت من نومي، مرعوباً يتفصد جبيني بالعرق الغزير، يحتويني خوف غريب. فهرولت خارجاً من الغرفة والبيت والشارع والمدينة، لا أدري الي أين؟! ولا أين المستقر..؟! وكلما توقفت تعباً، هجم عليَّ الخوف الغريب، ودفعني شيء ما دفعاً عنيفاً، هاتفاً في كل جوارحي:،

- إهرب، إهرب، إهرب.

- من ماذا؟! لا أجد جواباً.

- إلي أين؟! لا أجد رداً.

وإذا بي أري حروفاً تتجمع في الهواء الذي يعلو جبيني وتشكل كلمات..!! «وطن الغريب إجتياز المفازات، الي دار أمانه، فصرخت بكل ما تبقي في كياني المتعب المتهالك:

- أين أنت يا دار الأمان؟ !أين أنت يا دار الأمان؟!

- ترامت الي مسامعي أصوات العامة: إنقذوا هذا المجنون سيقتل نفسه.

*****

وإنتهي الشيخ الأخضر من حكايته العجيبة، وقال وكأنه يحادث نفسه، ومن يومها لا يقر له قرار، وكلما حادثته ما بك يا أخضر؟! قال:

- أبحث عن دار الأمان... ثم وضع يديه علي رأسه كأنه يخشي حدوث

شيء ما، واذا به يقف فزعاً ويخطو الي الشارع بحذر شديد كأنه يمشي فوق بقايا زجاج مكسور، وما أن رأي أمامه الشارع حتي أطلق ساقيه للريح وسط دهشة الجميع! رآه أبو الشعور فناداه بقوة:

- الله في الأخضر، الله في الأخضر، ثم جري خلفه ليتبعه. ومرت الأيام والأسابيع والشهور والسنون، والأخضر في رحم الغربة!! لا يعرف أحد أين هو، أو متي سيعود؟! وهل مازال حياً يرزق ، أو إنتقل الي دار الآخرة؟! وقد خلَّف غياب الأخض وحشه كبيرة، وظل أبو الشعور أياماً طويلة لا يتكلم غيرقوله: «الله في الأخضر»... ومهما كان السؤال الموجه إليه عن حاجته للطعام أو الماء أو أي شيء، لا يرد إلا بقوله: «الله في الأخضر».

*****

١٩

وقائع موت الشيخ عبد اللطيف

كان اليوم جمعة، وقف الشيخ عبد اللطيف، وكانت المرة الأولى التي يقف فيها- اذ كان يصلي وهو جالساً- وقف بثيابه البيضاء وعمامته الكبيرة البيضاء، وبشرة وجهه البيضاء، يصلي ركعتي السنة، قبل أن يصعد الخطيب المنبر.

فرغ الناس من صلاة السنة إلا الشيخ، بدأ منظره كشمعة بيضاء عظيمة الهيبة والجلال، كان مسجد الأمام الحسين رغم اتساعه تكسوه غلالة شفافة من نور، ألقت لوناً من السكينة والصمت الوقور علي المصلين، كان يبدو للمتأمل أن الشيخ مصدرها!

كعادته بعد انقضاء الصلاة في كل يوم جمعة يقف وقد تحلق حوله المريدون والمحبون والدراويش ومن يستهويهم المشهد، بضع دقائق، يذكرون الله في الحضرة الحسينية كما يسمونها.

في ذلك اليوم نشط الشيخ جدا رغم كبر سنه، وألم ساقه التي كسرت في حادث سيارة، وهو في طريقه لزيارة إمام أهل الطريقة أبو الحسن الشاذلي في ضريحه الذي يقع بالبحر الأحمر قبالة الكعبة المشرفة.

كان يلوّح بشاشه الأبيض ويداه ممدودتان ترتعشان، ترتعد أناملها في حركة متموجة، وهو يصرخ والدموع تفيض من عينيه، قائلا:

- الله... الله... الله...

- وتردد الجموع الغفيرة خلفه: ... الله... الله... الله...

كان يخيل للمتأمل أن كل شي في المسجد، الحوائط، سجاد الأرضية، الشبابيك، الأبواب، المنبر، الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المعلقة فوق الحوائط، كل شي،

كل شيء يردد خلفه:

- الله... الله... الله...

زعق الشيخ ووجهه الأبيض وعيناه الدامعتان تنظران الي السماء:

- أطعمنا رضاك يا صاحب الرضا، اسقنا لقياك يا صاحب اللقا ، أغسلنا ببهاك يا صاحب البهاء.

والناس بين باك وهائم، وسكران... وكعادته شق الشيخ الصفوف وأنصرف سريعاً وهو يهرول قاصداً مسجد السيدة زينب، وهناك تحلق الدراويش حوله في «الحضرة الزينية». إلى أن أستقر به المقام كالعادة في مسجده الصغير بمقابر الدراسة، كان الشيخ قد أبتني تحت أرض المسجد ثلاث مقابر، لا يمكن رؤيتها إلا بعد فتح الباب المؤدي إليها، والذي يقع تحت فرش المسجد الصغير، تحت أقدام المصلين.

كانت مهمة الابن الأكبر للشيخ هي خدمة الزوار، حيث يقدم لهم القرفة والشاي والقهوة قبل وبعد تناول الغداء الذي يؤمهم فيه الشيخ قبيل صلاة العصر من كل يوم جمعة، اللقاء الأسبوعي بالشيخ.

وكان غالباً من الجبن الأبيض والخبز البلدي، وكان للجبن والخبز، رغم وجودهما بالسوق، حلاوة ما بعدها حلاوة. كما كان يردد السواد الأعظم من المريدين. وكان البعض لا يقنع بالأكل بل يأخذ لأهل بيته «نفحة وبركة» من الخبز والجبن الأبيض! والشيخ يردد دائماً:

- تحرروا من رق الدنيا، من عبودية الأشياء، لا تأخذوا الا من يد خالقكم، فالأحرار عباد الله، وغيرهم عبيد. ثم يهتف وكأنه يخاطب كل البشر:

- «ما خلقكم الله لتقفوا على باب سواه»... فتهتف الحناجر بلفظ الجلالة، الله، الله، الله، بعدها يعلو البكاء والنحيب.

في حضرة الشيخ لا تدري كيف تأتي الدموع وبغزارة، حتى أن أحد الدراويش برر ذلك، بأن الشيخ «باب الكعبة المشرفة» وكلماته «طواف حولها»، وذلك سر

البكاء، والحقيقة كان الشيخ يغضب من تلك الأوصاف إذا علم بها. ويقول:

- لا تحمَّلوني ما لا أطيق، لا تحمَّلوني ما لا أطيق، من أنا؟! أنا عبد معدوم، ثم يضرب المتحدث بقبضة يده في صدره زاعقاً:

- تأدب يامعدوم فى حق المعدوم. ثم يبكي مردداً بعضاً من لطائفه: الصاحب يا أصحابي ساحب، فلا تسحبوني إلي حتفي، وحتفكم؟! قيل لي: لكي تمر يجب أن تتذوق المر، وقد ذقت ما لم تذقه الجبال، فلا تفسدوا ملح عشقي.

في نفس يوم الجمعة الذي صلى فيه واقفاً بعد صلاة العصر، نظر الشيخ إلى الأحباب نظرة المتأمل، قبيل المغادرة، وقال:

- عندما بنيت المقابر التي في باطن الأرض، هذه- وأشار الي أسفل- كنت أظن أنني سوف أدفن فيها، ثم قرأ: (وما تدري نفس بأي أرض تموت). ثم انتقل من مكانه فى صدارة المجلس إلى ركن بمؤخرة المسجد بموازاة الباب الرئيسي حيث كانت توضع أدوات القرفة والشاي والقهوة، ثم نظر إلى الأحباب وكأنه يودعهم وقال:

- القلب يحن إلى مدينة طه، والروح تشتاق إلى مدينة طه. ثم نادى ولده الأكبر:

- يا مسعد، ادفن والدك هنا وبسط كف يده بجواره. وجعل يردد:

- الروح تشتاق إلى مدينة طه ثم تمدد راقداً ونظر إليهم نظرة أخيرة، وقال:

- من باع نفسه لخالقها فقد فَطِن، ومن رد ماله لواهبه فقد وفي أمانته، ومن مات وربه عنده فقد فاز. وصمت لحظة وقال:

- (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فأدخلي في عبادي وأدخلني جنتي).

انفجر الحضور بالبكاء والعويل، وأصواتهم المتحشرجة تردد:

- لا اله إلا الله، لا اله إلا الله، لا اله إلا الله.

وأغمض عينيه بيديه وطال الصمت، ابتسم مسعد وقبله فوق جبينه وقال:

- هنيئاً لك بالجنة ورضا الخالق.

بعد انقضاء أول صلاة جمعة، بعد رحيل الشيخ، تحلق المريدون والدراويش كعادتهم سنوات طوال لكن بدون الشيخ هذه المرة، وظل وسط الحلقة فارغاً دون قائد يتكلم ويوجه الكلمات وينهي حلقة الذكر. فجذب أحدهم أكبر أبناء الشيخ، خادم الجميع «مسعد» لوسط الحلقة، ولكنه تراجع فزعاً وقال والدموع تغالب كلماته:

- لست لها يا أخوان، لست لها يا أخوان... فذهب الجميع إلى مسجد الشيخ، دون الذهاب لمسجد السيدة زينب حتى يتدبروا الأمر فلا بد لهم من قائد روحى يحمل راية الشيخ.

وفي المسجد تبادل الحضو نظرات الحيرة، من سيتقدم يا أخوان؟! وكادت تكون فتنة، فمنهم من يرى فلان، ومنهم من يرى علان، حتى تكلم الحاج عبد الحميد وذكَّرهم بموقف حدث له مع الشيخ وسط الحلقة، حيث جمع الشيخ قبضة يده وضرب عبد الحميد في صدره قائلاً:

- إذا ذهبت، فهذا رسولي إليكم... وكشف الحاج عبد الحميد عن دهشته لنسيانهم ذلك!

صمت الجميع وصوبوا نحو عبد الحميد نظرات متسائلة عمن يختاره؟! فاذا به يذهب للإبن الأصغر للشيخ الذي يعمل موظفاً بأحد المصالح الحكومية بعد حصوله على دبلوم التجارة المتوسطة، وأحضره إلي حيث كان يجلس الشيخ في صدر المجلس، فدفن كل صاحب رأي رأيه وكل طامع أفكاره في صدره، مهما كان رأيه في الشيخ الجديد، والذي لم يتخيل إلي أحد منهم في يوم من الأيام أنه سيجلس في مكان الشيخ الراحل. فهو يدخن السجائر ويرتدي القميص والبنطال، وليس بمستبعد أن يكون قد صادق البنات، فكيف سيجلس مكان الشيخ، وماذا سيقول؟ ولكنهم هتفوا جميعا:

- الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر والحمد لله.

صحيح كان الشيخ رجلاً أمياً ـ أو كما يطلقون عليه، محمدياً ـ لا يقرأ ولا يكتب، لكنه كان صاحب وهب وإشراق ألهي لا حدود لهما! وفي حضرته لا يتكلم أصحاب الشهادات والدراسات والكراسي العلمية! بل يستفتون الشيخ في أحوال قلوبهم وكيفية المعراج في طريق الحق. وكان الشيخ بحر علم إلهي لا ساحل له! لا يشبع منه الجالسون أمامه في أدب وحب لا نظير لهما.

وقد بلغ هذا الحب مبلغه لدرجة أن من يفوز بما تبقى من الماء بعد أن يشرب الشيخ، من الكوز المعدني، يفرح فرحاً كبيراً! بل أن منهم من كان يؤكد أنه ماء زمزم وليس ماء الصنبور!

وكان الشيخ هو الذي يمنح صاحب النصيب بعد أن يتفرس وجوه الحاضرين، تلك المنحة من بقايا الماء أو الشاي او لقم العيش وبقايا الأرز واللحم ، أكثر من هذا- ومما لا يصدقه سامعه بل يتأفف منه- ما كان يفعله المحبون للشيخ حين كان يتقاسم بعض الدراويش ماء وضوء الشيخ، والذي تمضمض وأستنشق به، وغسل وجهه ويديه وقدميه فيشربوه بلذة كبيرة!

وما كانوا يقبلون نقاشاً ولا تراجعاً عن ذلك، مندهشين ممن يؤاخذهم، مرددين في ذلك بعض أقوال سمعوها من الشيوخ الكبار، وربما يكررونها دون فهم حقيقي لمقاصدها! فتجد من يقول:

- من لم يذق الخمر في الدنيا، لن يذق الخمر في الآخرة، وتلك هي خمر الدنيا.

أو من يقول:

- من لم يشرب من كوز شيخه، لن يشرب من كوز نبيه يوم القيامة. أو من يقول:

- من ذاق عرف.

ورغم استنكار الشيخ للمبالغة واصفاً، إياهم بعدم الفهم وتحذيرهم من كلام كبار الشيوخ وشطحا تهم مؤكداً أنه كلام خاص بأصحابه وأحوالهم مع خالقهم، فلا تقلدوهم؟ وإلا كنتم كالعميان بين النخيل! إلا أنهم ما كانوا يتراجعون عن

ذلك مرددين القول الشهير بين الصوفية:

- «إن لم تكن منهم فتشبه بهم»

وكانوا يبررون غضب الشيخ بأنه لابد وأن يظهر الغضب حتى لا يفُتن الناس من أصحاب العقول الصغيرة. وهم ذوو قلوب لا حدود لها بل كانوا حين يجمع الشيخ قبضة يده- وكانت تلك إحدى عاداته معهم- ويضرب أحدهم في صدره ينبري المضروب بجذب يد الشيخ لتقبيلها ثم يمسح علي موضع الضربة بيده ويقبلها تبركا بها!

رحل الشيخ وبقيت سيرته، كل محب يروي مواقف خاصة به معه وكلمات أختصه بها دون الخلائق. وبطبيعة الحال، منهم من يقول الحق، ومنهم من وجد لشهواته في إظهار محبة الشيخ له فرصة لا تعوض فجعل ينسج الحكايات، ومنهم من أخذته سورة الحب للشيخ فجعل يضَّخم الصغير ويجعل من الكلمات البسيطة والأفعال الأكثر بساطة كرامات مدهشة!

ومن عادة أهل وأصدقاء المتوفي- أي متوفي- إبراز وذكر محاسنه وغض الطرف عمن سواها .، بل ربما برر بعض المساوئ على أنها تخفي حكمة ما، لا يعرفها إلا الخلصاء والعقلاء!

قال رجل كان الدراويش ينادونه بالباشمهندس إبراهيم:

- جمعتني صلاة الجمعة مع الشيخ في بعض زياراته لإخواننا في مختلف البلدان. وذات مرة ضقت ذرعاً بخطيب أحد المساجد لكثرة أغلاطه في اللغة العربية وراواياته الغربية التي ينسبها، لسيد البلغاء صلى الله عليه وسلم.

بعد انقضاء الصلاة، نظرت إلى الشيخ لأشكو له جهل خطباء هذا الزمان وفساد علمهم، لا يقرأون ولا يفقهون ويفسرون كلام الله كيفما أتفق، ونضحت به قرائحهم، ابتسم الشيخ قبل أن أتكلم قائلاً:

- ضجر قبلك سقف المسجد وحوائطه.

وهذه يا أخوان معجزة فالشيخ رجل محمدي، كما تعلمون لا يقرا ولا يكتب!

بعدها وقف شاب قوي البنيان أنيق المظهر، وسط المصلين يستأذنهم في سماعه

وقد ارتسمت على وجهه علامات حزن قاتل وذل متعجرف! وقال:

- أرجو أن تعينوني في أجرة المواصلات إلى بلدتي البعيدة التي تغربت عنها من أجل العمل لتوفير الدواء لأمي المريضة التي تصارع الموت، إلا أن قدرى اوقعنى في يد لص ،سرق راتبى الشهرى. وقال رسولنا الكريم: «كان الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»، وقال الكثير والكثير، وقد ملك ناصية القلوب والعقول،حين قال: أعلم أنكم ستبتاعون لأولادكم بعد الصلاة الغذاء والفاكهة وما تشتهي أنفسهم وأنفسكم، اجعلوا لي نصيب معهم، واعتبروني ضيفكم، هذا اليوم الذي سيرضى بالقليل.

وجعل يقول ويقول، حتى تدافعت إليه الأيدي بالعطاء، نظرت إلي الشيخ أستأذنه في منح هذا الشاب بعض ما معي، والحق أنني لشدة تأثري بكلماته، أود أن أمنحه كل ما معي من نقود، ابتسم الشيخ ولم يتكلم.

حمدت الله كثيرا لرقة قلوب الناس، وفرحت حين رأيت يديه، وقد امتلأت بالنقود. وعدت إلى مكاني والحزن يعتصر قلبي لحال الشاب، نظرت إلى شيخي ووجهي يطفح بما في فؤادي من مرارة وقلت:

- أذله من سرق نقوده. فابتسم الشيخ قائلاً:

- أذله من سرق حياءه... فدهشت لكلمات الشيخ لكنني لم أعلق تأدباً ورهبة، ووالله يا أخوانى جمعتنى مع ذلك الشاب الصدفة في مسجد أخر، ورأيته يكرر ما قاله في المسجد الذي رأيناه فيه أول مرة. فغلي الدم في عروقي وتمتمت قائلاً:

- هي مهنة إذن؟! لون جديد من ألوان التسول والصفاقة والكذب في بيوت الله! وهممت لأن أفضح أمره بين الناس لكني تذكرت كلمات الشيخ ووصاياه في ضرورة ستر الخلق، وفي نفس اليوم ذهبت إلى الشيخ في بيته وجذبت يده وامطرتها بقبلاتي قائلاً له :

- حقا ياشيخي الجليل، سرقه من سرق حياءه.فابتسم قائلاً:

- سبحان ستار العيوب، فانسكبت الكلمات على نفسي كالماء البارد.

- هتف الحاضرون: الله أكبر، الله أكبر، أنها والله كرامات كبيرة لا تحدث الا من ولي كبير.

*****

بعد الوفاة، تعود الحاج عبدالحميد رسول الشيخ عبداللطيف الي محبيه، أن يقصد مسجده كل عدة أشهر، وكلما سنحت له الفرصة وحصل علي إجازة من عمله يقضيها بجوار الضريح، فالمسجد هو المقر الرئيسي لإستقبال زوار الشيخ ومريديه طوال حياته في القاهرة وحتي بعد إنتقاله للدار الآخرة. وكان من عادة الحاج عبدالحميد الإتصال بحسين عن طريق هاتف المسجد، ويذهب لرؤيته وقضاء بعض الوقت معه، ومن تواجد من الإخوان، وبشكل خاص الشيخ مسعد، فقد كان رجلاً طيب القلب، ظريف الكلمات، ضحوك لا يحمل هماً لتكاليف الحياة، هازئاً في بعض الأحيان بأشياء لا يستطيع غيره الإعلان عنها، قال ذات مرة:

- دعكم من الشيخ وغيره، أنا لا أعرف سوي الله ورسوله، ثم يقهقه ضاحكاً، ويقهقه معه الحاج عبد الحميد ويضرب علي يده.

أكتسب الحاج عبد الحميد، صفة رسول الشيخ الي محبيه، عندما ضربه في صدره وهم متحلقون حوله يتمايلون ذكراً وترديداً لكلمات الحب التي ينشدها ببراعة شديدة، جمع الشيخ قبضة يده ثم أطلقها في صدر عبدالحميد قائلاً:

- هذا رسولي إليكم... وكانت حركة من حركات الشيخ، التي تصدر عنه دون مناسبة ظاهرة. .

*****

عندما أعلن الشيخ مسعد الطيب، البسيط الأمي- تماما مثل أبيه الشيخ- ذلك الرأي أول مرة، تذكر حسين مقولة الشيخ فؤاد:

- «أن أول من ينكر علي المشايخ أولادهم وكأنهم ابن نوح عليه السلام، ثم زواجهم، فالولد يري أبيه «الشيخ» يغضب ويسب ويشتم ويحثهم علي الإهتمام

بمصادر أرزاقهم وحياتهم. بينما يحرض مريديه ومحبيه علي الزهد في الدنيا!! ثم زوجته لأنها تراه عارياً من وقارة وملابسه.

*****

قال الشيخ مسعد عن بداية العناية والوهب الإلهي، للشيخ الوالد، أنه كان يعمل صياداً، وبينما هو داخل الأمواج مع رفاقه الصيادين سمع نداء خفيفاً يقول:

- ما خلقت لهذا يا عبداللطيف، بعدها إنقلب المركب وغرق كل رجاله وإبتلعهم ماء البحر، وأقمنا سرادق للعزاء مثل غيرنا.

ثم بعد ذلك بعام كامل وجدناه أمامنا محملاً بالهدايا من الأراضي الحجازية! أنقذته يد العناية الإلهية، فقد حمله الماء حتي خرج في بلاد الحجاز، وأخبرنا من شاهدوه هناك في الأراضي المقدسة، وكانوا قد جاءوا قبله بعدة أسابيع، ولم نصدق حتي رأيناه أمامنا بملابسه البيضاء وعمامته الكبيرة! ثم همس الشيخ مسعد قائلاً:

- يقولون- والله أعلم- أن الرسول عليه الصلاة والسلام مد يده في مياه البحر وإنتشل الشيخ، وأن أول شيء شاهده عقب خروجه من البحر، هو قبر النبي صلي الله عليه وسلم، بعدها ذهب إلي الكعبة المشرفة وأكمل مناسك الحج، ثم هام في ملكوت الخالق يدعو الناس كما رأيت.

وبعد فاة الشيخ العجيبة جعلت التفاسير والتآليف الكثيرة تلوك حياته، ويدعي كل صاحب كلمة إنه هو فقط العالم ببواطن الأمور. ومن تلك الحكايات التي قتلها المتكلمون كلاماً، كيف بدأ الشيخ الطريق الي الله تاركاً كل الدنيا، وتاركاً مهنة الصيد التي ورثها عن أبيه، وجعل يدعو الخلائق إلي طريق الحق وهو رجل «محمدي» لا يقرأ ولا يكتب! وقال أحدهم مخالفاً الحكاية التي يرويها ابنه الأكبر مسعد:

- الحقيقة غير ذلك تماماً، صحيح إن الشيخ سمع صوتاً يخرج من الماء يأمره

بدعوة الخلق لحب الله يقول: يا عبداللطيف، لله عباد إختصهم بقضاء حوائج الناس، وقد إخترناك لتدلهم علي طريق خالقهم.

- فقال الشيخ: كيف لي ذلك وأنا صياد بسيط فقير أمي لا يقرأ ولا يكتب؟!

- فقال الصوت: كذلك قال ربك، وقد اخترناك، فلم يحتمل الشيخ البقاء في مركب الصيد وقفز في الماء تجاه الصوت، وظل رفاقه يبحثون عنه طويلاً ولم يجدوه، حتي عاد ليؤدى رسالته بعد أن حمله الخضر عليه السلام إلي مدينة رسول الله، قائلاً: من هذه المدينة ومن أمام قبر سيد الخلق ابدأ يا عبد اللطيف.

- وقال رجل آخر: لا تصدقوا حكاية رجال المركب الذين غرقوا وإبتلعهم البحر، إنهم ملائكة وليسوا رجالاً. فكيف لرجل أن يعبر البحر الكبير وحده؟! إنهم ملائكة كانوا في حراسة الشيخ لأنه مطلوب لطريق الله.

- وقال أحد الذين ضاقوا بمثل هذه الحكايات: إن مسعد ابن الشيخ يقول أنهم أقاموا سرادقات للعزاء.

- مسعد رجل طيب، ثم أنه كان طفلاً صغيراً، وكل ما قاله مجرد حكايات يرويها الناس.

الغريب في أمر الحاج عبده أنه كان لا يتكلم في مثل هذه الأمور أبداً، بل يزجر من يتحدث فيها ويغضب غضباً شديداً، كيف لكم تتدخلون في علاقة العبد بالرب، والرب بالعبد؟!

- خلصوا قلوبكم قبل أن تبتلعكم أمواج ذنوبكم، طيروا بأجنحة الرضا والحب، قبل تعفن طينتكم، فتسقط بكم في قاع الغضب وجحيم الهوي. ثم يهب واقفاً ويغني قائلاً: مولانا تولانا، تولانا يا مولانا.

ويعيد ويزيد فيها، وتكون حلقة الذكر قد أكملت، وهو ينغم الكلمات في كل إعادة لها. وكان ذلك دأبه إذا ما حدث شيء يغضبه، فيقوم علي الفور ليطفيء الغضب بأناشيد الذكر.

*****

٢٠

ابن عربي ونبي الله خالد

جن جنون حسين حين علم أن الشيخ السماواتي، كان هو آخر من شاهد الأخضر وقضي معه آخر ليل بعد إختفائه الأخير، وزاد بعضهم قائلاً:

- قلبي يحدثني أن الأخضر قد مات، ولكن السماواتي لا يفصح عن شيء!

*****

حين باح الأخضر بسره المكنون عن شيخه الحلاج، هجر القرية، لا يدري إلي أين المستقر؟! ولا يدري كيف أخذته الأيام والليالي، حتي وجد نفسه للمرة الأخيرة في مقابر المقطم قاصداً ضريح الصوفي الكبير، العاشق الخطير، عمر بن الفارض. كان مولد الشيخ ابن الفارض، غريباً كصاحبه، حيث لا يعلم بموعده إلا خلاصة الأحبة، وخاصة الصوفية، بل أن أكثر رواده من حفظه أشعاره، أو المحبين لها. ثلاثة أيام كاملة بلياليها قضاها الأخضر بجوار إبن الفارض في مقابر المقطم والتي يؤكد المؤرخين بأن تربتها مباركة. ومنهم من يقول بأن نبي الله موسي ناجي ربه بوادي المقطم عند مقطع الحجارة. وقد دفن في تلك المقابر تضم عدد غير قليل من الصحابة وجنود عمرو بن العاص، بل وعمرو بن العاص نفسه. ثلاثة أيام وكأن الأخضر يقدم فيها إعتذاراً كبيراً لابن الفارض، لأنه هجر أشعاره، فقد كان يرفض أن ينشد إلا أشعار الحلاج. قال الأخضر:

- ها أنا جئت إليك أمرغ وجهي في عتبة مرقدك يا حبيبي، فتقبل إعتذاري وأغفر لي جنوني إن كان ما أنا فيه جنون. إغفر لي التقصير، ربما لا أجد العمر لزيارتك بعد الآن؟! واحتملني ضيفاً لا يري غير قلوب أحبائه

مأوي ولا غير وجه محبوبه معشوق، ثم بكي الأخضر وجعل يقبل عتبة المرقد.

*****

كان الليل ، في حضن جبل المقطم ساحراً، البدر يضيء السماء والأرض، ويرسل ضوءه منساباً عذباً كماء النيل علي كل شيء. ورغم حرارة الصيف إلا أن حرارة الشوق ولهيب الحب فرشا عباءة من النداوة والطراوة علي كل ذرة رمل، وكل حجر ومدر وشجر وإنسان في مسجد إبن الفارض البسيط الصغير في حضن الجبل، وفي باحته وشوارع المقابر حوله كانت حُلَقْ الذكر تدور رحاها، أرواح تذوب عشقاً وهياماً وصراخا، ووقف الأخضر بصوته الشجي يغني أشعار ابن الفارض، وكأنه يقدم الإعتذار العملي، للشيخ العظيم.

زدني بفرط الحب فيك تحيرا :: وارحم حشاً بلظي هواك تسعرا

واذا سألتك أن أراك حقيقة :: فاسمح ولا تجعل جوابي لن تري

يا قلب أنت وعدتني في حبهم :: صبراً فحاذر أن تضيق وتضجرا

وجعل يعيد ويزيد في البيت الأخير، وقد تحلق الناس حوله وتركوا الحلق جميعاً، وكَّونوا حلقة واحدة نجمها الشيخ الأخضر الذي يبكي ويُبْكي الناس من حوله. وأختتم الغناء ناشداً:

إن الغرام هو الحياة فمت به :: صباً فحقك أن تموت وتعذرا

وجعل يعيد ويزيد من جديد حتي كاد يهلك ويهلك الخلق من حوله . حتى هدأ الشيخ الأخضر وكان العرق يتصبب منه وكأنه محموماً، بعدها توجه إلي ضريح ابن الفارض واستأذن في الرحيل قائلاً:

- حان وقت الإنصراف يا سيدي، أراك عند الحبيب- إذا أراد- ثم أطلق ساقيه للريح، متوجهاً الي قطار الصعيد.

*****

قالوا: حدثنا الشيخ السماواتي أنه فوجيء بالأخضر يطرق عليه الباب وكانت مفاجأة سعيدة أشد ما تكون السعادة، ولكن الأخضر قال له:

- أبلغ ما تبقي من أحبائي سلامي، وأشار الي صرة كانت في يده، قائلاً: هذا كفني يا تائه، إذا مت عندك لا تقم لي ضريحاً، وادفنني في لحد عميق ولا تدل أحداً علي قبري. وجعل الأخضر ينظر الي السماء يبتسم ويستأذن في زيارة قبر الحسين بن منصور الحلاج في بغداد.

*****

بحث حسين عن الشيخ السماواتي كالمجنون، كان يسأل عنه الأطفال والرجال والنساء.

- رأيته في المسجد يصلي.

- رأيته في الشارع الكبير مع الشيخ عبدالعاطي.

- كان يمشي مع الشيخ فؤاد ذاهباً الي داره وفي دار الشيخ فؤاد ومعهما بعض ما تبقي من الإخوان، ومحبي الشيخ من غير الدراويش، وجدهم حسين يأكلون الخبز الجاف والجبن القريش والطماطم وبعض الخضروات.

إبتسم السماواتي وأقسم أن يجلس حسين بجواره، وربت علي كتفه ثم قبَّله فوق جبينه، قائلاً:

- رائحة الناس الطيبين.

- حدثني عن الشيخ الأخضر، ماذا قال لك؟! ولماذا أخفيت عني ما حدث؟! وما هي آخر قصة سمعتها منه؟ وأين هو الآن؟!

غامت عينا الرجل ونظر طويلاً إلي سقف الغرفة. ومازحه الشيخ فؤاد قائلاً:

- ستتوه مرة أخري يا تائه؟!

فإنفجر السماواتي في البكاء، وبكي لبكائه بعض الحاضرين، وبكي حسين وجعل يربت علي كتفه وهو يقول:

- لما كل هذا الحزن؟

- فقال السماواتي: وهل نحزن إذا قابل الحبيب حبيبه؟! ثم قال: أخبرك الإخوان ، بأمر الأخضر معي.

- ولكنه كان كثير الحكايات الغامضة أحياناً، الخيالية أحياناً، ولكنها جميلة.

- في تلك الليلة لم يتكلم كثيراً، بل ظل في حالة وجد، وكأنه ينتظر غائب يعود أو يتأهب لسفر! وفي الصباح لم أجده، فتشت عنه في كل مكان بالبلدة لم أجده، يبدو أنه سافر إلي بغداد.

- همس الشيخ فؤاد في أذنه: خلي عن الشيخ السماواتي، فهو رجل رقيق الحال، طيب القلب، ولن تجد عنده ما تنشد.

*****

قرر حسين السفر إلي القاهرة، ما عاد يطيق البقاء في القرية، الحزن يكسو ملامحه، ويعتصر قلبه ، تمتم :

- ماتوا جميعاً، وغاب الأخضر، وإنطفأ نور قريتي.! ما بقي غير الشيخ فؤاد، وقلة قليلة من الدراويش البسطاء، فؤاد فقط هو القاريء، فقط هو صاحب الفقه في أمور الحياة وفلسفاتها.

*****

كان أروع هدية يفرح لها الشيخ فؤاد كتاب صوفي، لا يتركه إلا بعد أن ينتهي من آخر كلماته، أو زجاجة عطر يرفعها إلي أنفه آخذاً منها شهيقاً عميقاً ثم يقول بنفس طويل: الله، عطر جميل.

كانت فرحته منقطعة النظير عندما أهداه حسين، كتاب «المواقف والمخاطبات» لفيلسوف الصوفية وصوفي الفلاسفة محمد بن عبدالجبار النِّفَّري، قال عنه:

- هذا أخطر رجل قرأته، بعد الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، ثم ابتسم قائلاً: هذا الكتاب بحق أعظم هدية تلقيتها في حياتي والغريب أنني لم أسمع به من قبل!

- وقال: هذا الرجل لا يجب أن يقرأه العامة أو حتي الخاصة،ف هذا الرجل لخصوص الخصوص، إنه خطر حقيقي، إنني أحار كثيراً فيما يقول، له كلمات لا يمكن شرحها، ما عليك إلا الأستسلام لكلماته وتكتفي بما تلقيه في نفسك من معاني، فقد حاولت معه بالعقل والمقارنة بما قرأت ـ وقد قرأت كثيراً ـ إلا أنني أعجز عن فهم الرجل! الحق يقال، أفلست حياله، لم أجد إلا الأستسلام حلاً وأقنع بما يلقيه في روحي، ربما فتح الله عليَّ في قراءة أخري، ولكن الغريب فيه هذا الإحتواء لمن يقرأه، حتي أنني لا أستطيع الفكاك منه، فالرجل يلاحقك بالدهشة المتجددة في كل سطر من سطور مواقفه ومخاطباته!!

*****

كان أهم ما يميز الشيخ فؤاد، بساطته النادرة، وحبه الشديد للقراءة، فقد كان علي غير عادة أهل الريف، حتي الحاصلين منهم علي شهادات دراسية، يمتلك مكتبة قيمة. جميع ما فيها من كتب لشيوخ التصوف وعلي رأسهم الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي صاحب كتاب «الفتوحات المكية»، ذلك المؤلف الضخم والذي يثير جدلاً كبيراً، وكتاب «فصوص الحكم» وفيه يتحدث عن الحكمه البالغة لخمس وعشرين نبياً، وورد فيه ذكر نبي يسمي «خالد بن سنان»، بُعث في الفترة ما بين نبي الله عيسي عليه السلام، والرسول الكريم محمد- صلي الله عليه وسلم-، وقال أنه نبي أضاعه قومه، بل قال: ان الرسول الكريم فرش عباءته لإبنة النبي خالد وقال:

- مرحباً بإبنة نبي أضاعه قومه.

وحكاية هذا النبي أنه أظهر بدعوته النبوة البرزخية، أي الحجابية التي

تكون في عالم المثال، بعد الموت. فإنه لم يظهر نبوته في حياته، ولذلك لم يعتبرها النبي محمد صلي الله عليه وسلم نبوة عادية، وكان النبي خالد بن سنان، قد أمر أن ينبش قومه عليه قبره بعد أربعين يوماً، ويسألوه فيخبرهم،.

وقال بن عربي في فصوصه: أن النبي خالد بن سنان كان يسكن هو وقومه بلاد «عدن»، فظهرت بينهم نار عظيمة خرجت من مغارة فأهلكت الزرع والضرع، فصمد إليه قومه، وكانوا يصمدون إليه عند النوائب، وكانوا مؤمنين به، فأخذ يضرب النار بعصاه من خلفها ويقول:»بدا، بدا» حتي بردت النار ورجعت هاربة منه، إلي المغارة ثم قال لأولاده وقومه: إني أدخل المغارة خلف النار حتي أطفيها. وأمرهم أن يدعوه بعد ثلاثة أيام تامة فإنهم إن نادوه قبل إنقضائها فهو يخرج ويموت وإن صبروا خرج سالماً. لكنهم لم يصبروا سوي يومين، وقد أستفزهم الشيطان فصاحوا به فخرج من المغارة ويداه علي رأسه من شدة الألم الذي أصابه من صياحهم، فقال لهم: ضيعتموني وأضعتم قولي وعهدي، وأخبرهم بموته، وأمرهم أن يقبروه ويرقبوه أربعين يوماً، فإنه يأتيهم قطيع من الغنم يقدمها حمار أبتر مقطوع الذنب. فإذا حاذي قبره ووقف، فلينبشوا عليه فإنه يقوم ويخبرهم بجلية الأمر بعد الموت عن شهود ورؤية فيحصل للخلق كلهم عين اليقين بما أخبرت به الرسل. وحدث كما أوصاهم به، وجاء القطيع يقدمه الحمار فوقف حذاء قبره. فهم مؤمنو قومه واولاده أن ينبشوا، كما أمرهم، حتي يخبرهم بأدق الأنباء والنبوأت كلها، فأبي أكابر أولاده وقالوا: يكون علينا عاراً عند العرب أن ينبش علي أبينا، فيقال فينا «أولاد المنبوش»، وندعي يذلك ما حيينا ويرثه أولادنا. فضيعوا وصيته وضاعوا.

*****

كان الشيخ فؤاد، يتمتع بشخصية ضحوكة، يصغر مع الصغير، ويكبر

مع الكبير، يخاطب النساء بعقولهن والرجال بعقولهم، يحادث المراهقين والمحبين في الحب واللوعة والعشق، ويحادث الكبار في أمور الأخرة. لا يغضب من الحديث الغليظ، بل يضحك ويحادث صاحبه بالكلام الطيب، حتي يلين ويغير رأيه، فقد كان صاحب جدل رائع، لا يملك معه محدثه إلا الإقرار بصحة ما يقول. وكان يحمل له أهل القرية تقديراً وحباً كبيرين، ويحبون مجالسته، بل ويطلبون منه الفتوى في كثير من الأحيان. وكان نادراً ما يراه الناس لا يحمل كتاباً، فكان ذلك مصدر ثقة في كلامه. كانت تتجلي جلسات الشيخ فؤاد في مسجد القرية بعد صلاة العصر، وبخاصة في شهر رمضان، وله في هذه الفتاوي طرائف عجيبة. لاحظ في أحد الجلسات الرمضانية أن الحاج عيسي أبو عبدالله، يدس يده في ملابسه الداخلية- وتلك عادة منتشرة بين الريفيين القدماء- ويأتي بالبراغيث ثم يقضي عليها بين أسنانه. فقال له :

- يا حاج عيسي دماء البراغيث، تفسد الصيام!

فضحك الرجل ساخراً من تلك الفتوي، وقال متهكماً:

- يا سلام يا مولانا الشيخ فؤاد! دم البراغيث يفسد الصيام؟! يعني مثلاً، لو كنا جوعي فهل تصلح البراغيث غذاء مشبعاً لنا؟! يا رجل كن عاقلاً، ودعك هذه الصغائر! فضحك الشيخ فؤاد ومن معه، وقال:

- أخبرتك وخلوت من ذنبك، وأنت حر فيما تفعل.! فقذف الرجل بالبرغوث بعيداً وهو يقول ضاحكاً:

- ليس وراءك يا فؤاد سوي تعكير الصفو والمزاج، سمعاً وطاعة يا مفتى البراغيث!

*****

وذات يوم رمضاني صائف، جاءه رجل يستفتيه، أنه واقع زوجته في الحقل، فهل هذا يفسد الصوم؟! ضحك الشيخ فؤاد- فضحك المتحلقون

حوله لضحكه- وقال دهشاً:

- أتقول يفسد؟! نعم يا سيدي يفسد الصوم. وعليك بصيام شهرين متتابعين تكفيراً عن هذا اليوم، فدهش الرجل دهشة كبيرة، وقال:

- أصوم شهرين، لماذا؟! إنها زوجتي، حلال!! فماذا لو كانت حراماً؟!

فضحك فؤاد ثانية وقال:

- كان يجب رجمك حتي الموت. فقال الرجل:

- عيب يا شيخ فؤاد لا تهزأ بي، إفتح الكتاب وقل لي؟! * الكتاب يقول: عتق رقبة هل تفهم ماذا يعني عتق رقبه؟! عموماً هذا غير متاح، أو إطعام ستين مسكينا، فهل تستطيع؟! طبعاً، لا، إذن عليك يا محترم صيام شهرين متتابعين دون أن تتماسا، يعني لا تقرب زوجتك في أي يوم إلا بعد الشهرين، حتي تتأدب وتحترم نفسك. فإنصرف الرجل غاضباً مستنكرا وهو يتمتم:

- إطعام ستين مسكين! صيام شهرين! رقبة، رقبة، يا رقبة، ربنا يكسر رقبتك، سأصوم يوماً بدلاً عن اليوم وأمري لله، وسأقطع رجلها بنت الكلب من الغيط طوال رمضان، لعنها الله ولعن الشيطان معها في ساعة واحدة.

ثم تدارك كلماته قائلاً لنفسه:

- فعلاً أنا رجل قليل العقل، وهل يفعلها في الغيط سوي الحمير؟! ولكنها زوجتي حلال سواء في الغيط أو في الدار أو حتى في جهنم الحمرا!

*****

خرج شنواني الشهير بالجرف، يتمتم ويتعجب وهو يحدث نفسه بصوت مسموع مستنكراً، كيف يصوم شهرين كاملين لأنه ركب زوجته- علي حد قوله- ونام معها؟! ثم نظر الي نصفه الأسفل وكأنه يحدثه قائلاً:

- مبسوط يا وش الغم؟! ثم صمت قليلاً، بينما رأسه يدور بما حدث، وقد آلمه ضحك الناس وسخريتهم منه، واذا به يحدث نفسه قائلاَ:

- من يفتش سيجد أكثر هؤلاء الذين كانوا يتشدقون ويضحكون عليَّ،

ويبرمون شواربهم، أولاد زنا، «طلاق بالثلاثة أولاد زنا»، ولولا أن الله سبحانه وتعالى سابل ستره عليهم لرأيت فضائح لا حدود لها. ولكنهم يضحكون وكأنني الوحيد الذي أخطأ في هذه القرية الملعونة! ربنا يكشف ستره عنكم حتي تحلقوا شواربكم يا بلد يا كفره، طلاق بالثلاثة لن أصوم سوي يوم واحد، وهذا آخر كلام عندي ويحدث ما يحدث. ما أن إنصرف الجرف وسط ضحكات الرجال، حتي تنحنح أحد الجلوس، وقال:

- قل لي يا شيخ فؤاد؟ فأنتبه اليه الجميع وضحكوا، فالرجل صاحب نكتة وخفيف الظل، ظريف الكلام، وتوقعوا كلاماً ساخراً. قال الرجل:

- سمعتك تقول أن الذي يأكل أو يشرب في نهار رمضان وهو ناسياً فقد أطعمه الله وسقاه ولا يبطل صومه، هل هذا الكلام صحيح؟! غالب فؤاد ضحكه وقال:

- نعم صحيح، فما قلت هو حديث نبوي شريف. فقال بطريقته الظريفة:

- يعني الصوم صحيح، ولن ترجع في كلامك؟!

- ماذا فعلت بالضبط؟!

- كنت في الغيط ورأيت كيزان الذرة أستوت وتراصت ونضجت، فأخذت سبعة كيزان وشويتها وأكلتها، ولم أتذكر أنني صائم إلا في آخر الكوز السابع. فإنفجر الجميع في الضحك، وقال الشيخ فؤاد:

- يعني جمعت الحطب وأشعلت النار ونزعت الكيزان من أعوادها، وجعلت تشويها، كل هذا ربما يستغرق أكثر من ساعة ونصف ساعة، ولم تتذكر في كل هذه الأحداث أنك صائم؟! ولم تتذكر إلا في آخر الكوز السابع؟!

- قال الرجل: هذا ما حدث، وهل سأكذب عليك؟! فواصل الجميع ضحكاتهم، بينما الرجل يسأل الشيخ فؤاد:

- دعك من الضحك وقل لي، الصوم صحيح أم باطل؟! فقال فؤاد:

- الصوم صحيح ولكن أنت باطل، إذهب عني وإلا كسرت رأسك. فقال بطريقته الساخرة:

- يا سلام، هل نسيت يا فؤاد إنك كنت تسرق الذرة والقطن مع المرحوم.... ثم سكت فجأة قائلاً:

- لا داعي فقد ذهب الي رب كريم! كان من طبيعة الشيخ فؤاد تحّمل مثل تلك الكلمات، بل يقابلها بالضحك، وربما زاد في ذلك قائلاً:

- كان ذلك فيما مضي، أيام الجهل، يا أبا جهل . ثم يعاود القراءة من جديد في الكتاب الذي معه. وكان الكتاب المفضل لديه في الحديث مع الناس «إحياء علوم الدين» للإمام أبو حامد الغزالي، أما كتب التصوف والرقائق والكلام الدسم- علي حد قوله- فله المجالس الخاصة.

وكان من العلامات البارزة في شخصية الشيخ فؤاد، حب القراءة، وحب الإستماع لمن يقرأ والإستمتاع، حتي وإن كان مريضاً،. فيأتي بكتاب ثم يدفع به الي أحد الجالسين يتوسم فيه إجادة اللغة العربية ويقول له:

- إقرأ لنا أي شيء يا شيخ.

وعندما يصادف قولاً مؤثراً أو كلاماً به إشارات معينة يصيح معجباً:

- الله، الله، الله، أعد هذا الكلام مرة أخري، يا شيخ الله يكرمك.

وكان مفتوناً بالشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، وبالشيخ أصيل وكلامه الغريب العجيب، ثم بعد ذلك، أحاديث النساء! وكان العامة وبعض الشيوخ، يأخذون عليه ذلك، لكنه لا يأبه بهم، ويصفهم بالجهل شيوخاً وعواماً. ويقول:

- دعهم يقولون، متي كف الناس عن الكلام؟! إنهم يتقولون علي خالقهم، فما بالك بمخلوق، مسكين مثلي؟! إنهم لصقوا بالنبي الكريم أوصافاً كاذبة فاجرة قالوا عنه ساحر.. وشاعر.. و.. ولصقوا بخالق الكون أوصافاً قذرة، قالوا يد الله مغلولة، بل نسبوا إليه ما لا يليق برب الأرباب.،وفيهم الكفار

والملحدين . ثم يضحك قائلاً:

- لقد عاتب الله سبحانه وتعالي، أبا الأنبياء ابراهيم عليه السلام في ضيفه الكاف، عندما رفض إطعامه لكفره، وقال له: إحتملته ستين عاماً علي كفره يا ابراهيم، ولا تحتمله لطعام واحد؟ وكان يقول:

- في النساء حنان لا تجده عند الرجال، هن رحمة الله علينا، وقد خلقهن من أضلاعنا. ثم يضحك قائلاً:

- وأنا أحب حديث أضلاعي، فهل تكرهون أحاديث أضلاعكم؟! أنتم أحرار! ويقول: إن الحب السماوي لابد وأن يبدأ بحب أرضي، لابد وأن يتدرب القلب، حتي لا يُصعق، كما صعق نبى الله موسى. ألا تري أن لاعب الكرة لا يمكنه اللعب، دون أن يسخن عضلاته، خارج الملعب؟! والحب الإلهي رياضة روحية، لا يمكن لها أن تكون إلا برياضة قلبية أرضية، أنثوية!! وكان يحتفي بضيفه سواء بالحديث أو تقديم كل ما عنده من طعام، دون حساب لعواقب الفقر وقسوته.

*****

٢١

الأخضر وقلب حبيبتى الأخضر

بعد صلاة الفجر إنصرف المعزون الي ديارهم فتركوا فراغاً وصمتاً موحشاً اجتاح روح حسين، فقد كان يشعر بدفء وهو معهم، يسمع قصصهم وحكاياتهم، والتي تدورحول حبهم لجده مما أشاع في روحه، رغم حزنها العميق، راحة أحدثتها الكلمات الدافئة. وكم كان سعيداً في حزنه وهم يروون كرامات جده ـ رحمة الله ـ فقد أقسم من حملوا نعشه إنه كان يحميهم من الإنزلاق والوقوع علي الأرض الوحلة بفعل الشتاء شأن كثير من الناس الذي لا يحملون النعش!

- قال أحدهم: تعلمون يا إخوان، أن الكذب علي الموتي حرام- وأشهد الله بما سأقول الآن- لقد رأيت عجباً في قبر جدك، ولغرابة ما رأيت، لم أستطع قوله حتي الآن، ولكنها أمانة. كانت رائحته ذكية جداً- أي والله العظيم- لم أشمها قبل ذلك، فى قبر. ورأيت في مكان وضع جثمانه ثلاث لمبات من نور أخضر موزعة بطول الجسد!

- تعالت الأصوات: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

وقال من حضروا عملية الغسل: كان مبتسماً دائماً إبتسامة الواثق من رحمة ربه.

في تلك اللحظة وبعد إنتهاء الكلام هجم علي ذاكرته ما شاهده صغيراً عند وفاة والدة جده، جدته الكبري «ورد الشام»ـ هكذا كان أسمهاـ كانت تعرف مواقيت الصلاة، وبخاصة صلاة الفجر من خلال نظرها إلى نجوم السماء من شباك غرفتها. كانت ليلة وفاتها عجيبة وهي تخبر من حولها،

بعد تناول طعام العشاء معهم، أنها ستودعهم الليلة. وضحك الجميع غير مصدقين مؤكدين أنها تمزح فقد كانت تتمتع بصحة جيدة، ولكنها استمرت في كلماتها توصي وبخاصة النساء أنها بريئة من البكاء عليها أو الصراخ و النواح والتعديد، بل أوصت عند خروجها من البيت أن تطلق أحدهن الزغاريد. فهي ذاهبة لما هو أعظم وأحسن، ولا يتفق ذلك بطبيعة الحال مع الحزن والنواح. كان مشهد وداعها عجيباً أيضاً! فلم يري حسين جنازة مثل جنازتها، فقد رفع الدراويش الرايات والبوارق الخضراء المنقوش عليها لفظ الجلالة، واسم النبي الكريم، والآيات القرآنية، فوق نعشها، وهم يرددون: الله.. الله.. الله.. الله.. الله.. الله. مشهد آخر استدعته الذاكرة، لجده وهو يركب الحصان وحوله الرايات الخضراء والحمراء والسوداء فيما يسميه الدراويش، «زفة الخليفة»، فقد كانت جده لوقت طويل خليفة «سيدي علي العقيبي»ـ أحد أولياء الله ـ وكما هي عادة الصوفية يكون لكل ولي خليفة يرعي شئون الضريح ويشرف علي المولد، وكان النساء يرفعن إليه أطفالهن ليمسح بيده علي رؤوسهم لتنالهم البركة.

*****

تركه المعزون نهباً للذكريات والكلمات والوجوه التي حفرت ملامحها في ذاكرته منذ الصغر والكلمات المفهومة وغير المفهومة... وكان دعاء جده المفضل، «طيّب يارب» يتردد في مناحي نفسه وروحه، ويشعر به في كل مكان حل به، ويشعر بيد جده وهي تربت فوق كتفه بحنان دافق كأنه يقبله فوق صدره جهة القلب، ثم يقول:

- الله طيب ولا يقبل إلا الطيب. ولذا أدعوه ليطّيبهم. ثم قوله: استودعك سراً يا أشبه الخلق بي خَلقاً وخُلقاً: ذات ليلة سمعت الهواء والأشجار، والساقية والمصلي وقش المصلي وسورها الطيني الصغير، والزرع والنباتات الصغيرة، وقناة الماء والماء وجدران البيت، وكومة القش هذه التي

أمامك في الجرن، وتراب الجرن، وصدي صوتي، ونداوة الليل الطرية الساحرة، ونجوم السماء والسماء، سمعتهم ورأيتهم يتمايلون كأنهم في حلقة ذكر، ويرددون هذا الدعاء: «طيّب يارب، طيّب يارب، طيّب يارب». ثم غامت عيناه ودمعت وتهدج صوته وهو يدعو من جديد: طيّب يارب. وأخذته عبرة البكاء، فبكي بل إنفجر في البكاء، وهتف: «طيّب يارب»، «طيّب يارب» لتختلط الكلمات بالدمعات الساخنة.

*****

آثر حسين أن يقضي الليل الثاني لوفاة جده وحيداً في قاعة الدراويش، يشم رائحة الزمن الجميل الذي حرمه منه القدر منذ سنوات طوال، فكم كان مشوقاً لهذه الوجوه وتلك الكلمات التي تغسل القلوب وتزرعها في أرض النور. حزن حزناً بالغاً لعدم رؤية الشيخ الأخضر، سأل عنه الدراويش أو على الأصح من تبقي منهم بالقرية، فقد إنفرط عقدهم وتفرقوا عقب هجرة الشيخ عبداللطيف، وما عاد الشيخ أصيل يأتي إليهم الا لماماً، ومات الكثيرون منهم.

- قالوا: منذ خروجه من القرية قبل سنوات لا يعرف أحد أين هو، وهل علي قيد الحياة أم مات؟!

أين أنت يا أخضر؟!هتف حسين بعد أن إعتصرته الأحزان لعدم رؤيته، ورغم فراقه له منذ سنوات طوال إلا أن شيئاً ما كان يبعث الدفء في نفسه وهو يتخيل أنه سيقابله، يبل صدي روحه بكلمات الأخضر الرائعة. سيحكي له همومه وعذاباته التي كانت ستذوب حتماً علي عتبات حروف كلماته الجميلة الطيبة، وكان كلما حدث في حياته حدث ما يراه أمامه- وكأنه رأي العين- يحدثه يشكو له.

*****

وكان يرتب الكلمات، ينمقها يهذبها فهو في حضرة أستاذه الكبير، ويعيد صياغة المبررات التي دفعته ليفعل ما فعله، ويراه يشير بيده مبتسماً أن يكف عن سرد أية مبررات قائلاً:

- وأين سيفر الإنسان من قدر كتبه خالقه في «اللوح المحفوظ» من قبل خلقه؟!

أين أنت يا أخضر؟! قالها حسين مجدداً، أين أنت لأري حبك العبقرى وأنا طفل أقوم بخدمة أهل الحضرة، أحضر لهم الطعام والماء والشاي والقرفة والقهوة. وها هى كلمات الدراويش عني ووصفي بالأخضر الصغير، تتردد واذا بك تضحك قائلاً:

- بل قولوا الأخضر الكبير، فهو رغم حداثة سنه، بسم الله ما شاء الله، أري في عينيه جنوناً عظيماً. ثم تقبلني فوق موضع الصلاة في جبهتي، ويزعق أبو الشعور:

- الله في الجنون.

آه.، أين أنت يا أخضر..؟!أين أنت يا أخضر؟! كنت أرجو لقاك، أرتمي فوق وسائد كلماتك، تمسح بحروفها سطور همومي، أريد البوح لك، لك وحدك دون الخلائق بالحب العنيف الذي يعصف بقلبي ويعذبني عذاباً لا حدود له، ولا أمل فيه، ولن يكون، أعلم جيدا، وهي أيضاً! أريد أن أسألك، هل هذا هو الجنون العظيم الذي رأيته في عيني منذ ثلاثين عاماً؟! أم ماذا؟! أين أنت يا أخضر لتري بنفسك نبوءتك، اذ لم يكن هناك جنوناً أكبر، ولكن أي جنون أكبر من هذا الجنون؟! أين أنت يا أخضر لتري عصا القدر تسوقني إلى قلب إمرأة خلفها طفلين وزوج تتمناه نساء كثيرات، ثم تسوقها نفس العصا بعنف شديد الي قلبي..؟! أين أنت يا أخضر؟! وماذ ستقول..؟! وهل سأتحول أنا وهي الي حكاية عشق مجنون كالتي تحكيها للدراويش؟! وماذا يخبيء لنا القدر؟! وحدك يا أخضر كنت ستقول كلاماً يختلف عن جميع

الخلائق، رغم أنك عشت عزباً لم تتزوج ولا ترغب. كم أنا محتاج إليك، محتاج لأن أقول لك، أبوح، أشكو ما أنا فيه وما هي فيه، رأيتها يا شيخي أول ما رأيتها وليتني ما رأيتها، فقد أحرق القلبَ وهجُ عينيها، وتسمرت عيناي في ملامحها الملائكية، تسمرت عيناها في ملامحي والدهشة تتناقل بيننا حائرة، هل رأيت يا شيخي دهشة حائرة..؟! لم ينزعنا من موقفنا سوي حضور مدير المدرسة التي أعمل بها والذي قال وكأنه لسان القدر:

- خذ الأستاذة الي مكتبي، وساعدها فيما تطلب.
- همستُ في نفسي: أراها تطلبني وأنا أطلبها!

بين ذراعيَّ حملت طفلتها بنت الخمس سنوات بحنان فقد غمرني إحساس أنها ابنتي أنا، الناظر.. إستجمعت شتات نفسي من حالة الإرتباك الذي إنتابني وربما إنتابتها أو هكذا تخيلت. جاءت لتدفع المصروفات الدراسية لأخيها طالب الصف الأول الثانوي.

لم أنم طوال الليل، وكيف يا شيخي وقد سلبت عقلي؟! في الخامسة صباحاً، رن جرس الهاتف، جاء صوتها هامساً موشوشاً، وكأنها تخفي سراً ربما عن الهاتف نفسه:

- نمت؟
- لا
- لماذا؟!
- لا أدري..!
- وإنتِ؟!
- لم أنم.
- لماذا؟
- لا أدري. عاودني الإضطراب مرة أخري، قلت لها:
- ماذا فعلتِ بي؟!

والله يا شيخي كنت أشم رائحتها- التي ربما سرقتها من جنة الفردوس الأعلي- ملأت حجرة نومي. رأيتها تبتسم بدلال أنثوي رائع، وتقول:

- ماذا فعلت؟!

دون ترتيب للكلمات كعاشق أضناه الجوى وبعثره الشوق، وفجأة استجمع أوصاله، همست:

- أحبك.

ما جن عقلي وخطف قلبي أنها همست في نفس اللحظة:

- أحبك.

آه، أين أنت يا أخضر؟! لا تتركني يا شيخي، لا أستطيع البوح لغيرك، لا أستطيع إفشاء أسراري لسواك، فهل هذه يا مولانا المرأة التي رأيتها في نومي منذ ثلاثين عاماً، تشبهها جداً، نفس الروح التي تملأ من يومها روحي؟. وإختلطت دموعه بتمتماته ثم خرج الي الطريق لا يدري، الي أين؟! وفي طريقه صادف الشيخ أبو الشعور. نظر إليه والحزن يكسو تضاريس وجهه، قائلاً:

- هل مات الأخضر يا أبا الشعور؟!

زعق ملء صوته وقد إغرورقت عيناه بالدموع قائلاً:

- الله في الموت.

ثم إنصرف وهو يضحك لكن الحزن يرن في مناحي ضحكاته، ويردد:

- الله في الموت، الله في الموت.

ذهب حسين الي الحقل، ربما هرباً من الناس، وصورة الأخضر لا تفارق عينيه.

- آه يا شيخي الحبيب، كنت هانئاً سعيداً بقراري الأخير وعزوف نفسي عن الزيجات الغريبة التي ما كانت تليق بمثلي، وفرحت بحريتي، ومضت الشهور وأنا سعيد بإنتصاري علي نفسي وحصولي علي حريتي. ورأيت في

أحاديث صديقي ياقوت والصديق الجديد محيي الدين وشطحاته التي كنت أتمني أن تسمعها منه لأسمع رأيك فيها، أنساً وراحة ودفء رائع أعادني الي انسانيتي ، التي أفتقدها طوال سنوات الزواج الغريب. كنت أمرح في حريتي، حتي سلبتها بسيوف عينيها مرة أخرى، جاءت «روضة» يا شيخي،، وكان ما كان! ومازلت حائراً فيما كان، هي حقيقة «روضة» من رياض الروح والعشق الغريب. شيء مختلف، رائعة الجمال، عينان فيرزيتان، نجلاوان، جسم متناسق الروعة. وفوق هذا وذاك روح عبقري لا حدود لرقتها ولطافتها، عذبة الكلمات، حادة بعض الشيء في مناقشتها مع الناس، لكنها معي كأنها سكري نشوانه، لماذا؟! لا أدري؟!

- قالت: حلمت بك كثيراً، وعندما رأيتك صرخ قلبي بين ضلوعي: إنه هو، لا تدعيه يضيع منك!!

- وقالت: لن أقول زوجوني صغيرة رغم عني وأنا لا أحب زوجي... و... و... فذلك مضيعة لوقتنا، وكلام يليق بغيرنا، ممن يطلبون الخطيئة- وقانا الله منها-.

- ولكن...

- لا شيء سوي أن تكون أخي وحبيبي، أو حبيبي وأخي، أما ما سبق من عمري فكنت أتمني أن يكون معك، ويكون أبنائي منك أنت، وطالما كانت إرادة الله لغيرك فأدعوه أن أراك دائماً، أستمع لحديثك. أما الغد ففي حسبان الله، إذا أراد جمعنا وإذا لم يحدث في الدنيا فأرجو أن يكون في الآخرة إن شاء الله.

- واذا دخلت أنا النار فما العمل؟!

- سأدعو الله بحق طاعتي له وحفظي لحدوده،،أن يعفو عنك لأجلي.

ثم ضمتنا ضحكة تفيض عذوبة.

- «روضة» أغرب عاشقة رأيتها، كثيراً ما تطلب مني أن أتزوج حتي

أستقر في حياتي وأفرح بأولادي وأن أطلق اسمها علي ابنتي التي سأنجبها حتماً.

- قلت لها: ألا تغاري كما تغار النساء؟!

- ابتسمت قائلة: لا أريد أن أقول إنك أخطأت الفهم..! فما بيننا ليس الفهم وليس الجسم، ولكنها الروح، يا روعة الروح... وطالبتني أن أختار لها اسماً جديداً لا يناديها أحد به غيري، وقالت أن ميلادها الحقيقي هو يوم أن ألتقت عيوننا وقلوبنا وكان لها ما أرادت.

*****

كانت «روضة» واسعة الثقافة تحفظ الكثير من الشعر، خاصة الشعر العربي القديم، تحفظ الكثير من سور القرآن الكريم والحديث النبوي، ارجعت الفضل في ذلك لوالدها- رحمه الله-، فقد الحقها بكتاب القرية وهي طفلة صغيرة فشبت علي حب الآداب وفنون الثقافة. أعجب من ذلك كله طفلتها الصغيرة التي تعلقت بي بصورة غريبة، وتعلقت بها وكأنها إبنتي الوحيدة..! ابنتها الغريب التي تشعر بأحاسيس أمها وأحاسيسي، وتقول كلاماً أكبر بكثير من سني عمرها..! ابنتها صاحبة المواهب العديدة الرائعة. همست في أذني بعفوية شديدة:

- «ماما تحبك كثيراً فحافظ عليها»... فدهشت دهشة لا حدود لها، كيف لطفلة أن تعرف خبايا النفوس؟! وتتصرف كأم توصي لابنتها..!

- ابنتها التي قالت لأمها: لن تنسي حبك له حتي آخر يوم في عمرك... وكم كانت دهشة الأم ودهشتي بتلك الكلمات حتي ظننت أن من يتكلم ليس البنت، وإنما جني يلبسها.

ابنتها التي كانت تدخل علي أمها وهي تحادثني في الهاتف فتقول لها أنها تتحدث معي، فتنكر الأم فتقسم البنت أن كلامها صحيح، وتلح علي أمها أن تمنحها الفرصة لتحدثني ولا تجد أمها بداً من تنفيذ ما تطلبه.

ابنتها التي أخذت يدي في أول لقاء بيننا عند بوابة المدرسة، لقاء الدهشة لتضعها في يد أمها، ولا أدري حتي هذه اللحظة، كيف فعلت ذلك؟! ولماذا؟! حاولت كثيراً يا شيخي أن أتحرر من أسر حبها، رويت لها عن حبي القديم، عن وسائد الشوك التي تقض مضاجعي منذ أن فقدت حبيبتي التي لا أستطيع نسيانها ولا أدري لها أرضا ولا أعرف لها حالاً ولا أجد من أسأله عنها.. و.. و...

- إبتسمت قائلة: هذا الوفاء النادر يجعلني أذوب فيك عشقاً، وحبي لك لا يعرفه الشيطان ولن يعرفه، ألا تعرف أن الحديث النبوي الشريف، يقول: من أحب فأعف فمات فهو «شهيد»؟! ألا تحب أن تكون شهيداً؟! خذ بيدي يا شقيقي الحبيب، وحبيبي الشقيق، حتي لا أموت كمداً، كل ما أرجوه أن أراك، أسمع كلماتك..!

كنت أحاول يا شيخي إدعاء القسوة معها والبعد عنها خوفاً عليها وعليَّ، ولكنني كنت أتمزق في داخلي، أطلب منها البعد وأنا أود أن أفتح صدري لأضعها في قلبي وأغلقه عليها. ولا أدري لماذا؟! أهو الحب يا شيخي أم الجنون؟! أتمني أن تراها، تري قلباً أخضر، يا شيخي الأخضر! ثم هتف حسين يائساً:

- أين أنت يا أخضر؟! رحماك تكلم يا رجل؟! وإنحدرت دمعات علي خديه. بينما كانت صورة «روضة» تبتسم له وتهمس له معاتبة لا تفشي أسرارنا يا مجنون، فالملائكة ترفرف بأجنحتها علي قلبينا..!

*****

«روضة» طفلة عذبة الملامح، أخذت عن أمها ميراث حسن وجمال يلفتا النظر منذ الوهلة الأولي، وكان والدها رجل علم ودين قتلته السياسة ورثت منه اللسان الفصيح والعقل والراجح، وتلك صفات قلما تجتمع في إنسان واحد، إلا أن القدر لم يمهل هذا الأب ليزوج ابنته ممن هو آهل لها، فزوجها

إخوتها الذين إبتعد عنهم ميراث العقل الراجح، لصديق أحدهم وكأن البنت عبأً يجب الخلاص منه! زوجها يكبرها بسنوات، بسيط الحال، ورغم ذلك بثت فيه روح الطموح وعملت معه في التجارة، حتي صار يمتلك ما يمكن الحديث عنه، إلا أنه ككل سفيه يمتلك مالاً أراد لنفسه حياة جديدة وعالم جديد يشعر فيه برجولة جديدة فسلك طريق الخمر والساقطات. ومن عجيب أموره أنه كان يذهب بصورة معهن الي «روضة» ليؤكد لها أن كل نساء الدنيا تهواه وتريده، والدليل هو هذه الصور وكأنها جوهرة ثمينة في حوزة لص غبي. بطبيعة الحال لم يواجهها مباشرة، وإنما يترك بعضها في ملابسه، أو تحت السرير وخلف الأبواب، يلقي البعض الآخر في أدراج مكتب المحل التجاري. حاولت معه كثيراً لكنها لم تفلح، بل رفض طلاقها الذي طلبته مرات عديدة، وحارت بين إخوة لا يريدون إضافة أعباء علي أعبائهم، ورجل لا عقل له، فتكومت علي أحزانها، وكان بمقدورها- اذا أرادت مثل مسلكه- أن يتبعها أعاظم الرجال، وبسطوتهم كان بإمكانها إذلاله والخلاص منه، لكنها نفس نقية لا تعرف الخطيئة، مريمية الأخلاق، يعجبها من كلام النساء هند بنت عتبه زوجة أبي سفيان حين قالت للنبي محمد- صلي الله عليه وسلم-، وهن يعاهدنه علي الإسلام وملء حروف كلماتها دهشة وإستنكاراً: أو تزني الحرة؟! حين طلب الرسول الكريم منهن العهد قائلاً: ولا تسرقن ولا تزنين... و... و...

*****

عاشت «روضة» صاحبة الجمال النادر والعقل الراجح حياة لا جمال فيها ولا عقل حتي وجدت حسين، فكان مع قسوته التي إدعاها روحاً لطيفاً تهرب إليه من جهامة الأيام. لا ينسي وصفها له ذات يوم:

- أنت ظالم !

- فضحك قائلاً: أنا؟!

- فأجابت بحزم شديد وعيناها المريمية تغرورق بالدمعات وتطفح بمرارة الأيام: ومن غيرك؟! أقبل الظلم والقسوة من كل الدنيا إلا أنت، فلا تهرب مني مرة أخري وأمنحني القوة حتي أحتمل الحياة يا أغلي وأعز ما في الحياة.

*****

٢٢

فواز ... القاتل القتيل

تتعود حسين في زياراته للقرية أن يبدأ أولي خطواته علي ترابها بزيارة المقابر. حيث والدته التي يعشقها، وجده الذي كان أشبه الخلق به في روحه الطيبة وقلبه الواسع وصورته التي ورثها عنه، ثم جدته الطيبة التي لم تعرف سوي التسامح خلقاً، ويلذ لها التعب والجهد في خدمة الاخرين وتخفيف الآلام عنهم. فكم أيقظوها في جوف ليل الشتاء القارص لمداواة مريض، فما كانت تتبرم أو تدَّعي الارهاق بل تنشط، كما لو كانت ذاهبة للقاء حبيب عاد بعد غياب طويل. أحيانًا كان حسين يصطحب والده معه، فقد أزالت المصائب التي ألمت بهما حالة الفتور التي خلفتها مواقفه السلبية تجاه مافعلته زوجته الجديدة في قبر والدة حسين. ولكنها هي الاخري ماتت وماعاد غير الحزن يسكنه، لدرجة أن حسين اقترح عليه بعد أن عاد الحوار بينهما الزواج مرة أخري، ولكنه قال في أسي:

- لم يعد في النفس متسع لذلك ياولدي!

وبعد فترة من الصمت، قال الرجل في فرح طفولي:

- هل تعرف لي عروس تناسبني؟! وقد جال في ظنه أن حسين يرشح له عروساً قاهرية.

دهش حسين وجحظت عيناه وقال ضاحكا:

- أنا ..؟!

- انت يا والدي خبير عظيم في دنيا النساء، إنها الميزة الكبيرة التي يحسدك عليها رجال القرية، ثم تسألني أنا؟!

- ابتسم والده قائلاً: كان ذلك فيما مضي، أما الأن فقد أكل الحزن قلبي.
فنظر اليه حسين نظرة ذات معني قائلاً:
- ماعليك إلا أن تعلن رغبتك، وستجد ألف امرأة تحت قدميك، فإن لك يا والدي عليهن سحر عجيب! فضحك الوالد طويلاً وكأنه استعاد شباب وفتونه وهو يقول:
- جزاك الله ياحسين، هل نسيت يا ولد انني أبوك، تحشم ياولد عيب؟!
وكاد الرجل يحدثه، بما يعتمل في صدره من أحزان حول ما باح به حسين للدراويش عن كثرة زيجاته، لكنه أمسك لسانه خشية أن تعود القطيعة بينهما، واكتفي بأن همس في نفسه:
- يابن الكلب!
ذات مرة صادفهما قبر تهدمت جوانبه، فتوقف عنده حسين ونظر بداخله فرأي عظاماً بشرية، فسأل والده دهشاً:
- قبر من هذا..؟! اليس له من يقومون باصلاحه وترميمه وستر ما به من بقايا بشرية؟!
- انه قبر الريس فواز، وكما تعلم هجر أولاده القرية بعد وفاته بسنوات قلائل، بعد أن قاطعهم الاهالي واعتزلوهم وأعلنوا كراهيتهم لأبيهم ويسخرون من سيرته المليئة بالقسوة والجبروت والفزع والقتل حتي أراح الله الدنيا من شروره.
- لكن الموت، يضع حدا للشماته والسخرية.
- لم يستطيعوها في حياته ففعلوها بعد موته.
- ألا يوجد في القرية رجل رشيد يحذرهم من ذلك الجنون ويعيد اليهم انسانيتهم؟!
- حاول البعض اصلاح القبر، أو حتي تسويته بالأرض لتغيب عظام الرجل تحت التراب ومعها سيرته، فتعرض لهم الشباب وحذروا من يفعل

بإحراق داره وتخريب غيطه، وبرروا ذلك بأنه عبرة لمن تسول له نفسه ظلم الناس، وكادت تكون فتنة لولا ستر الله. ثم ابتسم ساخراً:

- صاحب مشاكل ومصائب حياً وميتاً؟!هل تصدق أن الشيخ عبد الشكور نفسه إمام وخطيب المسجد، مع انه يستطيع اقناع الشيطان لم يفلح في اقناعهم بأن مايفعلوه معصية لله.

وتطاول عليه عبد المعز ابن الحاج مبروك وقال له:

- كنا نصدقك فيما مضى، أما الأن فلو حلفت علي الماء يجمد، فلن يصدقك احد!

وضحك البعض ساخراً من الشيخ:

- اسكت ياولد يا عبد المعز حتي لايري الشيخ مناماً يدخلك فيه النار؟! كما رأي حضرة النبي يأتي له بنتيجة الإنتخابات ويؤكد لفضيلته فوزه فيها ودخوله البرلمان.!

كانت مسخرة بلا حدود لدرجة أن الولد جعيصة ابن شريفة الغزية وقع علي ظهره من شدة الضحك ورفع رجليه وجعل يرفس الهواء ويقول:

- برلمان، يابرلمان!

ولولا تدخل الست حربية عمدة القرية، لحطت علي رأس الولد جعيصة المصائب والاهوال، مثل التي أصابت عاد وثمود، كما قال الشيخ عبد الشكور والذي جعل ينفخ ويتطاير الشرر من عينيه وكاد الدم يقفز من خديه الناعمين ويهدد بحبس من يطول لسانه وانها المرة الاخيرة التي سيتسامح فيها مع هذه البهائم التي لا تعرف قدر عضو البرلمان، ولا مدي خطورته إذا سلك مسلك الشر والضرر، ويجهلون أن البلد تمر بظروف حساسة وقانون الطوارئ جاهز لردع هؤلاء الإرهابين وأمثالهم.

*****

كان الشيخ عبد الشكور، قد لمعت في رأسه فكرة ترشيح نفسه لعضوية

مجلس الشعب. ولكنها تجربة جديدة عليه وللسياسة رجالها، وهو رجل دين، إلا أن حاشيته زينت له الفكرة ورأوا أنهم سينالهم خيراً وفيراً، وهم الذين سيتولون الدعاية، وبالتالي فأموال الشيخ التي بخل بها سنوات طوال ستجري في أيديهم ولا رقيب عليهم سوي ضمائرهم التي تنام إذا حضر اللحم والفاكهة. وفكر الشيخ في شيء يملك به ناصية قلوب، أهالي الدائرة الانتخابية. فأوعز إلي حاشيته ذات ليلة مقمرة أنه رأي في المنام رجلاً يكسوه البهاء والنور، يلبس أبيض في أبيض، يبتسم له وفي يده ورقة بيضاء، فيها عدد كبير من الأرقام الحسابية. وصمت لحظة وقال:

- ربما كان عدد الاصوات الانتخابية التي سأحصل عليها... فهلل الناس وكبّروا وقالوا:

- هنيئاً لك ياشيخ عبد الشكور، انه رسول الله... فردد الشيخ بصوت مسموع: صلي الله عليه وسلم.

- جاء يبشرك بالفوز والنجاح ياشيخ عبد الشكور.

* إن شاءالله، إن شاءالله.

وسرت شائعة المنام سريان النار في الهشيم. وملك الشيخ عبد الشكور نواصي القلوب والاصوات الانتخابية، بعدها تبخرت الوعود والعهود وظهرت النعمة علي الشيخ واحمر وجهه المستدير أكثر، وارتفع بنيان منزله الجديد الكبير بعد أن باع داره القديمة وابتاع قطعة أرض زراعية مجاورة للقرية، ورغم مخالفة ذلك للقانون تعددت فوقها طوابق منزله الجديد الفخيم وكأنه أحد قصور الجنة التي يصفها للناس في خطبة الجمعة. ورأينا الأكابر زملاء الشيخ في الحزب يزورونه في كل وقت.

بعدها شعر الناس بخيبة الأمل في رجل الدين، بل ان منهم من انقطع عن الصلاة خلفه في المسجد، ومنهم من انقطع عنها نهائياً.

*****

نظر النبوي عبدالله والد حسين ناحية قبر الريس فواز، قائلاً:

- لا مؤآخذة يا ريس فواز، وإن كان لا يجوز عليك إلا الرحمة، ولكنك ترفض أن ترقد في سكون!

- تمتم حسين: لو علم كل جبار نهايته القاسية لعاش مثل طفل أبيض القلب، جميل العقل، ولكنها الحياة التي ترضعنا شرورها وفتنتها!

- هل تصدق يا حسين يا ولدي، أنني أشفقت علي الريس فواز في أخريات أيامه بعد أن أذله السجن وجاء الي القرية شبحاً ممصوص الوجه هزيلاً يمشي متوكأً علي عصاه، ساعتها لم يصدق الناس أنه هو، لأن الجميع رتبوا أنفسهم علي إستقبال جثمانه بعد أن يتم فيه حكم الإعدام الذي صدر ضده لجريمة القتل، التي إرتكبها وكشفتها أجهزة الأمن.

ورغم معرفة حسين بتفاصيل كل ما حدث بالقرية، ومن عاش ومن مات، ومن ٌولِد ومن تزوج، ومن أعفي من التجنيد. بل كان يعرف أسماء إناس كثيرين وأحوالهم دون أن يعرفهم أو يراهم ولو مرة واحدة. وذلك من أفواه زوار الحسين والسيدة زينب في كل عام. إلا أنه كان ينصت لوالده جيداً وربما رسم الدهشة علي وجهه واستفسر عن أشياء يعلمها! مجاراة للحوار والأنس والألفة التي إستعادها مع والده ولا يرجو زوالها.

*****

فرحت القرية كأن لم تفرح من قبل حين جاءهم خبر القبض علي الريس فواز متهماً في قضية قتل. وجعلت حكاياته تعيد سيرتها بين الصغار والكبار. مليئة بالمغالطات والمبالغات والزيادات والخيالات في كثير من أحداثها. إدعي علي السفروتي- كعادته- العلم ببواطن الأمور، قائلاً:

- سألت وعرفت إناس كبار جداً إن حكم الأعدام للزفت فواز مضمون ضمان الجنة للمؤمن، وجهنم والعياذ بالله للكافر، أي والله هكذا قالوا.

كان علي السفروتي يحاول دائماً إضفاء الصدق علي أقواله بتأكيده

إنه سأل إناس كبار. رغم بساطة عمله كسائق سيارة أجرة من القرية إلى المدينة، وذلك يتيح له بعض ما يدعي معرفته بالصدفة. وكان كثير من الناس يهرعون إليه عندما تقع الحوادث، يستوضحون منه ما خفي عنهم، وعندما تصَّدق حادثه أحد رواياته يتيه فخراً مباهياً بعلمه بالأسرار ويقول:

- عرفتهم ياجاموس أبيض؟!

- وقال بيومي القفا: سمعت إن القتيل إمرأة وليس رجلاً، وإن الريس فواز- والله أعلم- كان يريد منها ما يغضب الله. وعندما رفضت ولطمته علي وجهه جن جنونه وقتلها لكنها أستغاثت فأدركها الناس.

- فقال علي السفروتي: سمعت ممن يا بيومي يا قفا؟!

- من الناس.

- الناس ليس لها أسماء؟!

- علي يا سفروتي، إذهب الي سيارتك إمتلأت بالركاب.

- ركبك ألف عفريت. ثم همس في نفسه: والله فكرة جيدة، كيف غابت عني حكاية قتل إمرأة؟! ربما لأن الزفت فواز لا يقتل إلا الرجال، والرجال الجبارين.

*****

انتظر الأهالي عدة أشهر أن يأتي السفروتي بالخبر اليقين وبشرى تنفيذ الإعدام، ويوصونه كل صباح وهو ذاهب الي المدينة بسيارته الأجرة أن يسأل الناس الكبار. وطال الإنتظار قرابة ثلاث سنوات حتي يأس الأهالي من جدية الحكومة في تنفيذ الحكم، وسرت الشائعات من جديد إن فواز تمكن من الهرب وذهب الي مكان بعيد. وأكد بعضهم أن فواز ليس سهلاً، بل ذئب كبير حين يفترس، وثعلب ماكر إذا ضاق الخناق عليه. وأقسم بعضهم أنه رأى رجلاً يشبهه تماماً في أحد شوارع طنطا، ولما نادي عليه فر هارباً وأختفي وسط الناس.

وبدأت حكاية إعدام فواز تتواري وما عاد يذكرها أحد إلا لماماً، حتي فاجأهم مقْدِمه ذات مساء شتائي بارد. وقد تعمد فواز الوصول الي القرية متأخراً تواريه ظلمة الليل، إلا أن الصدفة وحدها جعلت البعض يكتشفون قدومه وينشرون الخبر بسرعة البرق، ولم تنم القرية ليلتها وتجمعوا حول دار الريس فواز الذي أغلق الباب في وجوههم، وأكتفي بالرد علي تهاني البعض بسلامة الوصول، من خلف حديد النافذة مغلقاً في وجه أسئلتهم العطشي.
جن جنون فواز عبدالله راغب- الشهير بالريس فواز- حين ألقي القبض عليه في قضية مقتل رجلاً لا يعرفه! ولم تفلح إيمانه المغلظة وتأكيداته في محاضر التحقيق وإنكاره وإستنكاره في دفع الإتهام عنه في غرفة ضيقة، معتمة خانقة، رطبة، كالحة الحوائط، سيئة التهوية، ألقوا به طوال أيام التحقيق، إنها المرة الأولي التي يواجه فيها فواز مثل هذا المصير، مثل تلك الإهانات والإتهامات! إمتنع عن الطعام وقال بأن الموت أهون عليه مما يلاقيه من بشاعة وإتهام باطل. فقالوا له:

- حتي لو إمتنعت عن تنفس الهواء، أنت القاتل، فقد أخبر القتيل عن اسمك كاملاً وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

في قفص الإتهام رفض فواز الكلام. ولم تجد المحكمة بدأً من تعيين محام، يدافع عنه- حسبما يقضي القانون-. وحين نطق القاضي الحكم، لم يفعل فواز شيئاً سوي توجيه نظرة قاسية جداً نحو القاضي وكأنه يقول له:

- لن أتركك أبداً، سأقتلك في يوم ما قبل أن يقتلني، حكمك الظالم.

لم يكن فواز بالرجل الضخم عريض الصدر طويل القامة، بل كان رقيق البنية يميل الي القصر منه الي الطول. لا تشي ملامحه بالقسوة، اللهم عيناه الواسعتين الحمراوين متورمة الأجفان، وكأنه لم ينم منذ سنوات طوال أو لم يغمضهما منذ عرفهما.

بحران عميقان مليئان بالأمواج والعواصف، لهما بريق مفزع لا يستطيع

محدثه مهما كان خطرة الصمود أمامهما، أما اذا ملأهما بالغضب والشر فالعبارة تضيق عن وصفهما! والي جوارهما صوت جهوري مخيف كأنه يخرج من قاع الجحيم. يتجلي ذلك أثناء التدخين، سواء في لفافات التبغ المحشوة بالحشيش أو المعسل الذي كان يتولي بنفسه عملية تخميره وتعسيله بعد أن يجلب لفائفه الخام من المدينة، فيقطعها بعناية كأنه يزين عروس ثم يضيف إليها العسل الأسود والجلسرين. وكان ذلك المعسل القص ثقيل يلف رأس من يدخنه، وكان فواز يضحك قائلاً: لا يدخن هذا إلا الرجال، ويخرج الدخان من فمه دفعات متتالية وهو يتحدث كأن فمه مغارة عميقة بجوفها حريق لا يتوقف.

*****

تمتع فواز بقوة روحية هائلة تجعله رأس أي مجلس يحل به، وقد تجلي ذلك في سنوات سجنه حيث فرضت قوته الروحية هيمنها علي زملاء الزنزانة، وفرضت نظاماً جديداً تحطم أمامها العرف القائم بين السجناء من تنظيم الأمور الحياتية بين النزلاء مثل الطعام والسجائر والنوم والتحدث عنهم مع إدارة السجن. حتي لفت نظر مسئولي الإدارة، فكانوا يقدرون له ذلك ويعجبون لدرجة أن وصفه بعضهم بأنه «ملك» بدون مملكة. أو زعيم وثائر ممن تمتليء بهم كتب التاريخ ولكنه أخطأ الطريق. وقال مأمور السجن:

- رجل خطير لو نشأ في غير البيئة المنحطة التي نشأ بها لكان له شأن عظيم وعرفه العالم أجمع.

*****

إنتابت فواز حالة غريبة بعد النطق بالحكم القضائي الذي يقضي بإعدامه. وشعر بالحاجة الي العزلة التامة رغم محاولة النزلاء وغيرهم من

أهل السجن التخفيف عنه، وأنه من المضمون الأكيد أن الحكم سوف يخفف عنه ، ولن يصل الي الإعدام أبداً. طلب فواز من إدارة السجن عزله في زنزانة إنفرادية وقوبل طلبه بدهشة كبيرة، إلا أن إصراره وإعجابهم بشخصيته النادرة، كان وراء الأستجابة له حتي لا تضطره ظروفه النفسية- كما قال- إحداث أضرار بالغير، لا يرجو أن يتورط فيها، فيكفيه ما هو فيه.

*****

في زنزانته الإنفرادية، تكوم مع دخان سجائرة المتواصل، وشريط حياته يترآي له بكل تفاصيله، ومصيره القادم والذي حدده ورسم معالمه الحكم القضائي بإعدامه. وضحك ساخراً من كل شيء، ضحك يملأه المرارة واليأس، متسائلاً:

- ماذا أفعل؟!

ولكن الإجابة دائماً إما بالأستسلام للأمل الذي يراه كاذباً في تخفيف الحكم، أو قتل نفسه لتكمل دائرة القتل عنده ويكون هو ختامها. وتمتم مرات عديدة:

- حتي لو تم تخفيف الحكم، فكيف أطيق حياة الذل بقية عمري؟!

وأخذته هستيريا الضحك الحزين.

كان يفزع صارخاً من لحظات نومه التي يرغمه عليها الإرهاق الذي كاد يذهب عقله، بعدما تنهش تلك اللحظات الوجوه التي أزهق أرواحها، جاحظة العيون قوية المخالب وهي تضحك ضحكاً نحاسياً مرعباَ، تطلب رأسه. مراراً رأي ضباط السجن يقودونه الي غرفة الإعدام مكبلاً، ثم يسلمونه للجلاد الذي لا تأخذه الشفقه به بل يعامله بقسوة، وكأن بينهما ثأر قديم. وكان الجلاد يضحك هازئاً ويقول:

- قتلت أبي يا مجرم، والآن أقتلك ولن يؤاخذني أحد في قتلك، فأنت كلب.

وكانت كلمة «كلب» تتردد بكثافة كمن يزعق بقوة في بئر سحيق لا قرار له. ومراراً تأخذه الدهشة:

- كيف يدلي رجل لا يعرفه، ولم يره قط باسمه كاملاً علي إنه هو الذي قتله؟! ومن لقنه الاسم وهو يلفظ انفاسه الأخيرة؟! لقد قتلت عشرات الرجال ولم أترك أدني أثر ولم يهتد اليَّ أحد، فماذا حدث؟! هل قتلت مظلوماً وأنا لا أدري؟! كنت أدقق جيداً ولم أقبل ولو لمرة واحدة قتل رجلاً لم أتأكد من جبروته وظلمه..

قتلت الخواجه قزمان ناظر الشركة لأنه أهانني في مكتبه ولكنني لا أهان! الخواجه قزمان الذي كان طوب الأرض يهرب من تحت قدميه خوفاً ورعباً ولكنني لا أهان! وقامت الدنيا ولم تقعد، ولم تستطع جهات البحث العديدة العثور علي دليل بسيط يجعلني موضع ريبة أو شك. ثم زعق:

- كيف تقبل الإهانة يا فواز؟! كيف تقبل الإهانة يا فواز؟!

وبعد لحظات من الشرود المرير، قرر قتل نفسه حفاظاً علي كرامته، واعتذر لنفسه أن تركها تتحمل الإهانة منذ لحظة القبض عليه، ثم أيام التحقيق وأيام المحكمة وحتي الآن! في الصباح، وبينما عسكري الحراسة يفتح الزنزانة ليقدم لفواز طعام الإفطار وماء الشرب، واذا به يباغَت بالدم يسيل من شرايين معصمي فواز يغطي جزء كبير من الزنزانة. وفواز ملقي علي الأرض فاقد الوعي ملطخاً بدمائه. فزعق عسكري الحراسة هلعاً:

- فواز قتل نفسه يا حضرة المأمور، فواز قتل نفسه يا حضرة المأمور.

*****

ما كاد فواز يتماثل للشفاء بمستشفي السجن حتي جاء قرار الإفراج عنه، مؤكداً إن ما حدث له كان نتيجة خطأ كبير، ولكنها الصدفة الغريبة التي جمعت بينه وبين القاتل الحقيقي في التشابه المتطابق لاسميهما. ورغم العودة إلي الحياة مرة أخري لم يجد فواز في نفسه الفرحة التي تناسب

هذه المفاجأة! وفرشت أشجار الدهشة أغصانها وأوراقها فوق وجوه كل من بالسجن لعدم المبالاة التي قابلهم بها، ومن قبلهم خبر براءته وقال بإنكسار قاتل:

- أي فرحة تريدون مني أن أفرحها؟! وأي سعادة تسعدني؟ وأي براءة حصلت عليها؟ وقد قبلت الإهانة طوال السنوات الثلاث! ولم تتحرك نفسي اللعينة ولم تثأر أو تغادر الحياة؟! وتمتم قائلاً: مات فواز منذ ثلاث سنوات، فهل يقيم الموتي الأفراح؟!

*****

٢٣

روضة من رياض العشق والجنون !

لم يرعب الخوفُ حسينَ- رغم تجاربه المتهورة-، مثلما فعلت به تلك العلاقة الغريبة التي ما أن يبوح بها لأصحاب الرأي من أصدقائه- علي أنها حكاية لصديق وليست له- حتي يبادره من يسمعها بأنه لعب بالنار، فقد إنتهي هذا الزمان وإنتهت تلك القصص العذرية العفيفة! ولم يخالفهم في هذا الرأي إلا صديقه ياقوت الذي قال: - لوكان ما تقول صحيحاً، فهذا بمثابة وضع حجر أساس النور، لإنسانية الإنسان الطاهر، والإخلاص النادر الذي لا يطلع عليه شيطان فيفسده. وقال محيي الدين بعد أن هز رأسه ضاحكاً:

- عليك يا سيدي أن تخبر صاحبك بأننا سنري صورته وصديقته إن عاجلاً أو آجلاً في صفحات الحوادث بعد أن يقتلها زوجها أو يقتلهما، ثم هز رأسه وقال: يقول سيدنا الشاعر الكبير صلاح عبدالصبور- رحمه الله-:

«المرأة فخ منصوب لو جئت لديها لا تأمنها
حتي لو جعلت فرش منامك نهديها أو فخذيها»

فزع حسين ودهش دهشة بالغة وقال مستنكراً وكأنما قد ضبطه محي الدين متلبساً بالكذب عليهما:

- ألم يعجبك في أشعار صلاح عبدالصبور الرائعة غير هذه الأبيات؟!
- فضحك محيي الدين قائلاً: لكل مقام مقال يا صديقي.!!
- هل معني ذلك أنك لا تثق بإمرأة قط؟!
- لا أستطيع أن أقول ذلك يا صديقي.
- هل معني ذلك أنك لن تتزوج أبداً؟!

- ربما...
- هل هذا موقف من النساء؟
- هو موقف من الحياة يا صديقي، كيف لي أن أتزوج ويكون لي أسرة ولست قادراً علي تكاليف الحياة في زمن يفرضون علي الشاب فيه قيوداً أكبر بكثير من طاقته.!!
- حيرتني يا محيي الدين!!
- وما الحيرة في ذلك؟! رجل لا يمكنه إيجاد عمل يحترم عقله إلا بواسطة كبيرة لا تتوفر لي وأمثالي، وها أنا راض رغم أنفي بضياعي حتي تتغير الأحوال، وربما أكون محظوظاً إن لي أب يعول موهبتي الشعرية التي لا تغني ولا تثمن من جوع، أنا أشفق علي أبي وأراه مستسلماً حامداً الله علي قدره، ولكن ماذا سيفعل غير الإستسلام إلا أن يطردني الي الشارع.؟! بعدها سيذهب كثيراً الي أقسام الشرطة ليتسلمني منها.

*****

شعر حسين بضيق شديد، كيف يفكر في حب مثل هذا، بينما الواقع المر يطعم الناس العلقم، وأحس بأن حملاً كبيراً يوهن عقله ولا يستطيع الصبر عليه، وقرر أن يصارحها بذلك، ثم ذهب الي الفراش واضعاً رأسه تحت الوسادة في محاولة للهروب من تلك المفارقات، حب إمرأة متزوجة يكاد يذهب عقله ويتلف قلبه ولا أمل فيه ولا ثمرة، وواقع يرفض ذلك بل ويضيف قسوة لا حدود لها ولا قبل له بها، وقال مستغيثاً:
- الرحمة ، يا صاحب الرحمة..! وقرر أكثر من مرة أن يقول لها: لينس كلاً منا الآخر ليعود بأيامه الي ما قبل اللقاء الأول، لكنه ما أن يسمع صوتها عبر الهاتف إذا به ينسي الدنيا وما فيها، وكأن الزمان إرتد به الي فضاءات رائعة لا مشاكل فيها، بل يتصورها دون زوج وأولاد، وإنه يمكنه أن يخطبها من أهلها ويتزوجا.

وما أن يعود الي نفسه بعد إنتهاء الكلمات الدافئة الحنونة، حتي يشعر ببرد الدنيا يغزو عظامه، وقسوة العالم تجتمع مرة أخرى لتقول له :أنت غلط، ما تفعله حرام، وربما يفسد حياة أسرة تعيش تحت أي ظروف ولكنها تعيش. وما أن يراها حتي يغزوه إحساس بأنه يجب ألا يتنازل عن تلك الحبيبة غير العادية، واذا فعل غير ذلك فإنه يستحق العقاب والطرد من جنة الإنسانية، قال في نفسه:

- سأحدثها عن مخاوفي، عن كلام الآخرين وهي التي تقرر.

ورغم خوفه من المجهول إلا أنه لم يستطع الإبتعاد عنها، وكان يرجو في قرارة نفسه أن ترفض ما يقوله لها عن خطر ما ينتظرهما!

*****

من فوق قلعة صلاح الدين، أطلا علي القاهرة مبانيها حواريها، مسجد الرفاعي أو علي الأصح مسجد الشيخ علي ابو شباك، فالرفاعي مدفوناً في العراق، أما الضريح الموجود بالمسجد فهو لأحد تلاميذته، ومسجد السلطان حسن من أبهي مساجد الدنيا وأروعها هندسياً. حدثها بالصراع الذي يعتمل في داخله، قال لها كل شيء وهو يتحاشي النظر في عينيها الوحشيتين حتي لا يأكله الإستسلام ويتوه منه الكلام. نضبت جعبة كلماته ونظر إليها ليرى ما تقول، فإذا بها تضحك بمرارة شديدة وتقول:

- كم أنت قاس، وظالم!

- أنا.. ؟! ألأنني أخشي عليك من الأقاويل والتهم الفظيعة؟!

- ليت كل ما تخشاه يتحقق، الناس يا حبيبي تموت ويموت معها كلامها، لن ترض عنا مهما فعلنا من أجل إرضائهم، فقط عليك أن لا تغضب الله وما دون ذلك لا يهم، الناس الذين تخشاهم أهانوا الأنبياء وقذفوهم وأهليهم بكلام خبيث بل قتلوهم، الناس الذين تخشاهم كفروا بخالقهم وانكروه وجحدوه، فهل تأمل فيهم بعد ذلك الرضا عنا؟! لا أعتقد حتى لو كان لنا

أجنحة نطير بها.

- قال لها: أيتها المجنونة، تذكريني بأشعار الحلاج الذي قامر برأسه وهو يعلم ما ينتظره نتيجة المجاهرة والبوح!

- قالت في دلال عذب التضاريس وليونة أنثوية يفوح عطرها: وماذا قال مجنوننا الحبيب؟!

* قال يا سيدتي:

الحب مادام مكتوماً علي خطر :: وغاية الأمن أن تدنو من الحذر

وأطيب الحب ما نم الحديث به :: كالنار لا تأت نفعاً وهي في الحجر

أغمضت عينيها النجلاوين الفيروزيتين وباعدت بين شفتيها الورديتين، وأخرجت آهة تحمل رائحة الياسمين وصهد النار، وقالت بنفس طويل تملأه فرحة طفولية:

- ياااااااالله.!

وجعلت تطوح يديها في الهواء كفراشة طروب، فأبتسم لها وطاوعها كطفلين منفعلين فرحين مسرورين، ينقذان الضحكة البريئة من رحم الأحزان. أعادته لصباه وأعادها لصباها، أعادته لطفولته وأعادها لطفولتها، ونسيا كل شيء إلا نور وليدهما الجديد. نقشا الحروف الأولي لاسميهما كعاشقين صغيرين علي الجدران، بل خصصا مكاناً جلسا فيه يتهامسان، وكلما ذهبا الي القلعة جلسا في هذا المكان كأنه قدس أقداس عشقهما.

*****

عاد الي مسكنه فرحاً مسروراً مشوقاً متلهفاً لفراشه كي ينام محتضناً صورتها بين ضلوعه، يسترجع في ظلام الغرفة نور كلماتهما، ضحكاتهما وهمساتهما. وكعادتها في الخامسة صباحاً، هاتفته، متسألة في دلال:

- نائم ؟!

- لا...

- لماذا؟!

- جواب ذلك عندك!

- أحبك.

- أكاد أجن بك!

- في نهاية الحديث ،سألها بعفوية: لماذا الحديث في الخامسة صباحاً؟!

- قالت: لشيئين أولهما أنه وقت لا تكون فيه أحاديث الغرام بين الناس فوددت أن تكون لنا فقط، وأما الثاني فجميع من في البيت يغطون في نوم عميق!

لدغته كلمة «كل من في البيت» وكأنها عقرب سام، وقال في نفسه: زوجها إذن، ما تخشاه يا حسين، يقترب فحيح سمومه، لابد من الإبتعاد عنها قبل الفضائح!

*****

أغضبها في إتصالها به حين قال في شبه حزم :

- لا داعي للفضائح ولاداعي للجنون بهذه القسوة، نحن بشر ولا يجب علينا أن نتجاوز ما يفعله البشر من حولنا!

بكت طويلاً، كان يسمع صوت بكائها والدمعات تتساقط من عينيها، قال:

- آه لو تعلمي يا حبيبتي قدر حبي لك وجنوني بك، ولكن خوفي عليك شديد.

*****

بعد عدة أيام فوجيء بها تنتظره وهو في طريق خروجه من المدرسة، ودون أن يتكلما ذهبا إلى مكانهما الأثير بالقلعة وكأنه بيتهما الذي يجمعهما بعد شتات ليستريحا من عناء الدنيا! وقالت شفتاها وعيناها الغضبتان :

- تضطرني يا حسين لأن أقول كلاماً أكره قوله، لن أقول لك أنهم زوجوني رغماً عني، وكنت صغيرة لا تعرف شيئاً، لن أقول لك برغم جمالي وأنوثتي التي يشتهيها كثير من الرجال والذين يصادقون زوجي لأجلي، وقد بلغت الوقاحة ببعضهم أن صارحني بذلك، وقالوا: ماذا يعجبك في زوج مقامر سكّير له العديد من العلاقات العفنة مع نساء لا يصلحن علي الأكثر إلا خادمات لك؟! فأسخر منهم وأهزأ بهم وأراهم ذئاباً بل كلاباً..!

صدقني يا حسين: لغة الجسد تفسد روحي وتطفيء وهج النور بها، بأختصار نار الجسد تحرق نور الروح عندي، الحب الطاهر والجسد لا يلتقيان يا حبيبي. لو كنت أريد النار ربما ما عرفتك في يوم ما فقد رأيتك بقلبي، بروحي، وما أراك تصلح لأن تركع تحت قدمي إمرأة مهما كان شأنها وشأن جمالها.

- ولكنني خضت غمار تجارب نسائية عديدة، وربما غريبة..!

- لاعلاقة لي بما فات، ربما لم تكتشف واحدة منهن مقدار ما بك من روح ونقاء.! وصمتت لحظة ثم قالت: قل لي ولا تكذب، هل أنت سعيد بتلك التجارب التي تتحدث عنها ؟!

- لا سعيد ولا حزين! أحياناً أسعد بها لأنني عرفت النساء جيداً، وأحياناً يقتلني الحزن لأن كل ذلك لا ثمرة له، ولا حصاد يرجي..! كل ما أشعر به ، إن زهرة العمر \ ذبلت، بل سُرقت ولا رجاء في عودتها.

- دعني أعود بك الي البراءة.

- ولماذا لم تفعلي ذلك مع زوجك؟!

- حاولت كثيراً لكنني في كل مرة أجد ما نقبت عليه مجرد وهم، أرض جدباء، وكلما شكوت ذلك لأمي أو صديقه صدوقه قلن: لا تخربي البيت، لا مكان للملائكة علي الأرض، فكل الرجال سواء. وحاولت مراراً أن احصل علي حريتي منه ولكن الجميع يحذرونني من ضياع مستقبل الأولاد، فيكسرني

الضعف وأعود الي البيت الذي أكرهه. ثم بكت فجأة كطفلة تاهت وسط الزحام وقالت:

- أرجوك لا ترغمنى علي الموت فتكون قاتلي. الحياة أقصر من أن نضيعها في الحديث عن غيرنا، وقد فكرت كثيراً في أمرك، أرهقتني وأتلفت نفسي وكلما تخيلت حرماني من مجرد الحديث معك أصابني المرض والهزال حتي تمنيت أن أنجب طفلاً وأطلق عليه اسمك لأتحدث معه، ويرتفع صوتي باسمك دون أن يؤاخذني أحد، علي ذلك متي شئت وكيف شئت، وبالفعل سأضطر لذلك اذا لم أجد غيره حلاً. ثم قالت متوسلة:

- أنا وأنت نخطو نحو النصف الثاني من العمر، ومن العبث أن نضيع لحظة منها في الحديث عن الآخرين، أرجوك.

- همس إليها حسين قائلاً: أحبك، أحبك، يا مجنونتي الشهيدة، وروضتي التي يستريح فيها القلب والروح.

- إن كنت حقاً تحبني لا تحدثني عن غيرنا، بعد الآن

أخرج حسين ورقة مطوية قال لتسمعي ما كتبت عنك، فدهشت عندما نظرت في الورقة، وقالت: شعر، تكتب فيَّ شعراً، وقد كنت تشرع في قتلي؟! كم أنت غريب!

- بل أنت القاتلة يا روضة، تعذبت كثيراً من أجلك، كم حاولت النجاة ، مما توهمت من الأخطار ولكن لا فائدة.

- أسمعني ماذا قلت.

- حسين: هي قصيدة صغيرة عنوانها «أغنية لمحبوبتي»، لا أدري كيف كتبتها، ربما من فرط أشواقى لكِ وصورتك التي تسكنني وعشقك الذي يسرى في عروقى، فهي المرة الأولى التي أكتب فيها الشعر، ولا أدري أهى موزونة الموسيقى الشعرية، أم مجرد كلام جميل منمق؟! تقول:

معشر العشاق قولوا..
هل رأيتم في الوري، في الحسن، أبهي من حبيبي؟!
قلبه كالنور، أبيض
ثغره كالفجر، يقبل
هدبه كالشمس، تشرق
لحظُة كالفيض، يخرق
معشر العشاق، قولوا..
هل رأيتم في الوري، في الحُسن، أبهي من حبيبي؟!
رقة الإحساس، طبع
صمته السكران، طهر
لفظة الرقراق، عطر
معشر العشاق، قولوا..
هل رأيتم في الوري، في الحُسن، أبهى من حبيبي؟!
تغريده الكروان، يسبي
خطوه النعسان، يشجي
في سناه، حار لبي
معشر العشاق، قولوا..
هل رأيتم في الوري، في الحُسن، أبهي من حبيبي؟!

إنتهي حسين من إنشاده قائلاً:

- ما رأيك؟! فإذا به يري الدمعات تسيل خطوطاً علي خديها، وفجأة وللمرة الأولي تأخذ يديه وتقبلها بشوق جارف، ثم نظرت في عينيه، وقالت:

- كل هذا من أجلي؟! آه يا أروع قاتل، إياك، إياك، أحذرك أن تحرمني من روحي مرة أخري، ساعتها أنا التي سأقتلك، مفهوم؟!

أخذها حسين من يدها وجعل يطوحها في الهواء، ويملأ صدره بشهيق

عميق، فإنتزعت يدها وجعلت تهرول أمامه، وهو يلاحقها والضحكات تعلو والناس من حولهم يتعجبون. حتي أخذ منها الجهد فجلست إلى جوار جذع نخلة حبلي بالثمر، فجلس الي جوارها وأخذ بيدها ثم قبلها قائلاً :

- لنبدأ الحياة، وليكن ما يكون..!!

بادلته القبلة الطفولية والفرح يتراقص في عينيها، قائلة:

- لنبدأ الحياة، ربما رحمنا الله بحبنا وعوضنا في الآخرة ما حرمنا منه في الدنيا..!

نظر في عينيها ثم همس إليها:

- روضتي، فإبتسمت دون أن تتكلم تنتظر ما يقول.

- من لم يمت بالعشق مات بكفره.

- صدقت يا أعقل المجانين.

وصمتت لحظة ثم قالت:

- سأطلب منك شيئاً أرجو ألا ترفضه.

- ماذا؟

- تتزوج...

- أتزوج؟! أنت تطلبي ذلك؟!

- وما الغرابة في ذلك، هو حصن لك، ولي أيضاً.

- ألا تأخذكِ الغيرة؟!

- لماذا؟ بل العكس حزني الحقيقي وغيرتي الحقيقية أن يضمك صدر محرم عليك.

- سأفكر في الأمر عندما أستجمع شتات نفسي.

- وسأظل ألح عليك حتي تتزوج. لا تضع العقبات ومن الآن أن تفكر جدياً في الزواج.

- سأترك لك مهمة الأختيار.

- لا أستطيع، أنا. ؟!! لا أستطيع.!!

- نترك ذلك لوقته.. هذه أشياء قدرها الله علينا منذ الأزل.

- أرجوك، لا تركن الي تلك الفلسفات ولتبدأ حياتك.

- وأنت يا روضة؟!

- أنا حبيبتك وأنت حبيبي، وذلك يجعل لحياتنا جلالها وجمالها.

- أنت غريبة جداً، ألم تفكري فيما سيحدث لو تم ذلك؟! هل ستكون هناك حرية للحديث عبر الهاتف- مثلاً- في أي وقت نشاء؟! هل ستقبل زوجتي ذلك؟! لا أعتقد ولديها الحق.

- ليكن ما يكون، يكفيني أن أحدثك لدقيقة واحدة أطمئن عليك فيها.

*****

كانت الحيرة تعصف بعقل حسين، أحياناً يبتعد عن روضة مفتعلاً الأسباب. وكانت الأحزان تفرش خيمتها علي روح «روضة»، تخاصمه في نفسها وتدير الحوارات:

- لن أقبل منك عذراً، أنت ظالم وقاسي لا قلب لك، لن أرضي عنك مهما تفعل ثم تتساقط دمعاتها.

وما أن ينتهي حديثها المرير مع النفس تتراجع سريعاً وتقول: لا يليق بحبيب أن يهجر حبيبه مهما فعل، وتهمس: سامحتك يا مجنون ولكن لا تفعلها مرة أخري، ثم تنهض الي الهاتف لتطلبه. وعندما يرفض الهاتف ذلك الصلح يزداد حزنها وتضرب بيدها الحوائط وقطع الأثاث: مشغول، مشغول؟! ثم تدب الغيرة، في نفسها متسائلة: ترى من تحدثه كل هذا الوقت؟

وكانت الفرحة تجعلها فراشة تحلق في سماء الربيع عندما يأتيها صوته، ولكنها لا تجيب وتستبدل صوتها بأغنية لمطربته المحببة «فيروز»، وكان معني ذلك إنها ضبطته متلبساً في مكالمة طويلة لا يمكن أن تكون مع رجل.

ورغم نفيه ذلك حرصاً منه علي مشاعرها، كانت لا تصدق نفيه الكاذب لكنها كانت تطير فرحاً بهذا الكذب الذي يؤكد لها حقها فيه وفي غيرتها عليه. وترجوه ألا يبتعد عنها مرة أخري.

*****

في لحظات ضعف عديدة كانت تشعر بأنه يريد الخلاص من قيود حبها، ورغم نفيه ذلك إلا أن إبتعاده عنها بحجج واهية كان يقتلها، فتعود إلى الحلم بمولودها.

أكثر ما كان يرعبه هو الغد وماذا سيحدث فيه لو حدثت صدفة غبية شوهت صورتها وصورته؟! أحياناً يغامر قائلاً: مرحباً بكل شيء، وأحياناً يهرب بعيداً وتتخلي عنه شجاعته رغم حبه الجارف لها وحلمه الغريب، في رفض فكرة كونها متزوجة وربة اسرة وأم لطفلتين، فكان يحلم بها فتاة رائعة تنتظر فارسها أن يتقدم لخطبتها. وساعده في ذلك عذوبة ملامحها وبساطتها ونضارتها التي لا تشي بأنها إمرأة، بل فتاة صغيرة لم تتزوج بعد. كان هذا الحلم يتبدد علي صوت طفلتيها عندما يأتي عبر الهاتف، أو عندما تضطر إلى إنهاء الحديث لأن طارقاً يدق الباب، وكان يهتف في نفسه: ربما كان زوجها، ثم يري نفسه متهماً بما لا يجوز ولا يليق فيقرر الهجران.

*****

تجرعت معه مرارة تمرده بغياب صوته عنها مرات عديدة وإعتذاراته غير المبررة وهي تعلم أنه غير صادق. ومرارة الغيرة التي تأكل قلبها وهي تنتظر فراغ الهاتف المشغول بغيرها لا يمكن أن يكون حديثاً عادياً. أحياناً كانت تقاوم ذلك الحب المجنون، تحاول الهرب منه والتحرر من تلك العبودية المختارة، وما أن تشرع في الدعاء الي الله أن يساعدها في ذلك حتي يفزعها الخاطر وتصب اللعنات علي نفسها قائلة :

- ماذا تفعلي يا مجنونة، أيليق بمحب أن يفعل ذلك، إنه إنتحار غريب، ثم تجد لسانها يهتف: اللهم لا تحرمني منه، فليس لي راحة في دنياك إلا هو.

*****

في لحظة حزن غير عادي قررت أن تنجب، «حسين الصغير» مهما كان الثمن. فتوسلت الي الله كثيراً أن يمنحها الطفل حسين ولا يخيب رجائها، بكت طويلاً في توسلاتها وصلاتها، ألا يحرمها الله الطفل حسين إذا كان قدرها الحرمان من الحبيب حسين. ذات ليلة فتحت أبواب السماء نضارة الربيع لدعواتها، ومسحت بالأستجابة دمعات عيونها، وهي تقول بصوت واهن حزين:

- «اللهم إني رضيت بقضائك، وصبرت علي بلوائك، في زوج أحمق لئيم، لا عهد له ولا ميثاق، جاحد بالنعمة ناكر للفضل، لا يبرح أن يري ما في يد غيره مهما كان حقيراً خيراً مما عنده. اللهم أنك تشهد بأنني حاولت وجاهدت في إعتدال إعوجاجه ولكنه صخر لا يلين، ختمت علي قلبه المعاصي، وأورثته الذنوب غشاوة، ففقد البصر والبصيرة. فنجوت وبنتاي من شروره بجهد جهيد، وإعتصمت بحبلك حتي لا يجرفني الي دنياه. اللهم لا تجعل مصيبتي في قلبي الذي علقته بحبيب أراه نور عيني ولا طاقة لي في البعد عنه. اللهم لا تؤاخذني فيما لا أملك- كما دعاك حبيبك المصطفى- ، فأنت تعلم أنني لا أملك إخراج ما قذفته في قلبي من محبته وعشقه. اللهم إن كان يغضبك ما أنا فيه- ولا أري فيه غضب لك، فالشيطان لا يعرفه- فأصرفه عني، وأصرفني عنه دون جراح. ثم صرخت متراجعة وهي تقول: «لا.. لا.. لا.. لا تُذهب حبه، عني ولا حبي عنه.!»

*****

كادت الفرحة تذهب بعقلها حين ولدت الطفل، وكأن روح حسين الحبيب تسكن فيه، ملمس جلده، داخلها أحساس لا تدري كيف تملكها بأن

حسين الطفل هو ابن حسين الحبيب، تنامي الإحساس حتي أصبح حقيقة لا تقبل الشك، بل كان يفزعها الخاطر الصغير اذا مر بعقلها بأن حسين الطفل ليس ابن حسين الحبيب. لم تخبر حسين بحقيقة شعورها تجاه حسين الطفل، حتي لا يظن بها الجنون الحقيقي، أو يضحك من كلماتها، كانت تخشي ذلك أكثر من الفراق نفسه. وكانت دهشتها التي أفرغت بعدها جعبة أسرارها، التي ثقلت عليها، حين همس إليها ذات مرة قائلاً:

- هل تصدقيني اذا قلت لك أنني أشعر كأن هذا الطفل ابني أنا؟!

حملقت في عينيه طويلاً حتي أربكه ذلك ثم قالت:

- يا مجنون مثل طفلك..! تمنيت أن أقول لك ذلك، منذ وقت طويل ولكنني خشيت غضبك وهوجاء رياحك وأعاصيرك التي تسحقني بها. وسادت فترة من الصمت، ثم قالت:

- كنت أظن أن طفلك سيغنيني عنك، سيروي عطشي ولهفتي إليك، ترديد اسمه في البيت علي كل لسان أن أرفع صوتي هاتفه: «حسين حبيبي»، ولكن ويالقدري زاد شوقي اليك لحديثي معك، وجعلت أحصي علي حسين الصغير حركاته، عازمة علي الشكوي اليك منه، هامسة اليه: مجنون مثل أبيك، ثم قالت ضاحكة: هل إتفقت وولدك عليَّ؟!

وعلي عكس ما توهمت روضة من أن حسين الصغير سيكون سلوى لها، فإذا به يشعل الشوق ويروي شجرة الحب فتورق أغصانها وتكثر ثمارها، أغرب من ذلك ما حدث لحسين من تعلق جارف بروضة وحسين الصغير وكأنه مولوده حقيقةً، وكان ينتظر أحاديثها بفارغ الصبر، ونسي كل شيء إلا روضة وحسين الصغير، بل جعل يرجوها ألا تبتعد هي عنه وألا تغيب عنه، ولو يوماً واحداً مهما كانت الظروف والعقبات!

*****

٤٢

مسجد النصر الذى هدموه

عاش حسين طوال سنوات الغربة يحلم رغماً عنه- وإن كان يزعجه ذلك- أن يعود الي القرية التي يعشقها ويعشق الحياة البسيطة فيها.

القرية بكل تفاصيلها، حواديتها، شوارعها، دورها الواطئة، طرقها الترابية وأجوائها المفتوحة وأشجارها الكثيرة وطرقها الزراعية- وقد توقفت تلك الصورة في مخيلته دون تطور- يباهي بتلك الأصول، تحلم روحه بالعودة ويشتاق إليها، الي القعدة في شمس الشتاء الي جاور أكوام القش في الأجران، ومص أعواد القصب وسط ضحكات الكبار والصغار التي تخرج من القلب بلا هم ولا حزن، يشتاق للإستحمام في الترعة رغم معرفة أضرارها وأنه كبر علي تلك الأفعال، ولكنه الشوق..! وعندما عاد الي القرية أحس بالغربة القاتلة، وما طاق البقاء لعدة أيام..! هتف في نفسه:

- غريبة هي القرية، نحملها معنا الي المدينة، نتحدث عنها وكأننا نحتمي بها من قسوة الغربة، نحلم بها وكأنها الدفء الوحيد لنا، ولكن عندما نعود إليها يصيبنا الملل فنعود سريعاً لأضواء المدينة الزاعقة، الصارخة السافرة دون دفء حقيقي، ويا للعجب يأخذنا الحنين من جديد، ونتحدث ،ونحلم ويصيبنا الملل مرة أخرى!

وكان حسين يتعجب أشد العجب قبل ذلك من قول الرسول الكريم عن حبه الشديد لأم القري مكة المكرمة، واذا به يتركها مرة أخرى بعد فتحها وخضوعها إليه، وكان يتمتم في نفسه الآن فهمت السر.

*****

لم يخطر ببال حسين وهو في طريق عودته الأولي للقرية بعد الخروج الأول، أن تكون يد التغيير قد طالت منها بهذا الشكل، فقد تغير كل شيء، كل شيء. البيوت تعددت طوابقها المبنية بالطوب الأحمر، والأسقف والأعمدة الخرسانية، الأرض الترابية للبيوت غطاها البلاط والسيراميك، تماماً مثل المدن، الشوارع بعضها مرصوفاً، والصرف الصحي دخل البيوت.

اختفت أبراج الحمام التي كانت تميز القرية، وكان مشهدها من خارجها يوحي بمنظر رائع وكأنها قباب مساجد كلها بيضاء اللون، واحتلت أجهزة إستقبال الإرسال التليفزيوني والأقمار الصناعية مكانها فوق الأسطح الخرسانية، وأصبح من المألوف أن يدعو الصديق أصدقاءه لمشاهدة الأفلام الأجنبية ليتعلموا منها فنون الحياة مع زوجاتهم. لاحظ حسين أن القرية صاحبة المسجد الواحد كثرت فيها المساجد المزخرفة الملونة ذات المآذن العالية ومكبرات الصوت المتعددة، ورغم ذلك تراجع عدد المصلين، فلا تري في المسجد إلا بضع أفراد لا يكملون صفاً واحداً.

اللهم إلا «مسجد الإخوة السنية»- كما يطلق عليه الأهالي- مزدحم بهم، بهم فقط، فقد كان الأهالي يهربون من الصلاة فيه لأنهم يطيلونها بطريقة تجعل من يصلي هناك مرة لا يعود إليهم، ويطيلون خطبة الجمعة فلا تجد أيضاً في مسجدهم غيرهم . كان الحاج عبدالله أبو عيسي يضحك كلما ذكره أحد بالمرة التي أخطأ فيها- علي حد قوله- وصلي معهم. وقال بخفة ظله المعهودة:

- الغريب في هؤلاء الشباب أنهم يطيلون الصلاة، ويطيلون خطبة الجمعة ويطيلون ذقونهم وكل شيء عندهم طويل، إلا جلاليبهم قصيرة. وواصل ضحكه، قائلاً:

- تبت إلى الله، من الصلاة معهم مرة أخري، ثم صمت لحظة وقال: البطالة وعدم الشغل جعل الوقت عندهم طويل فأطالوا في كل شيء! ثم

صمت قليلاً ، وضحك ساخراً وقال:

- أرجوكم لاتخبروهم فيكفرونى ويحلوا دمى، وأنا رجل مسن لا أحتمل الكفر، على كل حال هم أحسن من غيرهم، هناك شباب مليء بالفساد وقلة الأدب وطول اللسان واليد، أعوذ بالله وكأنهم خلف إبليس وليسوا أولاد آدم وحوا.

*****

ذهب حسين الي مسجد القرية القديم ليراه وكأنه سيزور عزيز عليه غاب عنه سنين طوال، وقد كان بينه وبين المسجد سنوات عمره الأولي قبل الرحيل من القرية.

فكان لا يلذ له الجلوس إلا مع زملاء الدراسة ورفاق العمر يتناقشون في باحة المسجد وروعة هواءه الذي يأخذ بكثير منهم للنوم، فما أن يتمدد الواحد منهم حتي يذهب الي عالم آخر وخاصة في شهور رمضان الصيفية. أو يجلسون علي المصطبة الكبيرة أمام «دكان الحلاقة» الوحيد بالقرية، حيث يتجمع كبار السن، وإمام المسجد وكان رجلاً رائع الذكاء صاحب أريحية، لاذع الكلمات طريف الحكايات يعرف اسم من يسلم عليه بمجرد لمس يده وقبل أن يتكلم، بل كان يعرف ظهر العملة الورقية من باطنها، وكان الجميع يتعجبون من موهبة هذا الرجل الكفيف الخارقة وهم يرونه يمشي في الشوارع دون قائد يرشده.

وكان صاحب دكان الحلاقة دمث الخلق قلما تجد من يتمتع بصفاته الحميدة، صاحب فكاهة وظرف لا حدود لها، يحلو له صلاة الليل في المسجد بعد أن ينام أهل القرية دون خوف رغم شديد الظلام فلا كهرباء ولاإضاءة فى المسجد بعد إطفاء مصباح الكيروسين الهزيل عقب صلاة العشاء. في الوقت الذي كان يخاف سواد الرجال من الذهاب الي المسجد ليلاً، لوجود «النعش» به الذي حملوا عليه العديد من القتلي وسالت دماءهم علي

أخشابه فشربت منها، وبقيت علامات كثيرة من تلك الدماء واضحة جلية.
شيء آخر كان يربط حسين بالمسجد القديم هو الألوان والزخارف البسيطة التي أشترك مع رفاقه في شراء موادها ودهان حوائط المسجد بها، ونقش القبلة نقشاً إسلامياً رائعاً، وكان حسين يتمتع بموهبة في الرسم والزخرفة.
والي جوار المسجد ضريح وقبة سيدي عاكف، وكانت نقوش وزخارف حسين جعلت من الضريح آية من الجمال. الشيخ عاكف ذلك الرجل الطيب الذي جاء الي القرية ذات مساء وجلس بالمسجد فأستضافه الناس كعادتهم قديماً، رغم إختلافهم حوله في البداية ولكنهم ألفوه بعدما وجدوا منه الكلام الطيب والنصائح الدينية، وظل حبه يزداد في قلوبهم حتي جعلوه شيخاً للطريقة الصوفية بالقرية. وظل شيخهم حتي مات قبل مجيء الحاج عبداللطيف بعدة أيام، فشقوا له لحداً- حسب وصيته- وأقاموا عليه ضريحاً وقبة خضراء يوقد أصحاب الحاجات في شباكها الوحيد الشموع. وقال من فعلوا ذلك بأن الشيخ زارهم مناماً وأوصاهم بعمل الضريح والقبة. لم يجد حسين المسجد القديم وصدم عينيه مسجد جديد ضخم فخم متعدد درجات السلم الرخامي، ذو مئذنة عالية تزينها لمبات الإضاءة الكهربائية، فشعر بحزن غريب وذرفت عيناه دمعات رغم عنه وهو يشاهد المسجد الشاهق كأنه في مأتم فلاح بسيط قتله رجل متفرنج، يدخن سيجاراً كبيراً بطول المئذنة. وتذكر اليالي الجميلة لرجال الصوفية في المسجد القديم ودوي أصواتهم بلفظ الجلالة يهتز له كل شيء. فهمس في نفسه:
- كان لابد وأن يهدم المسجد القديم، فقد رحل رجاله ولاسبيل له إلا اللحاق بهم، فلو ظل الي اليوم ليرى تلك الوجوه المائعة لتشقق وهدم نفسه قبل أن يهدموه بأيديهم.
- قالوا: وزارة الأوقاف ضمت المسجد القديم اليها حين تناوب عليه «الشباب السُنيين» الذين يطيلون خطبة الجمعة والدروس الدينية قبل

وعقب الصلوات. وطمسوا زخارفه وقالوا: الرسول- صلي الله عليه وسلم- قال: اذا زينت المساجد فإحذروا الريح الأحمر، وهي السرطان والفشل الكلوي.

ومن يخالفهم الرأى ويطلب الدليل الواضح على صحة كلامهم يتهمونه بالكفر والخروج من الملة. فتشاجر معهم بعض الشباب المتعلم، وخريجوا الأزهر وسخط عليهم بقايا رجال الصوفية، وأبلغوا فيهم مركز الشرطة. بعدها تسلمته الأوقاف، وبعد حوالي عام هدمته لتصدعات كبيرة حدثت به، وإبتنوا هذا المسجد العملاق.

*****

أمام ضريح سيدي عاكف وقف حسين يقرأ الفاتحة علي روح الرجل الذي سمع عن حكاياته من جده ودراويش الحضرة. وحزن لمشهد الضريح الذي أكلته الرطوبة وشوهت ألوانه وجدرانه، وبهت كل شيء فيه، وتمزقت ستائره الخضراء السندسية، وعلاه التراب، وعششت في مناحيه العصافير، ونسجت العنكبوت بيوتها بداخله، وماتت الشموع التي كانت لا تنطفيء، وكأن آثارها التى بقيت من سيلانها على الشباك دموع سوداء جفت خدود صاحبها وتحجرت.

*****

تراجع حسين إلى المنزل ولم يدخل المسجد الجديد، ولم يجد من الإعتذار ما يقوله لسيدي عاكف الذي حاول السنية هدمه قائلين: إنه بدعة ووثن وجاهلية، وكادت تحدث فتنة كبيرة حسمتها الشرطة بأن أخذت موثقاً وعهداً من هؤلاء بترك المقام والضريح وإلا عرضوا أنفسهم لما لا يحمد عقباه. وأمام التغيير الذي طال كل شيء، إنخرط الصوفية في همومهم وما عادوا يبالون بشيء فتركوا الضريح. وأمام حاجيات الحياة وجنون أسعارها،

جعلت الأمثال الشعبية القديمة تأخد طريقها للظهور مرة أخرى: «اللي يحتاجه البيت يحرم علي الجامع»، بل طالت فرائض العقيدة ذاتها فقالوا عن الزكاة: «يا مزكي حالك يبكي»، وأهمل الكثيرون ذلك بل تفلسف المتعلمون منهم بأن الضرائب التي يدفعونها هي بمثابة الزكاة، فلا داعي للغرامة مرتين.

*****

ذهب حسين الي البيت وكأنه ودع عزيزاً عليه، حزيناً كسيراً، وشريط من الذكريات لا يفارق عينيه، تذكر أيام الصبا والشباب عندما كان يغيب مؤذن المسجد فيصعد هو علي سطح المسجد ليؤذن للصلاة، وفي بعض الأحيايين كان يؤم الناس فى حال غياب الإمام.

وكان وأترابه شعلة من النشاط والحب في عمليات كثيرة تتعلق بالمسجد كنظافة وغسيل الأرضية، وتناوب العمل علي طلمبة المياه التي كانت ترهق مستخدمها، والبحث عن المعلم أيوب النصراني في الحقول حتي يأتي لإصلاحها اذا تعطلت عن العمل. لا ينسى إنتظار صوت المؤذن في أيام رمضان وتجمع العديد من الرجال عند المسجد قبل أن تعرف القرية «أجهزة التليفزيون والفيديو وأطباق الدش وشرائط الأفلام الأجنبية». وما أن يقول المؤذن الله اكبر، حتى يتسابقون إلى بيوتهم كفراشات الحقل لإخبار أهليهم بوجوب الإفطار. تغيرت الدنيا، وأختفت المصاطب أمام البيوت، واختفي اليوم الطويل، وأصبح النهار لا يكفي لإنجاز الأعمال. وتمتم حسين وهز رأسه حزيناً:

- «سبحان مغير الأحوال».

*****

كانت بيوت القرية تخلو من دورات المياه، وكان الرجال والأضياف

يقضون حاجتهم بمسجد القرية، وربما كان ذلك السر في أن تجد المسجد عامراً أكثر ما يكون في صلاتي العشاء والصبح قبيل شروق الشمس.

ففي الصباح تتعدد فوائد المسجد، فإلي جوار قضاء الحاجة يغسلون وجوههم بعد نوم طويل، وأيضاً يؤدون فرض الصلاة. وكان طبيعيا أن يسأل المضيف ضيفه قبيل النوم إذا كان يرغب في الذهاب الي المسجد أم لا. وكان «الحمام» الوحيد بالمسجد لا يكاد يخلو طوال أيام الصيف ولياليه، وبعض أيام الشتاء المعتدلة الحرارة، رغم ملوحة المياه. فقد كان يحلو للكثيرين حلق العانة «بالموسي البراني» الذي يجلبه من دكان الحلاقة المجاور للمسجد والذي خصص صاحبه ثلاثة أمواس «برانية»، ما عادت تصلح لحلاقة شعر الذقن، لهذا الغرض، ولكل أهل القرية. ويعود وصف براني لأنه يستعمل خارج المحل، وكان طبيعياً أن يمكث البعض في الدكان منتظراً من يعود «بالموسي البراني» وقد إنهي مهمته به فيأخذه صاحب الدكان ويعيد حد شفرته، وربما ذهب المتعجل منهم الي باب الحمام وطرقه طرقاً خفيفاً، هامساً الي من بالداخل يستحسه أن يعجل ويتنهي ويدعه من اللكاعة..! أما النساء فكن يقضين حاجاتهن إما في ذرائب البهائم نهاراً، وفي الليل علي الطرقات غير الرئيسية المظلمة المترامية في أطراف القرية وبخاصة طريق المقابر.

كان مسجد القرية محور الحياة فيها، منه يبدأ اليوم، تنتعش أنفاس النهار وفيه منتهاها، ففي الصباح حيث قضاء الحاجة للرجال وإزالة مسحوق الشثم الذي تجمد في العيون الرمداء، ثم الوضوء لصلاة الصبح لمن فاته الفجر. بعدها الانتشار في الحقول وذهاب كل حى إلى مصدر رزقه من أصحاب المهن مثل الحدادين والبنائين والشحاذين وغيرهم.

وفي المساء، قضاء الحاجة قبيل النوم، ولمن أراد حضور حلقات الذكربعد صلاة العشاء وربما صلاة الليل، وكان يحرص عليها نفر قليل من دراويش الحضرة.

كانت أبواب المسجد مثل البيوت لا مفاتيح لها، ولا يغلق منها إلا الباب المطل مباشرة على الشارع لمنع دواب الليل مثل الكلاب والقطط والحمير السائبة. تماماً مثل أبواب البيوت يردها الناس ثم يضعون خلفها عرق خشبى أو جذع شجرة.

وما بين بدء حركة الحياة في الصباح الباكر، وخلود أهل القرية إلى مخادعهم ليلاً، كان المسجد يشهد حركة دؤوبة طوال ساعات النهار، من استحمام الرجال والشبان، وربما الاطفال في حمام المسجد، تشهد بذلك حوائطه، التي نخرها كثرة تناثر المياة عليها، فتساقط معظم قشرتها، وظهر الطوب الأحمر، وقد بهت لونه لتشبعه بالمياه شبه المالحة والصابون رخيص الثمن المخصص أصلاً لغسيل الملابس ولكنه المتاح الوحيد أمام المستحمين.

فقد كان الصابون (أبو ريحة) لاستحمام ليلة العيدين فقط، ومياه الترعة العذبة، وفي الطشت النحاسى داخل غرفة النوم، يظل ماء الصابون أبو ريحة حبيس الطشت حتى الصباح الباكر فتقوم النسوة بتنظيف الشارع قبالة البيوت، ثم رش مياة الصابون المعطر فوق ترابه فتنتشر الرائحة الطيبة في شوارع القرية.

علاقة أخرى قوية بالمسجد، تتجلى في أيام الصيف وخاصة إذا صادف شهر رمضان وهو نوم القيلولة وبعد صلاة العصر، حيث الهواء الرطب وروح السكينة التي يودعها الله بيوته ، في الأرض.

*****

أما تلاميذ وطلاب المدارس والمعاهد فكان المسجد لهم بمثابة بيت كبير يجمعهم. فيه ينتظر الصديق صديقه، ويتخذون من حوائطه مسانداً لظهورهم وهم يستذكرون دروسهم، وخاصة عند اقتراب الامتحانات، وفوق سطحه يصعد من زهق من القعود، وكان مشهد التلاميذ والطلاب وهم يتجولون وفي يد كل منهم الكتاب المدرسى أقرب ما يكون إلى عساكر الحراسة.

تعود حسين ورفاقه، في كل عام وقبيل حلول شهر رمضان أن يجمعوا من الأهالي ما تيسر لهم جمعه من نقود لإعادة طلاء المسجد حتى يبدو وكأنه ارتدى ثوباً جديداً لاستتقبال الشهر الكريم، وكأن الطلاء كسوة جديدة لكعبتهم الشريفة في كل عام.

ولا ينقطع الارتباط بالمسجد عند نهاية الدراسة، فقد كانت الباحة الكبيرة التي أمامه والفراغات المحيطة به بمثابة ملاعب رياضية متنوعة.

الآن التهمت البيوت المزدحمة بسكانها ذلك البراح حتى يخيل إليك أن المسجد الجديد التي بنته وزارة الأوقاف، بعد أن هدمت القديم قد اختنقت بالبيوت أنفاسه، ويمد مئذنته إلى السماء كغريق يرفع يده حتى ينتشلوه من الهلاك.

*****

يذكر حسين جيداً أول مكبر صوت اشتراه الأهالي ليعلق فوق المسجد، فقد كانت فرحة غامرة وكان ورفاقه قد أنهوا طلاء المسجد ابتهاجاً بشهر الصوم الذي مضى منه أسبوعاً، أكمل فيه بعض الرجال جمع ما يكفي من المال لشراء الميكرفون وصنع له البعض الآخر من جذوع الشجر ما يصلح لأن يعلق عليه فوق سطح المسجد كأنه مئذنة صغيرة .

وكانت الحكومة أطلقت التيار الكهربائى بعد زرع الأعمدة الحديدية وشد الأسلاك عليها، تلك العملية التي بدأتها منذ ست سنوات كاملة حتى أصبحت جاهزة تماماً لإنارة القرية.

بعد ساعتين من ظهر العاشر من رمضان كان مكبر الصوت جاهزاً تماماً للعمل. ولم يكن الميكرفون وحده الذي جاء به الأهالي لرفع الأذان وخطبة الجمعة والأحاديث الدينية، وإنما اشتروا مذياعاً خاصاً بالمسجد لمعرفة حلول وقت الصلاة وبث إذاعة القرآن الكريم من خلال الميكرفون وكانت فرحة كبيرة تهللت لها قلوب الجميع.

ولكن الفرحة الطاغية حين فاجأ الراديو كل الجماهير بالبيان الصادر من الجيش المصرى بنجاح قواتنا المسلحة المصرية في عبور قناة السويس أكبر مانع مائى في التاريخ، وانطلق الصوت البطولى عبر الميكرفون إلى عنان السماء فتهلل الأهالي في فرح أكبر من أن يوصف، وهتف الكبير والصغير:

- الله أكبر، الله اكبر، الله أكبر.

ورقص من رقص، وقفز من قفز، وحملت الفرحة الجميع على أجنحتها وطارت بهم وأطلق عليه الناس ميكرفون النصر وراديو النصر ومسجد النصر ويوم النصر، وتساءل الأهالي ماذا يفعلون لمساندة أبطال النصر.

*****

في المساء كان الشباب، يسهرون طوال الليل على مداخل القرية في نوبات للحراسة، متخذين من العصى أسلحة للتعامل مع أى طارىء، وذلك بجوار الخفر الرسميين، وأعلنت وزارة الداخلية حالة الطوارىء في كل مكان، وكان حسين يصنع من عصاة خشبية ما يشبه البندقية وفي داخلة احساس رائع بأنه يؤدى دور وطنى ويحقق بذلك الحديث الشريف «عينان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله».

*****

عندما جاءت إشارة وزارة الصحة ليلاً بأن مستشفيات ميدان القتال في حاجة إلى من يتبرع بالدم لم ينم الناس حتى تنفس الصبح وبدأت شقشقة العصافير، لم يذهبوا إلى حقولهم وبادروا إلى المستشفي العام بالمدينة في فرحة غامرة وكأنهم ذاهبون إلى عرس عزيز لديهم، وفي داخل كل منهم إحساس بالعزة والفخار، وكأنه يشارك فعلياً في الانتصار بدمه.

كانت المرة الأولى التي تعرف فيها القرية صورة الرئيس أنور السادات، بعد ان تأكد الناس من ان أخبار النصر حقيقية وأن جنودنا فعلاً عبروا القناة

وان طائراتنا باغتت قواعد العدو ودكتها دكا وليس كلاما كما حدث منذ ست سنوات.

لم يجد الناس ما يعبرون به عن فرحتهم إلا بالدعاء للجيش بمزيد من النصر والدعاء لصاحب قرار العبور والبحث عن صور له ليحملوها ويهتفوا بها.

لكن تعذر الأمر عندما رفض ناظر المدرسة إعارتهم صورة الرئيس بحجة أنها عهدة عنده وإذا طاوعهم في ذلك سيروح- كما قال- في ستين داهية! لكنه اقترح عليهم أن يذهبوا للهيئة العامة للاستعلامات في المدينة فهي توزع صور الرئيس وبالمجان.

وعلى الفور صدر تكليف الأهالي للاسطى على السفروتي ومعه بعض الطلاب ليقوموا بالمهمة. وبعد أن جاءوا بصور الرئيس السادات الملونة، كانت حماسة الهتاف وسورته، قد خبت وتوارت واستبدلها الناس، بالتأمل في صوره وخاصة عينيه.

- انظروا يا جماعة للمكر، الذي يملأ عينى الرئيس؟!

- عليّ الطلاق بالثلاثة هذا ذكاء غير طبيعى.

- فعلا رجل يضحك على الديب ويأكل غداه، ضحك على اليهود يا جماعة الذين لا يقدر عليهم أحد.

*****

فيما بعد قال الناس الكثير عن دهاء الرئيس الذي خدع المخابرات الأمريكية والاسرائيلية ، ونفذ خطته بعبقرية. وكثرت حكايات الجنود العائدين بفرحة في ليالي السمر، منهم من قال عن بطولات شارك فيها ومنهم من حكى ما رآه للمرة الأولى في حياته من طوابير الأسرى اليهود. ومنهم من أقسم أنه كان بينة وبين الأسير الشهير الجنرال عساف ياجورى، مسافة مترين فقط وكان يتمنى أن يلسعه على قفاه لولا خوفه من قائده فللأسير حقوق.

انتشرت الأساطير الكثيرة عن العساكر الذين كانوا يلبسون أبيض في أبيض وهؤلاء هم الذين أسروا ياجورى، وقالوا: هذه تصريحاته وأسرى كثيرين غيره.

- قال خطباء المساجد: الذين كانوا يرتدون أبيض في أبيض هم جنود الله من الملائكة. وذلك ليس بمستبعد على الله فقد فعلها مع الرسول الكريم في مواقعة كذا وكذا.

وانتشرت شائعات الملائكة في كثير من المجالس ومال خلق كثير لتصديقها. قالوا:

- الرئيس المؤمن الذي يحارب في شهر رمضان المبارك، وإن العساكر الذين يحاربون وهم صيام لابد وأن يؤيدهم الله بالملائكة.

وبلغت البهجة ذروتها عندما ظهر الرئيس السادات في أول خطاب له بعد النصر، كادت قلوب الناس تستخرجه من شاشات التليفزيونات التي انتشرت بشكل غير مسبوق حين تصارع الناس لشرائها مع أول بيان للنصر.

وكثيرون منهم قبلوا صورته على الشاشة، إمتناناً وشكر، وكثيرون قالوا: فعلا كرامتنا رجعت بعد الذل. وكلما أعاد التليفزيون بث الخطاب يتسمر الناس من جديد أمام الشاشة، وكأنه سيقول شيئاً جديداً لم يقله المرة الأولى.

وجعلوا يتكلمون عن ذكاء الرئيس، ومكر الرئيس، ودهاء وإيمان الرئيس الذي يذكر الله في أول كلامه ووسطه وختامه. وقالوا: إن رجلاً بهذه الصفات لابد وأن ينصره.

وللمرة الأولى عرفت حوائط البيوت صور الرئيس السادات.

*****

ومن الطرائف التي تحملها ذاكرة القرية، أن سقطت إحدى طائرات العدو محطمة في قرية تسمى «الطيارة»، فكان الناس يضحكون ويتندرون على ذلك، قائلين: الطيارة وقعت في الطيارة.

ومن طرائف هذه الواقعة أن الطيار الاسرائيلى كان يتكلم اللهجة المصرية، وحاول إفهام الناس أنه مصرى بعد أن اصطادوه من أحد الحقول، بعد أن تمكن من القفز سليماً من الطائرة بكرسى النجاة المعد لذلك، ولكن الناس لم يصدقوا كلماته واحتجزوه أسيراً حتى جاءت السلطات لتأخذه ولم يتعاطف أحد على الاطلاق رغم تأكيداته أنه مصرى ومن البلد الفلانى ومن القرية الفلانية وابن الحاج فلان، ولكن بعض الأهالي، ضحكوا مستهزئين وهم يقولون: إلعب غيرها يا صهيونى. وبرر الناس فيما بعد عدم التعاطف معه بأن قلوبهم لم تصدق أقواله.

أما اسم قرية الطيارة، فلا علاقة له بما حدث وإنما يعود إلى زمن قديم ورجل فقير زاهد لا يعرفه أحد. كان يقيم بعيداً عن الخلق وابتنى لنفسه طيارة تقيه حر الشمس، فالطيارة في عرف الفلاحين تتكون من أربعة فروع من الشجر مثبتة في الأرض ومشدود في أعلاها فروعاً أقل سمكاً تحمل السقف المكون من القش والحطب، بينما جميع جوانبها بلا حوائط، يطير فيها الهواء كيفما شاء، يستظل تحتها الناس والبهائم، ومن هنا جاء اسم الطيارة.

وكان كل من يرد إلى المنطقة يتبرك بالرجل ويبتنى بيته الريفي، بالقرب من طيارة الشيخ الفقير الزاهد، ولما كثرت البيوت أطلقوا عليها اسم عزبة الطيارة.

*****

٢٥

العلم الأمريكى فى سماء القرية

في إحدي زياراته جحظت عينا حسين دهشة حين رأي عدداً من الخيام قائمة مضروبة الي جوار القرية في مكان بارز وواضح، يعلوها العلم الأمريكي. وسأل من معه، قالوا:

- خبراء أمريكان يعملون في مشروع اسمه تطوير الري بالأراض القديمة، ويقولون أن بطن الأرض الزراعية مليئة بالماء وذلك يجعلها مريضة قليلة الإنتاج. ثم تبعوا كلامهم بضحكات ساخرة تنئ عن شيء ما خفي.

- قال أحدهم معلقاً: يعالجون أمراضهم أولاً، وبعد ذلك يفكرون في علاج الأرض الزراعية. واذا بالضحكات والقهقهات الشامتة تعلو بصورة تدعو للدهشة والتساؤل!

- ماذا حدث؟! قالها حسين مستريباً في أمرهم.

- الولد جعيصة ابن شريفة الغزية يا سيدي، أصبح اسمه جعيصة الأمريكاني... ثم عادت الضحكات من جديد وقال أحدهم:

- عجائب، جاءوا ليطوروا الأرض الزراعية فطوروا الواد جعيصة.

- وقال آخر: والله العظيم هذا فساد وضلال وقلة دين، جاءوا ليعبثوا في أرضنا ويفسدوا أخلاق الفلاحين فهل هذا كلام؟!

- سأل حسين وقد فرغ صبره: ما الحكاية يا جماعة؟!

- همس أحدهم في أذنه قائلاً: ضبطوا جعيصة ولامؤاخذه وهو راكب الخبيرة الأمريكية في عشة البهائم..!

لم يجد حسين رداً سوي إنفجاره في الضحك لوقت طويل ثم سأل:

- وماذا حدث بعد ذلك؟!

- قال أحدهم والغيظ يملأ صدره: حدث؟! طاقة القدر وفتحت للجبربان، حرامي البط والحمير أصبح من الأثرياء ولم يعد يملأ عينيه كبير أو صغير!.. ولأصبح جعيصة سيداً بعد أن كان نكرة لا وزن له، وكان الجميع يعامله بإزدراء، فقد كان صعلوكاً لا يعرف سوي النصب والسرقة ويستخدمه بعض تجار المخدرات في ترويجها، وكان ذلك يملأ صدره حقداً وغيظاً، وكان أقصي أمانيه أن يعمل مخبراً في جهاز الأمن كي يذل الناس بالتهم الملفقة. وكان الناس يطردونه من القرية بعد كل سرقة يقوم بها وما هي ألا أيام ويعود يبكي ويقبل رؤوس الكبار فيرقون لحاله بعد أن يقسم بأغلظ الإيمان أنها توبة صادقه.

- جعل حسين يتمتم قائلاً: زاقولى متعدد المواهب والوجوه، أين أنت ياعم عبده لترى إبنك الروحى جعيصة الأمريكانى، ثم عاوده الضحك بطريقة أدهشت من معه، وقال: كثر الزواقيل فى الأرض، حقاً كل من عليها زاقولى .

*****

عاد حسين الي درب البهلوان، وحكي ما حدث لصديقه محيي الدين ليري تعليقه الساخر علي ذلك الحدث الفريد..! فإذا به يهب واقفاً وقد شمر عن ساعده ورفع يده وكأنه في مظاهرة سياسية، وبصوت مرتفع جعل يردد:

- تعيش مصر حرة، تعيش مصر حرة مستقلة.

ثم إنفجر في نوبة ضحك متواصل، وكلما نظر الي حسين قال له:

- قلت لي جعيصه عمل أيه؟!... ثم يهتف من جديد:

- يعيش جعيصه، يعيش جعيصه، يعيش جعيصه بطل العبور العظيم.

وعندما أخبره حسين إن جعيصه قد شارك فى حرب أكتوبر بالفعل، هب محيي الدين واقفاً مرة أخري هاتفاً:

- يعيش جعيصه بطل الحرب والسلام... هل تعلم يا حسين أنني أفكر في تكريم الأخ جعيصه علي أنه بطل قومي ركب إحدي القوي العظمي في العالم، ثم سكت قليلاً وقال:

- آه لو فعلها مع الإتحاد السوفيتي أيضاً لعملت إستكتاب شعبى وصنعت له تمثال ..!

*****

بعث مشهد الخيام في القرية تاريخها الأسود القديم من جديد، فقد عرفها الناس ثلاث مرات قبل مجيء خيام خبراء تطوير الري الأمريكان..! ارتبط مشهد الخيام في أذهان الناس بالكوارث والنكبات، فقد حدث للمرة الأولي حين إنتشر مرض «التيفوس» في قري مصر وبعض المدن في يونيو ١٩٤٢ أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد مات بهذا المرض اللعين- كما تقول السجلات- قرابة ربع المليون إنسان في مصر وشمال افريقيا واليابان والمانيا، قبل انتشار وباء الكوليرا في بلادنا بخمسة أعوام .

وجاء رجال الحكومة ومعهم الطبيب الإنجليزي وضربوا خيامهم بجرن كبير بالقرب من المقابر، ونصبوا الغلايات العملاقة، وجعلوا يبخرون البيوت والأهالي ويقذفون بملابسهم الي بطون الغلايات المليئة بالمسحوق المطهر للوباء، وقد فرض الطبيب الإنجليزي نظاماً صارماً نفذه الجميع، حيث كان يتم نقل المرضي الي الخيام في خطة طبية لعزلهم عن الأصحاء، حتي يمكن السيطرة علي الوباء، وقد خصص خيمة لتغسيل الموتي عن بعد ثم القذف بهم سريعاً في بطون المقابر. يذكر الحاج عبدالله ابوعيسى، شاهد العيان الوحيد الباقى حياً من جيله بالقرية. ورغم تجاوز سني عمره المائة عام، إلا أنه يتمتع بذاكرة يحسده عليها الشباب! فقال فيما قال:

- يا سلام، كانت أيام ضيق وقرف ورعب من المرض الملعون، وكان أكثر الناس فقراء لا يملكون سوي جلباب واحد، وأمام أوامر الطبيب الإنجليزي

وحوله الخفر والعمدة وعسكر الحكومة كانوا يخلعون جلابيبهم ويحاولون ستر عوراتهم بأي شيء حتي يتم غليها في المطهر ونشرها في الشمس حتي تجف، وكان مشهد الخلق وهم عرايا وكأننا في يوم الحشر يجعلهم يطلقون الضحكات الساخرة الحزينة، فقد أفسد الموت كل شىء حتى الضحكات، كان يزهق كل طلعة شمس نفوساً كثيرة وكنا نلقي بالماء علي الجثث ونحن بعيداً عنها خوفاً من العدوي ثم نقذف بها في الجبانة ملفوفة في ملابسها. وضحك الرجل، حتي ظهر ظلام فمه الخالي من الأسنان وقال:

- من أين كنا سنأتي بأكفان لكل هؤلاء؟!... وكان الخوف علي أنفسنا لا يعطينا فرصة البكاء علي الموتي، فقد كان شيئاً عادياً مثلما يحدث في الحروب. ويصمت الرجل قليلاً ثم يقول وكأنه يتذكر تاريخاً قديماً:

- الحروب، أوه يا دنيا، لقد عشت حروباً ورأيت قتلي بعدد شعر رأسي...

بعد خمس سنوات عادت خيام الوباء الي القرية بوجهها الأبيض الكالح كوجه أكفان الموتي، حين اجتاح وباء الكوليرا البلاد. ومرة أخري يتحدث الحاج عبدالله أبو عيسي عن ذكريات تلك الأيام بعد إلحاح شديد فقد كان يعترض علي ذكريات الموت والبلاء، قائلاً:

- يا جماعة تذكروا الأفراح والليالي الملاح، لماذا الإصرار علي الموت، هل تخوفونني؟! لن أموت قبل أن أدفنكم جميعاً، ثم يضحك طويلاً، ويقول: أكيد سيدنا عزرائيل شطب اسمي من دفاتره متوهماً إنه قبض روحي منذ سنوات طويلة، على رأى الواد علي السفروتي.

وبعد نوبات الضحك الطويل يعود حديث الكوليرا، فيقول:

- كان الرجل أو المرأة اذا استفرغ ما في بطنه وأصابه الإسهال الشديد، نسلم أمره لله... وكانت خيام الكوليرا في نفس المكان القديم في جرن الجبانة، وكانت النسوان تأتي بالمياه من الترعة والرجال يضعون الماء في طشوت كثيرة ويصنعون الكوانين ويشعلون النار بها لتدفئة الماء. ثم يصمت

الرجل لحظة ويقول: لكل شيء أصول وقواعد ومن أصول غسل الميت أن يكون الماء فاتر لا بارد ولا ساخن. وكان أهل الميت هم الذين يغسلونه، كان الخوف راكب الكبير والصغير، ندفن في اليوم الواحد أكثر من عشرين ميت، نحملهم علي السلالم الخشبية، فنعش واحد في القرية لا يكفي لنقل الموتي الي خيام الغسل. ثم ندفنهم في ملابسهم، كان الفقر مثل الكابوس الأسود كابس علي أنفاس الخلق. وصمت الرجل لحظة وقال: إيه، قلبتم المواجع، كانت الذئاب تتسلل في ظلام الليل الي المقابر وينبشونها ويجرجروا الموتي خارجها وتلتهم أجسادهم كيفما يحلو لها. وضحك الرجل فجأة وهو يقول:

- صحيح العقل زينة، لكن أية عقل؟! والجوع الكافر، لقد نفق في أيام الكوليرا وحدها أكثر من الف ذئب بسبب إلتهامهم لحم الموتي المصاب بالطاعون، نفس الحكاية حصلت أيام التيفوس، كنا نسمع الذئاب تعوي من شدة الألم طوال الليل، وفي الصباح نري جثثهم منتفخة في مصارف الغيطان وعلي السكك. وتنهد الحاج عبدالله قائلاً:

- إيه، كل من عليها فان، بشر وذئاب!

*****

أما ثالث أيام الخيام فكانت بسبب الحريق الكبير الذي دمر معظم بيوت القرية. خمدت النيران منذ أكثر من ثلاثين عاماً وولي زمانها ومات اناس وولد آخرون، بل أن معظم من عاصروها من الرجال والنساء فارقوا الحياة، ومن يعمرون القرية الآن هم الأبناء الصغار الذين كانوا يلعبون في الطين والتراب، ومن الطرائف الغريبة أيامها كان الأطفال الذكور اذا ما إنتهوا من قضاء حاجتهم وتبرزوا الي جوار الجدران، نفخوا التراب في مساحة من الشارع وقاموا بمسح مؤخراتهم بها بقصد تنظيفها. وكان اذا رأي الصبي منهم شعره نابته في أرض الشارع أثناء نفخ التراب، يترك المساحة لغيرها بعد تحذير أترابه بأنها شعره «ملك» تحت الأرض أو شيطان ومن يقتلعها

يصاب بضرر كبير. خمدت النيران وبقيت الفضائح زمناً، ثم جعلت تتهاوي الي مغارات الذاكرة ، لا تظهر الا في أوقات قليلة جالبة الضحك أو الغيظ ، وربما التقاتل بين من تزيد بينهم حدة المعايرة بذكريات الآباء غير الشريفة، بل كان بعض هؤلاء الرجال- صبيان بالأمس- يرسلون اللعنات علي آبائهم وأمهاتهم، وربما وصفوهم بأنهم: عالم جهلة، كانوا يعيشون مثل الحيونات أو حمير الوكالة.

*****

فقد كشفت النار بشكل لا يدعو للشك كل من سرق حديد وخشب الجمعية الزراعية...

وكانت حكومة الجمهورية الجديدة بعد طرد الملك وإلغاء الملكية إنتوت إنشاء وبناء الجمعيات الزراعية، وبدأت الخطوات العملية في ذلك بأن خصصت المكان، وجعلت تأتي بلوازم الإنشاءات، وكان أولها عروق الخشب التي يبلغ طولها خمسة أمتار، وذلك الطول يميزها عن التي يستخدمها أهالي القرية في سقف بيوتهم حتي يبلغ أقصي طول لها أربعة أمتار. فكان اللصوص من الأهالي حين يعرشون بها يجعلون فائض طول العروق داخل البيت، أما البقية فكانوا يخفونها تحت قش الأسطح لحين الأستفادة منها مستقبلاً بالبيع أو الإستخدام عند تجديد المنزل. وكانت الفضائح تعلو عندما تأكل النار القش وحطب القطن، ثم تبدأ عملها في العروق فتظهر الكتل الملتهبة فيتصايح الرجال:

- خشب الجمعية يا ولد، وإذا بهم يتكاسلون في عملية الإطفاء قائلين: خلي النار تطهر الذنوب وتأكل الحرام والحلال.

ولكن المفاجأة الأكبر، حين إكتشفوا أن بعض الأهالي سرقوا حديد التسليح أيضاً وأخفوه تحت القش والحطب، ولما أتت عليه النار وعملت علي تسخينه كان يعرفون أماكنه باللسعات التي تصيب أقدامهم العارية

فتؤلمهم بشدة وتجعل البعض منهم يسب دين صاحب الدار ويلعنه ألف لعنة، ثم يتركون السطح والبيت فريسة للنار. كان خفير لوازم إنشاءات الجمعية، رجل قليل العقل يعشق ممازحة النساء، ولما كان غريباً عن القرية إنهالت عليه دعوات تناول الطعام وبخاصة العشاء ثم السهر بعدها لشرب الشاي والمعسل، ولا يعود الي حراسة مواد الإنشاء إلا في وقت متأخر من الليل، حتي أصبح من الطبيعي أن يذهب الي بيوت القرية في أي وقت ودون دعوة طالباً الطعام أو كوباً من الشاي وحجراً من المعسل دون التقيد بوجود رب الأسرة بالدار. وقد كان لعدم وجود رب الأسرة إنشراح صدر الخفير ليتمتع بالأحاديث النسائية التي تعدت في بعض الأحيان كونها أحاديث الي أفعال أخري- والله حليم ستار- كما يقول العامة. وقد تركزت السرقات في الأخشاب وبعض الحديد، أما الطوب الأحمر وعبوات الأسمنت والرمل والزلط فلم يقربها أحد لكونها فاضحة سارقها، فجميع بيوت القرية من الطوب اللبن النيء، فأين يذهبون بها ولا يوجد بناء بالطوب الأحمر والخرسانة إلا المسجد ودوار العمدة..؟! ولا يستطيع سارقها بيعها لإنعدام طلبها في القري. أما الحديد فقد طمع فيه من يدعون النظر البعيد، فهو لن يتلف بتعاقب الأيام عليه، ولو أستمر عشرات السنين مدفوناً تحت القش.

*****

قبل أن تذهب النيران بأخشاب الجمعية الزراعية، كانت الحكومة قد ذهبت بالسيد الخفير، تمهيداً لمحاكمته بتهمة تبديد وإختلاس مواد الإنشاء..! ذهب الخفير وخلَّف وراءه فضائح عديدة وإتهامات باطلة وغير باطلة للعديد من نساء القرية، بل جعل بعض الأهالي فيما بعد ينسبون إليه بعض المواليد الذين ولدوا في عام السيد الخفير، وكان الأهالي ينادونه: يا خال سيد..! وكان بعض مكشوفي الوجه وقليلي الحياء يتضاحك الواحد منهم قائلاً:

- قسماً بالله، الولد ابن فلان صورة طبق الأصل من خالي السيد، الله يرقده في جهنم الحمرا، كانت أيامه كلها نجاسة في نجاسة.

- ويرد آخر: آه يا بلد تبيع عرضها وشرفها بعرقين خشب!

- ويتهكم غيره: والغريب يا أخي إن حناجرهم كانت تبح من ذكر الله، وفي سرقة الخشب يا مولانا أسرع من الصاروخ السوفيتي.

*****

وكانت تلك الجلسات دائماً ما تنتهي بأقوال مثل:

- دع الملك للمالك، إن الله حليم ستار.

أما أطراف ما فيها إن رواتها كانوا جزءً لا يتجزأ مما حدث، وربما طالتهم الإتهامات التي كانوا يوزعونها علي الناس أكثر من غيرهم، لكنها الطبيعة البشرية التي تبيح لنا أن نلصق الإتهامات بغيرنا، أما نحن فشرفاء نبلاء لا يمكن لنا أن نتدني الي هذا المستنقع..!

*****

مكث خبراء تطوير الري الأمريكان في حقول القرية عدة سنوات، ونشرت صحف الحكومة أخبار عنهم وعن خططهم المتقدمة في عمليات التطوير الذي سيضرب عصفورين بحجر واحد، إعادة الخصوبة للأرض التي أهلكتها أمراض كثيرة حتي أصبحت كمريض الأستقاء بطن منتفخ وجسم وأهن، وثانيها توفير كميات هائلة من المياه يمكن إستغلالها في أستصلاح وأستزراع الأراض الصحراوية. جعل الخبراء ينشأوون السدود الصغيرة ذات العدادات علي فوهات الترع لحساب كميات المياه الواردة، وكذلك علي فوهات قنوات الري علي رؤوس الأراضي، وأيضاً آلات تحسب المنصرف من الماء بعد ري الأرض بطريقة الغمر التي تعودها الناس. لم يغيروا النظام لكنهم ظلوا سنوات يحسبون كميات المياه، بعدها ابتكروا عملية لرى بعض

الحقول الإرشادية بالخراطيم الرفيعة، بعد تخطيط الأرض الي خطوط طولية ثم يحصدون المحصول ويقارنوه بمحاصيل ما قبل عمليات التطوير. كان فريق العمل الأمريكي يضم بين أفراده خبيرة ألهبت غرائز كل من يراها، بيضاء اللون، ذات شعر أصفر ناعم طويل يعبث به الهواء حيث شاء، عيون زرقاء ساحرة وإبتسامة تفيض عذوبة، وبخاصة طريقتها في نطق بعض الكلمات المصرية البسيطة حين كانت تداعب بها الفلاحين، مثل كلمة «صباح الخير» التي كانت تنطقها: «صباه الهير. ما ألهب غرائزهم أكثر تلك الملابس الضيقة التي تظهر مفاتن الخبيرة وبخاصة عجيزتها التي تميل الي الإمتلاء والبروز، والتي يتوهمها «إخواننا» خلف البنطلون الضيق الملتصق بها وكأنها جنة رضوان، وكان يسيل لعابهم لهذه المشاهد التي يظلمون فيها نسائهم دائماً. ومع تكرار الرؤية ألفت النفوس منظر الخبيرة، وهدأ ما كان يعتمل في نفوسهم، وبدأ الإعجاب يتواري شيئاً فشيء، بل أقسم أحدهم أنها لو خلعت ملابسها المثيرة لوجدوا نساءهم أحلي منها مليون مرة.

- فرد عليه آخر مستنكراً: يا رجل إتق الله، هذه «مكنة» لا نظير لها، وقليل وجودها.

- وقال آخر مؤيداً: استحلفك بالله هل يتساوي هذا الشعر الحرير مع «كدش» نسوان البلد؟!

- ويعترض آخر مؤكدا أن ما يرونه هو فعل الملابس الضيقة واللقمة النظيفة، وإنها لو شالت الزريبة يوم واحد فقط كما تفعل النساء لرأيتها تقرف الكلب.

*****

رغم الجدل والآراء المتباينة إلا أنها كانت في حدود الكلام لا الفعل، وكانت الأمور تمضي في سلام دون أية مشاكل حتي جاء اليوم الموعود، وكانت الخبيرة ورفاقها كعادتهم ينتشرون في الحقول. وإذا بالمدعو جعيصة،

الذي أطلق عليه الناس، لقب «الجرف» لخشونته وغلظته، ينظر حوله يمنه ويسره فلا يري أحداً، وكعادته همس لنفسه:

- الحمد لله لا يوجد صريخ ابن يومين، انزل الترعة أخذ غطس وأطلع.

وبالفعل خلع ملابسه كاملة، كما يفعل الناس، ونزل الي الترعة ليأخذ الغطس. وبالصدفة كانت الخبيرة تتابع جعيصة وهي جالسة بجوار عشة للبهائم، وبينما كان يهم بالخروج من الترعة عرياناً كيوم ولدته أمه متجهاً الي ملابسه ليرتديها إذا بالخبيرة تقفز إليه كالمجنونة صائحة بالأنجليزية «أوه ماي جاااااد» حاول جعيصة الذي أربكته المفاجأة، إفهامها أن ذلك عيب وفضيحة، لكنها كانت تتكلم وهو يتكلم في طريق آخر، ولما لم يجد بداً وخشي أن يراه أحد، أخذها الي عشة البهائم، وهو يردد:

- استر يارب، أستر يارب

لحظات وبينما جعيصة يجتاح الخبيرة التي علأ فحيحها المجنون، واذا الأرض تنشق عمن سمعوا أصواتهما!و كانت دهشة بالغة عندما شاهده الناس:

- ماذا تفعل يا نجس يا ابن الكلب؟!

فزع جعيصة، بينما إنهال عليه كل من كان يود أن يكون في مكانه ضرباً وكأن الخبيرة أمه أو أخته!.. بينما الخواجاية تبصق في وجوههم وتضربهم وتحاول إنتزاع جعيصة من أيديهم. ولما إحمر وجهها وتطاير الشرر في عينيها وقد فقدت السيطرة علي نفسها وهي لا تبالي ولا تحاول ستر أجزاء جسمها العريان وتتكلم غاضبة بغير هوادة. زحف الخوف الي قلوب الرجال، توجسوا خيفة وهمس بعضهم للآخر:

- تركوا هذا البغل. فالمرأة تنتوي الشر، ونحن ضعاف ولن يصدقنا أحد، وسيسحبونا الي السجن كالأغنام!

*****

كان الحاج عبدالله ابو عيسي يضحك ساخراً كلما جاءت سيرة الخبيرة الأمريكية، قائلاً:

- سبحان مقلب الأحوال، قريتنا التي لم تعرف من النسوان الغريبة إلا المرأة التي تستخف بعقول النسوان وهي تدور في الشوارع زاعقة «أبين زين»، فتدخل البيوت وتملأها كلاماً عن العريس القادم وزيارة قبر الرسول الكريم والأراضي الحجازية والقدس الشريف، وتخرج وقد ملأت جعبتها من خيرات الريف. اليوم تطورت القرية وجاءت اليها نسوان أمريكا، عجايب يا زمن..!

- ثم يضحك غامزا بعينه: الله يجازيك يا جعيصة، يا ابن شريفة الغزية عليها رحمة الله وأسكنها الجنة الحمرا حتي ترقص فيها وتشبع رقص.

*****

كان الحاج عبدالله يقصد بقول:

- «النسوان الغريبة» تأتي بالمشاكل وتحدث الفتنة في القرية، فقد كانت ضاربة الودع سبباً في كثير من العداوات بين الناس، وهي تحذر البعض من شخص يريد الإيقاع الايذاء به، أو إمرأة ما عملت له عملاً، فإذا بمن يسمع الكلام يخمن بمن يريد به السوء ويستقر رأيه بناء علي بعض أوصاف ضاربة الودع لذلك الشخص، فتشتعل العداوة، والقطيعة بين الناس.

فقد عرفت القرية من النساء الكثيرات، ولكنهن كن رغم تميزهن لا يأتين بالمشاكل بل ربما كان بعضهن كنسمات طيبة، ولعل أكثرهن شهرة في ذلك الشيخة عنبر إمرأة الشيخ عنير- رحمة الله-، كما كان أهالي القرية يطلقون عليها. وكان الشيخ عنبر رجلاً طيباً ودوداً رقيق الصوت والجسم حلو الكلام، تفوح منه دائماً روائح العطور الزكية التي يحملها معه في حقيبة خشبية زاعقاً وهو يدور في الشوارع:

- «عنبر، عنبر» يبيع المسك والعنبر والطيب، ووصفات العنبر المخصوص

لتقوية الفحولة عند الرجال.

ولم يلبث الشيخ عنبر أن أصبح واحداً من دراويش حلقات الذكر ومحبي الشيخ عبداللطيف، وضيوف جد حسين كلما جاء الي القرية. فقد كان الشيخ عنبر بائعاً جوالاً في القري، والموالد حاملاً حقيبته الخشبية أينما ذهب، لا يخاف ليل السكك المظلم، واذا سأله أحد عن اسمه كان يقول: الشيخ عنبر. وهكذا حتي ما عاد يذكر اسمه الحقيقي. وظل الرجل هكذا، ووجد من القرية حباً ووداً فألفها حتي ظن أنه منها، وكان يعاود المجيء اليها ربما كل أسبوع أو أقل. وكان يقول:

- لولا أن رزق أولادي في تجوالي ما خرجت من القرية.

وكان الي جوار لطفه ورقته عازفاً ماهراً لآلة «الناي»، يحمله معه دائماً في الحقيبة الخشبية الي جوار العطور، ولما عرف الدراويش منه ذلك كانوا يطالبونه بالعزف لهم بعد كل حلقة ذكر يحضرها، وكان لعزفه شجي وشجن يأخذ بألباب القلوب. وكثيراً ما كان سحر عزفه يأخذ بلباب البعض فيصرخ وينتفض طرباً صوفياً خاصة شيخ الطريقة الحاج عبداللطيف. وظل الحال هكذا حتي مات الشيخ عنبر. فما كان من زوجته إلا أن حملت حقيبته وخرجت تسعي لرزق أولادها، يصاحبها في تجوالها طفلها الصغير، يؤنس دربها، وكان الشيخ عنبر ترك لها ثلاثة فتيات وصبي. وبقدر حزن الدراويش وربما أهالي القرية جميعاً لموت الشيخ عنبر، كان العطف والجود مع زوجته فكانوا يجمعون لها في مواسم الحصاد الكثير من القمح والأرز والذرة والفول ثم يوصلون ذلك كله الي بيتها. .

*****

واذا نسيت القرية، لا تنسي من الشحاذين الخالة سلمي، ذات الجلباب الأبيض والطرحة البيضاء والحذاء الأبيض، تسحب خلفها حماراً أبيض عليه «خرج» أبيض أيضاً، وكأنها هالة من البياض رائعة المشهد غاية في النظافة

وكأنها تغسل ملا بسها كل ساعة. وكانت صاحبة صوت رخيم جميل، تنغم الكلمات التي تحفظها في أسلوب لا يتغير. فكانت لا تطلب بالكلام المباشر وإنما تقول:

- واقفه بباب الكريم، أسأل مزيد كرمه... ومن يحب الكريم، يزيد في كرمه.

وعندما تخرج اليها ربة المنزل بالخبز أو بعض الأرز الأبيض والقمح تقول:

- الفاتحة للسيدة زينب، لا يغمك علي عيالك ولا ما لك، يا كريم.

*****

ومن النساء التي ألفتها القرية وتعاملت معها كثيراً، وكم إخترقت شوارد نيرانها جلاليب الملتفين حول «الكير» الذي تنفخ به النار، واضعة فوقها المناجل تمهيداً لشخذ أسنانها، وذلك ما يسميه أهل القرية «رجم المناجل»، وكانت إمرأة سمراء واسعة العينين يميل بياضهما الي الإحمرار، متسخة الثياب والبدن، لا يفارقها زوجها المريض أينما ذهبت، بعدما تولت عنه صحته لمشاق مهنته، وكان الزوج كثير النوم لونه أسمر ذو صفرة كريهة، ما إن يحلا بالقرية حتي يفترش جوالاً قديماً الي جوار أحد الجدران ويتمدد راقداً.

وكانت رغم قسوة المهنة لا تكف عن الضحك والمزاح، تأكل وسط الرجال وتشرب الشاي معهم، وتدخن المعسل وتخرج الدخان من منخاريها، ثم تعقب عن نفسها ضاحكة:

- رجل يا بنت يا تحية، فيضحك البعض مؤكداً ذلك، ويزيد الآخر:

- لا والله العظيم أنت بمئة رجل!

ولا يخلو كلامهم من محاولة إفهامها إن ما تقوم به من رعاية زوجها وبيتها بطولة يعجز عنها الرجال، فما كان منها إلا أن تعقب قائلة:

- الله لا يحرمني من أخوتكم وشهامتكم.

وحزنت القرية حزنا بالغاً حين جاء نبأ وفاة تحية ذات صباح، وضرب الجميع كفاً بكف وتعجبوا من تصاريف القدر، وتساءل البعض:

- سعدية التي كانت تجر ساقية تموت؟! وزوجها العليل حي، سبحان الله ، لك في ذلك حكم..!

- وزعق أحدهم: الفاتحة علي روحها يا جماعة، وعلي أرواح موتانا جميعاً.

*****

حديث النساء والقرية طويل ومتنوع وعادي فتلك حياة ناس القرية رغم عجائبه، حتي جاءت الست حربية، ابنة العمدة، وقلبت الموازين والرؤوس، خاصة عند الرجال كبار السن، والنساء العجائز، عندما تولت منصب العمدة خلفاً لوالدها رغم وجود إخوتها الرجال، فأصبحت الحديث الجديد لأهل القرية. إلا أن الشباب لم يقابل ذلك بدهشة أو حتي أهتمام مؤكدين أنه زمن مقلوب يجوز فيه كل شيء.

*****

قال الحاقدون علي جعيصة الأمريكاني،- كما أطلقوا عليه بعد ذلك-:

- غطس فى الترعة أم طاقة القدر والهنا وإنفتحت أمامك يا بغل؟!

وكانت الخبيرة قد أخذت جعيصة ليعمل في إستراحة الخبراء بالمدينة!!..

ومرت عدة أشهر كان ما فعله جعيصة هو كل أحاديث وحواديت القرية، بعضهم يزيد كما يحلو له وتجود به قريحته، والبعض يقول ما رآه ويتعجب لبجاحة الخبيرة، وأنه كان يجب عليها أن تموت خجلاً لا أن تفعل ما فعلته، فيرد عليه من يدعي العلم والثقافة:

- هذا الكلام شيء طبيعي في أمريكا يا بهائم.

- ويرد آخر وقد ملأه الغيظ: ومن الذي أخبرك بذلك؟! هل ذهبت أمك الي هناك، وجاءت لتقول لك؟!

وتزداد الحيرة وتنشب المعارك أحياناً وأحيان أخري تعلو الضحكات. وذات يوم فوجيء الجميع بجعيصة يجلس الي جوار الخبيرة في سيارتها الخاصة، وقد إحمر وجهه وزاد وزنه، وارتدي القميص والبنطال وكأنه مولود في البندر، وأثنى من توقعوا الشر من الخواجاية على ذكائهم، وهمسوا:

- الحمد لله.. فاتت علي خير. وعندما أخبره الأهالي بود مصطنع أنهم إفتقدوه، ابتسم فظهر بياض أسنانه التي كانت في لون الصفيح الصدء. وعندما سألوه ماذا يعمل عند الخواجاية وهل هناك وظائف أخري يمكنهم العمل بها؟! كان يضحك ولا يرد.

طار عقل زوجته ورقعت بالصوت عندما رأته علي هيئته الجديدة داخل الدار، فألقى عليها يمين الطلاق ووصفها بأنها إمرأة جاهلة لا تستاهل الخير الذي جاء ليأخذها إليها! ثم تركها وأولادها وذهب وإنقطعت أخباره والخبيرة الأمريكية، حتي عاد بعد حوالي عامين يقود سيارة أفضل بكثير من سيارة علي السفروتي ويدخن السيجار، وفي يده حقيبة مؤكداً أن معه تأشيرات هجرة لأمريكا لمن يرغب من شباب البلدة دون شروط، اللهم دفع مبلغ من المال مقابل اتعابه وتجهيزات الأوراق. وأصبح جعيصة الأمريكاني أمل كل شاب يريد المستقبل، يفعلوا ما يأمرهم به، بل ويسعدون أيما سعادة اذا تواضع وقبل دعوة أحدهم للغداء أو العشاء. ونسي الجميع لقب الغزية ولقبوه «جعيصة باشا»، فكان يضحك قائلاً:

- جعيصة باشا الأمريكاني، ويشير بيده ليرى الجميع الخاتم الذهبي الكبير.

وكان يضحك عالياً عندما يسأله أحدهم: اذا ما كانت أمريكا تطلب فلاحين أم لا، مؤكدين لبعضهم البعض بأنه اذا وضع «الموضوع» في دماغه

سيأتي لهم بعقود العمل في المرة القادمة.

*****

جعيصة الذي كان يدور خلف أمه شريفة الغزية ووالده ذكي ترنم الطبال في الأفراح والموالد، هي ترقص وتتمايع ونخطف طاقية هذا وتغمز بعينيها العميقتين الضيقتين لغيره، وتلقي بجسمها علي من تراه بخبرتها أهلاً للتبذير وإنفاق الأموال من أجلها. وكان والده ترنم طوع بنانها، تأمره فيطيع ولا يعص لها أمراً، حتي لو كان علي غير ما يرغب، وكان لها شهرة واسعة ربحت خلالها أموالاً كثيرة، بددها زوجهاالجديد الشرس مفتول العضلات «جعيصه الأسد»، وكان يعمل معها بلطجياً لحماية الفرقة من رذالات البعض فيشمر ساعديه ويرقص عضلاته ويفتح قميص صدره ويزعق كالمجنون ولا يهدأ الا بعد الفتك بمن يتحرش بصورة لا تسمح بها سيدة الفرقة «شريفة الغزية». وذلك بعد أن مات زوجها المغلوب علي أمره ذكي ترنم ذات ليلة دون مرض معلوم سقطت الطبلة من يده وسقط خلفها ميتاً .

ولفتنتها بجعيصة الأسد، أطلقت علي ولدها اسم جعيصة، وكان يشبهه في هيئته حتي ظن الناس بشريفة الظنون، وأقسم البعض أنه المستحيل نفسه أن يكون جعيصه الأبن، ولد ذكي ترنم ذلك الهزيل القصير. وماتت شريفة الغزية ورحلت معها أسرارها، إلا أن الإسم لم يرحل وظل الناس ينادون جعيصه باسم أمه حتي تعود ذلك، بل كان لا يجد غضاضة في أن يقسم حين يلزم الأمر قائلاً:

- لا أكون جعيصه ابن شريفة الغزية ان لم أفعل كذا وكذا.

*****

وكبر جعيصه بين أهالي القرية وتزوج إمرأة مات عنها زوجها تمتلك ثلاثة

أفدنة زراعية، ولكنه ما كان يطيق عمل الحقل، فقد تعود مذ كان طفلاً علي الراحة، يسرح خلف أمه في الموالد والأفراح، وسرقة ما يقع تحت يده حتى لو كانت أموال أمه، أو أي شيء آخر مثل البط والأوز والماعز والأغنام ثم يذهب الي الأسواق قبل طلوع الفجر، حتي لا يراه أحد من القرية فيبيعها وينفق ثمنها قبل أن يعود. وكبرت معه تلك العادة، كان الناس كثيراً ما يتسامحون معه وبخاصة أنه كان يختفي عن الأنظار حتي تهدأ النفوس وتزول حرارة السرقة ممن سرقت منهم. إلا أن له حكاية لا ينساها الأهالي، ففي أحد ليالي مآتم العمدة الكبير، وكان المأتم ثلاث ليال، كان الضيق المادي قد أحكم حبل مشنقته حول عنق جعيصة، وأمام المراقبة الشديدة التي فرضها الخفر عليه حتي لا يقوم بعمل ناقص بالقرية في مأتم كبيرها، وكان فيما مضي يعمد الي «مربط الحمير» الخاص بالمعزين، ويفك الحبال من أرجل إحداها ويركبها ويمضي سريعاً وسط ظلام الليل، فلا يفطن أحد إليه. بعد تفكير عميق، ضرب ضربته الجهنمية حين أشعل النار في سطح أحد البيوت القريبة من سرادق العزاء ثم إبتعد عنها، وعندما توهجت النيران وإرتفع صرخ النسوة فزع الرجال من سرادق العزاء وإتجهوا ناحيتها، ثم خلعوا ملابسهم- كعمل تلقائي في القرية- ووضعها فوق الأحذية بعيداً حتي يستطيعوا التحرك بحرية كبيرة في الإطفاء، وكان جعيصه قد جهز جوالاً كبيراً وضع فيه ما يمكن حمله من الملابس والأحذية والبلغ، بما فيها من نقود ثم فك قيد مهرة قوية وطار خارج القرية. في هذه المرة غاب جعيصة عن القرية عاماً كاملاً، وصارت الحكاية مضرباً لأمثال الضحك، وإنطفأت نار الغيظ إلا عند العمدة الابن الذي ظل يضربه في «غرفة التليفون» والناس حوله يضحكون من صراخه وحركاته البهلوانية أمام العمدة حتي يأخذه الضحك ويتركه، ولكن الرجل إستشاط غيظاً وطلب الكرباج السوداني

فأخذت الشفقة بقلوب المقربين من العمدة وتدخلوا لإنقاذ جعيصة من مصير قد يؤدي بحياته.

*****

ويالعجائب الزمان، أصبح جعيصة باشا هو الصديق الأول للسيدة حربية عمدة القرية، ابنة العمدة الذي كان يطلب الكرباج السوداني لجلده. بل إن الشائعات تؤكد أنه إستطاع أن يميل قلبها الحديدي حتي رق بين أنامله السحرية، وستصبح العمدة امرأته بعد وقت ليس بالبعيد.

*****

٢٦

فى حضرة شيخى المجنون

من راحة القيلولة، فزع حسين من نومه علي رنين الهاتف...

- قال من بالطرف الآخر: الشيخ موجود بالقرية إذا أردت رؤيته.
- عن أي شيخ تتحدث؟!
- هذا ما قاله لي الشيخ فؤاد، وطلب مني الاتصال بك وإخبارك.
- أهو الشيخ الأخضر أم الشيخ أصيل؟!
- لا أدري والله، قلت لك كل ما قاله الشيخ فؤاد.

*****

شق حسين طريقه إلي القرية، وكانت زياراته قد تكررت، وكأن وفاة جده كانت مفتاح المصالحة والعودة إلي حضن قريته التي يعشقها خاصة بعد تغير الظروف وتبدل الأحوال، وزوال من كانوا سبباً في هجرته.

كان الأمل يحدو حسين أن يكون الشيخ الموجود بالقرية هو الأخضر. وأخذه الهيام والشوق من جديد وهو يرتب الكلمات في موضوع واحد فقط هو حبه المجنون وعشقه وولهة ووجده الدائم وصبابته وجواه للمحبوبة المستحيلة «روضة». وكان الأخضر هو الإنسان الوحيد الذي يريد أن يفضي إليه بمكنون سره، وظل طوال الطريق يدعو الله أن يجد الأخضر هناك.

أما الشيخ أصيل فعلاقة أخرى مختلفة، لم يجن من خلفه سوى المشاكل والمعاناة لانبهاره بصراحته المجنونة وأفكاره الأكثر جنوناً التي يضيق بها حسين في بعض الأحيان، لكن الشيخ فؤاد كان يرجو دائماً أن يجلس حسين إلي الشيخ أصيل خاصة بعد أن اتسعت معارفه ومداركه، ورأي فيه نبوغاً

سيرحب به الشيخ أصيل بل سيفرح له.

*****

أخيراً وصل القرية، فصدمت عينيه خيام الأمريكان مرة أخرى وتمنى لو أنزل العلم الأمريكي من فوقها وحرقه وحرق تلك الخيام التي تذكره بالوباء القديم، لكنه ابتسم فجأة، حين قفزت إلي ذاكرته سيرة جعيصة ابن شريفة الغزية حرامي البط، وابتسم أكثر حين ترآت له حركات محيي الدين وهو يفكر في تكريم جعيصة.

وصل إلي القرية، لكنه لم يجد الأخضر، فكساه الحزن من جديد وفقد الأمل في لقاء الرجل، لكنه كان يرفض الخاطر الذي يوحي بموته رفضاً لا يجد ما يبرره سوى إنه لن يموت حتى يفرغ له ما في قلبه من لواعج وتباريح!

*****

مات معظم رجال الحضرة وحلقات الذكر، وهجر الشيخ عبد اللطيف القرية منذ عشرات السنين إلي القاهرة إلي جوار الحسين، وهناك مات ودفن، وما عاد الشيخ أصيل يزور القرية إلا لماماً قاصداً دار الشيخ فؤاد، فهو الوحيد القادر علي إستضافة الرجل فكرياً، وفي داره تكون الإقامة لعدة أيام بعدها يعود الرجل إلي بلدته البعيدة.

*****

كان الشيخ أصيل- غفر الغفار له- ما كنت أراه جنوناً منه، ويراه خلق كثير ، عجيب الأطوار، غريب الأحوال. وكأنه نبأ عظيم الناس فيه مختلفون..!!

منهم من يراه رجلاً فاسد المعتقد، يجوس خلال الكلمات العوجاء، ويطرب لشوارد أفكاره المجنونة. وربما غلي رأس أحدهم وانتفخت أوداجه

ونعته بأنه زنديق كافر، لا تطهره أمواه الدنيا وإن اغتسل بها..!! ومنهم من يراه شيخاً جليلاً، ولي العصر، وقطب الوقت، وأحد أوتاد الكون، وما ينكره الناكرون ما هو إلا شطحات صوفية، لا يرقي إليها فكر العوام والبسطاء.

ومن العجيب أنه كان يطرب لهذه الأوصاف، وتلك النعوت، ذات مرة ضحك ملء فيه قائلاً:

- كافر..!! ليتني كالليل كافر، أستر العباد والزهاد والعصاة والمراقين والعاشقين والمحبين والساهرين والذين تتجافي جنوبهم عن المضاجع. ويتمتم:

- لو يعلمون، الليل هو الأصل، والنهار الفرع، الليل آدم، والنهار حواء. يقول ربي: «والليل نسلخ منه النهار». الليل حبيب الرحمن، وأهل الليل هم أهل الحب.

ثم أغروقت عيناه بالدمعات، ونهض يصلي، وفي سجوده لصق جبينه علي الأرض وجعل يبكي مثل طفل انتزعوه من حضن أمه عنوة، وينهنه كامرأة ثكلي .

كان أصيل لا يرى فرقاً بين سيئة وحسنة، بين أبيض وأسود، بين طاعة ومعصية، بين جميل وقبيح، بين تبر وتراب، بين جنة ونار، عياب غير هياب، يقود من يتبعه ويثق به، إلي مهاوي الردي والمهالك، ثم يضحك قائلاً:

- الرضا مقام منيع، وقليل من عبادي الشكور.

فيحار الخلق ويتلجلجون في أمره من جديد، فيهجره بعض من تبعوه قائلين:

- «مجرم» لا طاقة لنا به.

ويتبعه البعض ممن كانوا ينكرون عليه، مبررين عودتهم إلي بلاط أفكاره بأن الرجل يمتلك مفاتيح الكنوز المغلقة. المدهش في أمر من ينكرون عليه أنهم يعشقون مجالسه ومجالسته، ويتلذذون بغريب كلامه وغرائبه،

ثم يلعنون أفكاره ويتبرءون منها بعد أن يتركوه.

*****

لا يجرؤ أحد علي استيضاح مستغلق كلماته إلا إذا تكلم هو وأظهر. فقد كان له رقة طفل رائع، وغلظة وحش كاسر، وكان ذلك هو السر وراء الإحجام عن سؤاله لخوف متقلبة. فتارة يربت علي كتف من يسأله، ويضمه بحنان دافق، وتارة يقذفه بأقذع الألفاظ. وكان دائماً يردد:

- «يا أيها الذين آمنوا لما تقولون مالا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون». كيف تفعلون والله هو الفاعل؟!.. كيف تفعلون؟! «والله خلقكم وما تعملون».. ماذا تفعلون» وهو الذي أضحك وأبكي، وهو الذي أمات وأحيا، يفعل العظيم والصغير، فهل ترك لكم ما تفعلون؟!.. الله يضحككم ويبكيكم مالكم لا تفقهون.. «أم علي قلوب أقفالها»؟! أفيقوا حتى لا تستحقوا العذاب بادعائكم أفعالكم.

ثم يشحب لون الشيخ ويتهجد صوته وهو يقول:

- «اللهم أني أعتذر إليك، عن كل مؤمن جاهل، وعن كل جاهل مؤمن، يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة».

*****

قالوا فيما قالوا عن غرائب الشيخ، إنه لما ماتت زوجته الأولى في ولادتها الأولى قبل أن يأخذه هاتف الطريق، حمل الطفل الرضيع وذهب إلي المسجد المجاور لبيته، بعد كلام كثير مع الله، خلاصته أنه لا يستطيع تحمل مسئولية طفل رضيع ولا يعرف!! وإنه سبحانه وتعالي هو الذي خلق الطفل ويجب عليه رعايته، ثم ترك الطفل في المسجد وذهب. بعدها أخذه آخذ ، وهام علي وجهه وهجر البلدة.

وقيل فيما قبل، عن هذه الواقعة أنه سمع هاتف يناديه:

- اتبعني يا أصيل، اتبعني يا أصيل...

ومشي أصيل خلف النداء الذي أسلمه للصحراء البعيدة ثم انقطع عنه، وكانت الصحراء مستقرة ومأواه سنوات طوال، بعضهم قال عشر سنين وبعضهم قال أكثر. هو نفسه لا يعرف كم من السنين قضي خارج عقله.

بعد تلك السنوات جاء أصيل متجهم الوجه لا يكلم أحداً ولا يأبه بأحد، غارق فيما هو فيه، شارداً عن كل شيء إلا عن «شخشيخة» في يده يطوحها في الهواء فتحدث صوتاً فينصت إليها جيداً ثم يهز رأسه وكأنها تستودعه سراً.

وظل علي هذه الحال، متسخ الثياب والبدن، حتى مشي الدود في ظهره، وأحدث علامات وسكك وطرق، مازالت شاهد عيان عليه. وأخيراً نطق بما تسمع الآن منه. وقال الرافضون لمنطق الشيخ:

- هذه الحكايات الغريبة هي أساطير يحكيها اتباعه لغرض في نفوسهم، وهو كعادته لا يكذب أحداً فيما يقول ويدعي، لكن الشيء الغريب أن بظهره علامات مثل التي يقولون عنها!!

ذهب حسين إلي دار الشيخ فؤاد لرؤية الشيخ أصيل، ترامت إلى مسامعه، كلمات حبلي بمعان جليلة. قال في نفسه:

- يبدو أنها جلسة مختلفة لا ناس مختلفين، وسريعاً جلس في اقرب مكان يمكنه من سماع الشيخ جيداً، وإن كان صوته الجهوري يسمع الجميع. قال فيما قال:

- اقرأ في كل الأشياء، سر الواجد «كن». اقرأ في كل الأشياء نفحات الله وأقداره. اقرأ كل قلوب أحبائك صفحة نهر الدنيا، اقرأ موج البحر وغضب الريح، اقرأ أوراق الأشجار وغناء الأطيار.. اقرأ وجه الصحراء ووجه سماء الدنيا وانفذ منها إن كان لك سلطان التمكين، لتقرأ وجه سماوات وسماوات. اقرأ نفسك تعلم سر الأشياء أو بالأحرى يعلمك الباري فتكون العارف بالله، وليهنأ من عرَّفه ربي.

ثم علا صوت الشيخ وهو يقول:

- يا الله، يا الله، يا الله وحدك يا مولاي غايتي، وحدك يا مولاي صحوتي وحدك يا مولاي سكرتي، وحدك يا مولاي أوبتي وحدك وليس غيرك خمرتي.

ثم نهض يصلي ركعتين، بكي في سجوده كثيراً، وجعل يستنجد كمن أشرف علي الغرق، بمن ينقذه من رق الدنيا. وبعد الصلاة مد أحد المريدين الجدد للشيخ يده قائلاً:

- أعطني العهد يا شيخي الجليل.

علي غير عادة شيوخ الطريق في ذلك الموقف، غضب وأحمر وجهه الأبيض المستدير المشرب بحمرة لامعة غريبة تظهر في عينيه في أحايين كثيرة، وقال:

- أغرب عن وجهي، من أنا حتى أعطيك عهداً؟! عهدك يا هذا مع من خلقك، وليس مع مقهور مثلك. وهدأ قليلاً ثم قال:

- ثم إذا ساورتني الخيانة واحتواني الكبرياء برداء إبليس وأعطيتك العهد الذي تزعم، من سيعطني عهداً وقد تبدل حالي واستخففت بكم وأطعتموني؟!

- قال الرجل في شبه اعتذار: ولكن يا مولانا، عموم المشايخ يعطون العهد علي الطاعة لله!!

- فأزداد غضبه وقال: أذهب إليهم وفارقني، ثم عمد إلي زجاجة تشبه الخمر بجواره وجعل يعب منها وكأنه عطشان صديان منذ سنوات طوال.

فاعتري الرجل الذهول، وغزاه الاعتراض واحتوته الدهشة وجحظت عيناه وفغر فاه، ولم يعد قادراً علي النطق بكلمة، وتسمر في مكانه واقفاً. فزعق الشيخ أصيل بقوة اهتز لها زجاج النوافذ:

- لا يقع في ملك الله، مالا يرضاه الله، ثم أغمض عينيه وصمت وطال صمته.

فهرول الرجل فزعاً وكأن نار تلاحقه، وهو يقول مستنكراً:

- ما هذا؟! ما هذا؟! إنك رجل ملعون، إنك رجل ملعون، صدق قول الشيخ فيك يا ملعون.

ولكن الشيخ أصيل، مازال مغمض العينين، ساكناً وكأنه لم يسمع شيئاً. وأحمر وجه أحد الحضور، واشتدت سورة غضبة وأوقف الرجل عن الانصراف زاعقاً فيه:

- قل لنا من ذاك الشيخ القائل؟ وماذا قال؟! ولماذا؟

وقف الرجل مرتعداً، وقال في شبه جنون:

- قال أحد كبار المشايخ ،ولن أذكر اسمه، بأن شيخكم هذا «نجس» وإن الشيطان يسكنه، وحذر من معسول حديثه، وقال: لا تغرنكم حركاته التي يتشبه فيها بالعباد والزهاد، ولا تنظروا إلي أفعاله الخبيثة حتى لا يجد الشيطان لكم بها مدخلاً إلي قلوبكم، فتفتنوا وتذهب ريحكم.

علق أحد الحضور متهكماً:

- وتعبدوا العجل من بعد موسي!! فضحك الجميع، ثم توجهت العيون ترقب ماذا سيقول الشيخ أصيل، فإذا به- ومازال مغمض العينين- يبتسم متمتماً:

- نعوذ بالحق من صناديد القدر، أذهب لشيخك وقل له: جافيت الحقيقة وخرقت الشريعة وكنزت الذهب والفضة، فأفهم إذا كنت تفهم.

اتسعت نحوه العيون دهشة، وكأنها تستوضح مالم تسطع عليه صبراً، فإذا بالشيخ تغزوه حالة من النشوى والطرب، وهب واقفاً وجعل يترنم:

لها ورد قلبي، لها خمر كأسي

لها كرمتي والفتون

وليعذل العاذلون.

شراب المحب الجنون

ثم اشتدت حالة الطرب فجعل يرقص وسريعاً تحلق الحاضرون حوله، يتمايلون وينشدون:

شراب المحب الجنون
شراب المحب الجنون
فأشار إلي موضع قلبه وجعل يغني:
السقيا هاهنا، القلب هاهنا
الروح هاهنا، الحب هاهنا
الوجد هاهنا، الفيض هاهنا
الشكر هاهنا، الموت هاهنا
النور هاهنا، النار هاهنا
الله هاهنا، الله هاهنا

ثم أخذته سورة النشوة فانخرط في البكاء وهو يصرخ صراخاً شديداً، وتبعه خلق كثير، بعضهم يبكي، والبعض ينوح رافعاً يديه إلي السماء في حركات مرتعشة، وبعضهم يقفز إلي أعلى ثم يهبط يشخر وينخر ويمزق ثيابه، بينما الأصوات المجتمعة تعلوا إلي عنان السماء في هيام مجنون، وهي تردد لفظ الجلالة:

- الله، الله، الله، الله. وشعر حسين برعب ارتجفت له أوصاله فتحسس حذائه وانصرف سريعاً.

*****

في الصباح ضحك الشيخ فؤاد كثيراً لهذا التصرف ورجاه أن يأتي الليلة القادمة. وشجعته الحالة الهادئة التي عليها الشيخ في تلك الليلة، فرفع يده نحوه يستأذنه في سؤال يعتمل في عقله فابتسم موافقاً وهو يقول:

- لو صبر موسي لعلمنا من الخضر ألف مسألة.

عاد حسين إدراجه وظن أن تلك إشارة من الشيخ لالتزام الصمت،

فصمت. فقال والابتسامة لم تفارق شفتيه:

- لما لا تتكلم..؟!

- قال حسين: في درس الفلسفة قيل لنا إن نظرية «عالم المثل» وصاحبها فيلسوف يسمى «أرسطو» ويلقب بالمعلم الأول، هي الحقيقة التي يجب الإيمان بها، فحركة العالم تؤكدها، وهي أن الله وذلك عين التنزيه لجلاله- خلق العالم ثم تركه يتفاعل، وانشغل عنه بذاته، وما الجنة والنار إلا رموز للخير والشر، وإن كل شيء بالدنيا له مثال آخر في السماء ، ولكنه الكمال ذاته، وما الدنيا إلا صورة مشوشة ومشوهة لما في الآخرة. وقال لنا الأستاذ فيما قال: الفيلسوف أفضل من النبي، فالنبي يعتمد علي الخيال، فالجنة عنده شجر من ذهب وفضة وياقوتة حمراء، وهكذا، بينما الفيلسوف يعتمد علي العقل والتجربة والبرهان، والعقل أفضل من الخيال وأوثق.

نظر الشيخ نظرة ذات معني، لاحظ فيها احمرار عينيه وقال:

- اجتهد صاحبك في زمانه، وتخلفت أنت عن زمانك، أما لقب المعلم الأول فذلك عيب كبير، فالمعلم الأول هو الذي علم الإنسان ما لم يعلم. ثم صمت لحظة وقال:

- يهدي به- أي بذاته هو- كثيراً ويضل به كثيراً، وما بين الهدى والضلال يضع الرحمن قدمه في النار فتقول: قط، قط يعني تخمد جذوتها.

- أعلن يا ولدي حبك لكل الخلائق، طالحهم وصالحهم، فأجرهم وبرهم، ولا تغضب من أهل المعاصي أو التي يقول عنها الناس معاص. ألا تري أن الرحمن يرسل شمسه وضوءه وعليل هواءه وغيثه وإمطاره وعواصفه وزلازله وبراكينه علي جميع خلقه دون تفرقة؟!

دع عنك ما ينشغل به صغار العقول، واستحلب متعة ذكر خالقك في فمك وجميع جوارحك، عسى أن يجعل الله لك نوراً يغنيك وظلاً يقيك، فلو أراد ربك لجعل الناس أمة واحدة، فلا تبتئس ولا تأسي.

- همس أحد الحاضرين: لو سجد هذا الملعون لخلصت البشرية من الشقاء، وبقيت في منزلها الهادئ الجميل الرائع الذي حرمته بسببه.

- سخر الشيخ قائلاً: ما زلت جاهلاً وقحاً، وغبياً، المنزل كان منزله وأبوك منجدل في طينته أمام الباب. ثم تغافل والدك القديم ونشط هو اجتهد، فأخذ جل إخوتك من أبيك.

- ثم أردف متحسراً: «وأكثرهم فاسقون»!! ثم قال الشيخ وكأنه يحدث نفسه:

- وفي أحوال عزازيل- كما قال أخونا الحلاج- أقاويل، أحدها أنه كان في السماء داعياً وفي الأرض داعياً. في السماء داعي الملائكة يريهم المحاسن، وفي الأرض داعي الإنس يريهم القبائح» ولأن الأشياء باضدادها تعرف، فمن لا يعرف القبيح كيف سيعرف الحسن؟!

ثم تنهد قائلاً:

- والحقيقة لا قبيح ولا حسن. قال النبي موسي: إن هي إلا فتنتك..!! ثم صمت الشيخ طويلاً.

- بدد الصمت صوت غليظ يقول: معنى ذلك إن ما فعله ويفعله الولد جعيصة الأمريكاني، شيء عادي ولا غبار عليه..!!

لكزته أكثر من يد وطالبته الألسنة أن يكف عن هذا العبث، فليس هذا المقام الذي يصلح ، لمقال هذا العابث الماجن التافه..!!

ارتفعت حدة صاحب الصوت الغليظ طالباً من الشيخ أن يتكلم هو، وينقذه من زبانية جهنم هؤلاء . فضحك الشيخ وقال:

- وماذا فعل صاحبك جعيصة؟!

فزع الرجل لكلمة «صاحبك» وقال:

- لا يا شيخ ليس صاحبي، أعوذ بالله..!

ضحك الشيخ أكثر وقال:

- ماذا فعل صاحبنا جعيصة؟!

تطوع أحد الحضور وقص عليه ما حدث، فضحك الشيخ طويلاً وقال:

- من ناحية إن ما فعله جعيصة هذا شيء عادي؟! فعلاً هو شيء عادي، وفي كل لحظة يرتكب البشر أمثال ذلك بل وأكثر.

أما غير العادي أن ذلك حدث هنا في بلدكم مع امرأة من بلاد غريبة لها سطوة علينا.، ولا نستطيع مؤاخذتها علي ما فعلت، لأن ما نراه عيباً عندنا شيء عادي هناك، وما نراه هنا شيء عادي يرونه عيباً عندهم!! أما إذا تكلمنا عن الشريعة التي ندين بها حتى لا يتشدق المتشدقون ويقولون: قال الشيخ أصيل، فيجب رجم الزاني حتى الموت إذا كان متزوجاً، وجلده مائة جلدة إذا كان عزباً، ولكن من يقيم الحد؟! ولى الأمر فقط، يعني الحاكم وليس الرعية وإلا كانت فوضي لا آخر لها. فقال صاحب الصوت الغليظ:

- ومن سيبلغ الحاكم بذلك؟!

- قال قائل: أذهب إلي مركز الشرطة وقدم بلاغاً.

- ضحك آخر قائلاً: ساعتها سيرجموك أنت!!

- وقال ثالث: إنها امرأة أمريكية، هل تفهم؟! يعني يهدموا قريتنا علي رؤوس أصحابها.

- زعق الشيخ أصيل: إن هي إلا فتنتك!

فكف الجميع عن الكلام، وقال قائل:

- دعونا من هذا الكلام الفارغ، واتركوا الكون لخالقه يدبره كيف يشاء.

ضحك رجل خفيف الظل قائلاً:

- امرأتي طالق بالثلاثة إن لم تكن الغيرة والحسد أكلت قلوبكم من الخير الطافح الذي حط فجأة علي رأس الولد جعيصة حرامي البط والماعز!! ثم تتمحكون في الدين والشريعة؟! قرية تستأهل الحرق بالنار..!

تري لو وزع جعيصة الثروة التي هبطت عليه بينكم، هل كنتم ستطالبون بعقابه؟! لا أظن، وإنما كنتم ستحملونه فوق الأعناق وتهتفون باسمه.

لم يعلق الشيخ أصيل ولم يفعل شيئاً سوى أن تمدد وأغمض عينيه حتى ظن الجميع إن النوم قد أخذه ، فكفوا عن الكلام وانصرفوا إلي بيوتهم.

*****

٢٧

أعاجيب قمر الزمان

ذهب حسين إلى مجلس الشيخ أصيل فوجده ومن معه، في صمت غريب، عيناه حمراوان، كؤوس الخمر، الخلان، أثملهم الشراب. ما كاد يجلس، حتي هب واقفاً- عند أول كأس يعُرض عليه- وفي رعونة، لم يعهدها في نفسه، ضحك ساخراً:

- «الشيطان يسكن بيتنا»!

جعل الصمت المطبق علي المكان من كلماته صوتاً موحشاً، وحشياً. وانتفض الشيخ أصيل كأنما لدغته حية. أشار بيده نحوه وقال:

- «الشيطان يصنع الحياة، يا جاهل الفلسفة».

ثم عاد الصمت يفرش عباءته علي المكان، ولكن كلمة الرجل جعلت تدور في رأسه وكأنها ريح عاصف.

- كيف يصنع الشيطان الحياة؟! ما هذا الكلام الخرف؟! وهل لسكران ثمل أن يقول شيئاً مفهوماً؟! ولماذا يدعوه الناس بالشيخ؟! هو رجل مجنون لا ريب يتبعه مجانين مثله.

مر بعض الوقت وهو علي هذا الحال، تسمر في مكانه غير قادر علي الحركة، تتقاذفه الأسئلة ولامجيب! وفجأة أخذت الشيخ أصيل رعدة ، وهب واقفاً، صفق بيديه هاتفاً:

- الله.. الله.. الله.. وتحلق الحضور حوله يرددون:

- الله.. الله.. الله.

رفع الشيخ يديه الي السماء، ترتعش بصورة ملحوظة، جسده يرتعد،

زعق قائلاً:

- يا شمس قلوب أحبائك؟ إعتقنا من رق خطايانا، ثم صمت لحظة، وقال:

- أفيقوا يا سكاري الحب، فالبول زحف علي الرأس وتهدمت المعابد. ثم نادي كمن يستغيث: الله.. الله.. الله..

شعر حسين بشيء من الارتباك والارتياب، وخشي سوء المنقلب، وأنصرف في هدوء شديد، والحقيقة أن أحداً لم يعره أدنى إهتمام، أو علي الأحرى لم يشعر أحد بوجوده بينهم، رغم ما حدث، أو هكذا تعمدوا إهانته، لا يدري! ندم أشد الندم لذهابه الي مجلسه وعقد العزم على عدم العودة مرة أخري، وقال:

- يكفيني من أصاحبهم من فلاسفة الدنيا بكل نظرياتهم وتناقضاتهم ورفضهم وحيرتي الدائمة معهم دون الوصول الي مستقر، أو تخل عن الدهشة المتراكمة. أما خمر الشيخ أصيل، لا يقدر عليها إلا خاصته فقط، وكما يقول لهم الشيخ:

- اذا خفت طينية الجسم، أتاح للروح مجالاً أكبر، وإشراقات روحية لا حدود لها، فمن شُغل بكثرة الطعام، وصنوفه والوانه ومذاقاته، لا وقت عنده للتصوف والزهد. فكثرة الطعام تورث النوم الطويل، الصوفي الحق قليل النوم، نحيل الجسم، رطب اللسان بذكر الخالق. وتلك أول بدايات الطريق، فاذا طلب الصوفي الزاهد الطعام قبل سبعة أيام، فقد خرج من طريقتنا، وليذهب إذا شاء الي طريق السوق وعامة الخلق، فلله رجال. وقد كان الصحابة رضون الله عليهم، يخرجون الي الغزوات وطعام الرجل منهم تمرة واحدة. وأوراق الشجر حتي تتقرح أشداقهم. وكان رسول الله ـ خير البشر ـ يربط علي بطنه من شدة الجوع، وفي ذلك إبتلاء كبير.

*****

أعلن حسين إستنكاره حين حدثه الشيخ فؤاد في محاولة منه لإصلاح ما أفسده خمر الشيخ أصيل، وقال دهشاً:

- خمر في القرية؟! خمر حرمها الله في جلسه يذكرون فيها الله؟! شيء عجيب أليس كذلك؟!

- نعم عجيب، لو كانت خمراً مما حرمها الله.. و...

- قاطعه حسين وهل هناك خمر حرمها الله، وخمر لم يحرمها؟!

- ضحك الشيخ فؤاد قائلاً: ما رأيته يا سيدي يشبه الخمر في لونها وشكلها ولكنه ليس بخمر علي الإطلاق، ما رأيته توليفة من الأعشاب يصنعها الشيخ أصيل بنفسه، الهدف منها ليس السكر ولكنه مشروب يزيل الشحوم في الجسم، مشروب ذا طعم مر، لا لذة فيه، فقط يبعث علي الإنتباه .

فالشيخ يري أن طريق الصوفية كله رياضة وجهاد للنفس، ولا يصح الطريق لرجل بدين سمين تظهر علي جسمه النعمة ويتمتع بشهية مفتوحة؟! والمؤمن الحق يكفيه بعض لقيمات يقم بهن صلبه، كما أرشدنا رسول ـ الله صلي الله عليه وسلم ـ ما رأيت يا سيدي ليس خمراً وإنما شراباً لا غلاق شهية البدن، وحرق دهونة .

لقد كان، للرسول الكريم اذا أراد العيش في رغد كالملوك. ولكنه عرف فضل الجوع والسهر فكان يقوم الليل حتي تتورم قدماه، ولما حدثته عائشة قائلة: لقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال صلي الله عليه وسلم: أفلا أكون عبداً شكوراً.

- ربما الاسم فقط ،هو الذي أحدث ما حدث.

- ربما، ولكن الشيخ دائماً ما يقول: من شرب خمرتي، أصبح في معيتي! فالخمر هنا يا سيد حسين ما هي إلا رمزاً لطريق الشيخ أصيل وأسلوب حياته. فلا تكاد تراه يأكل واذا أكل فمثل طفل صغير.

- ظلمت الرجل إذن بغير قصد، فليسامحني الله، ولكن هناك كلمات

غريبة غير مفهومة، وحركات أكثر غرابة يقف عندها العقل.

- دعك من هذا كله وأتركه لوقته، فلكل وقت مقام، ولكل مقام تجليات، ولكل تجليات هواتفها ودواعيها، ولكل هواتف ودواعي، كلمات وحروف وإشارات، فأسمع بقلبك لا بأذنيك تضيع الدهشة وتحل السكينة.

*****

في المساء، دون مقدمات وجد قدماه كأنها أدمنت الطريق إلى الشيخ أصيل... العقل يرفض تلك المغامرات الغريبة ويقول: دعك منهم، جماعة من المشعوذين والدجالين لا فكر ولا عقيدة. واذا بالعقل أيضاً يدحض أفكاره الأولي قائلاً: علي العكس رجل صاحب فكر مميز، فكر فاسد ربما، منحرف ربما، مضطرب ليكن، ولكنه مختلف، رجل يحرك المياه الراكدة، يثير الدهشة بل يخلقها، وتلك هي الفلسفة.

أنا إذن تجاه فيلسوف من دم ولحم خرج من متحف الأوراق والكتب إلى حياة البشر... إنها فرصة عظيمة نادرة الحدوث،عليَّ إغتنامها مهما كانت وعورة الطريق.

- ولكن الرجل الآن خصمي، أكيد خصمي، فلماذا الغفلة عن ذلك؟! فمن إستهان بخصمه قتله غروره. هكذا جعل حسين يحاور نفسه:

- أية خصومة تتحدث عنها؟! الرجل في سلام مع العالم أجمع.، برَّه وفاجره، خيّره وشريره. ماذا أفعل إذن؟! ماذا قلت حتي يثور تلك الثورة الرعناء؟! وما كان علي أن أقوله في موقف مثل هذا؟! وهل غضب الشيخ من أجل الشيطان؟! الواقع أنه رجل غريب لا تدري ما يغضبه وما يرضيه!! ففي الوقت الذي تتوهم منه الرضا تجده غاضباً متوعداً بسوء العذاب، وفي الوقت الذي تتأكد أنه غاضب لا محالة تجده عطوفاً رحيماً، يغفر ويسامح بل ويضحك ملء فيه. أذكر جيداً ما سمعته منه في الليلة الأولي: أستر أخاك علي معصيته، فمن ستر صاحب البلاء فاز بالحب الأكبر. وأعلموا يا أحباب

أن الأقدار لا محالة واقعة، فإذا وقعت الواقعة فاستروا أنفسكم وأصحاب البلاء فيكم. أترى لو كان قدرك أن تركبك تلك المعصية هل كنت تريد الفضيحة بين الخلائق؟! فأستر أخاك، وأشكر ربك أن عافاك.

- ولكن ماذا سيقول لي الشيخ؟! ما رأيته يطرد أحداً من مجلسه قط، يغضب منه الناس كثيراً، يبتعدون عنه، ثم يذهبون إليه فإذا به هاشاً، باشاً باسم الثغر والقلب وكأن شيئاً لم يكن، واذا بالود القديم يعود، يقطعه من يريد، ويذهب من يذهب، ثم يجيء مرة أخرى، فيتصل الود.

*****

ذهب حسين ، وقف بالباب يعلوه خجل، لا يجد ما يقوله. قال الرجل بحنان بالغ: إنزع من حقل حيائك، ورد الخجل الأحمر، وتقدم.

جلس بعيداً عن الشيخ حياءً منه، وكأنه يقدم إليه إعتذاره، وكان الشيخ فؤاد قد تعهد أن يعمل علي صفاء زوابعهما، بل أقسم أن الرجل يطلبه بالإسم فهو يري فيه شيئاً مختلفاً.

- قال الشيخ: لكل سؤال جواب يا سيدنا الأستاذ المتفلسف، وأسمعني ولا تعتذر ولا تتحدث، ولا تهمس لنفسك ولا تتبرم، ولا تشغل عقلك ولا قلبك بغير ما تسمع، أو حتي بما تسمع، إسمع فقط وما يرضيك يكفيك، وما يكفيك يرضيك، فالعقل لا عقال له، والقلب متقلب لا سكن له.

جلس حسين كتلميذ صغير، في حضرة أستاذ كبير. وزعق الرجل غاضباً:

- لا تتدعي الأدب، إجلس كما أنت، أضمك الي صدري، وأربت فوق نواصيك ومناحيك.

إرتبك حسين أشد ما يكون الإرتباك، ثم همس في نفسه:

- ما الذي جاء بي في تلك الليلة الليلاء؟!

ابتسم الرجل غير عابيء وقال:

- أسمع ياولدي.. حين بغي الإنسان على أخيه الإنسان إخترع لحياته

نظاماً يحاول به أن تستقيم حياته ويحافظ علي حقوقه ويأخذ علي يد الخارجين علي هذا النظام. فهناك مثلاً وزارات للعدل ومحاكم محلية ودولية يعمل بها إناس كثيرون مِن الساعي البسيط الي قاضي القضاه، ويتبع ذلك جيوش من المحامين ومساعديهم وجامعات لتدريس القانون، ومطابع للكتب العديدة، ثم يتبع ذلك وزارات للداخلية بها سجون ومعتقلات وضباط وجنود ومخبرين ومرشدين، وأجهزة لأمن الدول، وخبراء في تلك الشئون العديدة.

أليس وراء كل هذه الحركة في الحياة، وكل هذه الوسائل لأرزاق البشر، ظلم الإنسان لأخيه الإنسان؟! والظلم كثير صوره وألوانه وأشكاله، هل صنعه الرحمن أم صنعه الشيطان؟! من صنع التمرد والطمع والقتل والنهب والسرقة والأفعال التي نسميها شريرة؟! الشيطان أم الرحمن؟! قس علي ذلك- ياولدي- مجالات عديدة منها وزارات الدفاع والحربية بمصانعها وترسانات الأسلحة الفتاكة والدمار، من وراء هذا الصراع المجنون الذي يعمل به ملايين البشر ويحصدون أرزاقهم من تلك الأعاجيب، أليس هو الشيطان رمز العصيان؟!

ثم تنهد الشيخ وجذب شهيقاً طويلاً أتبعه بزفير قوي وهز رأسه قائلاً:

- هذا ظاهر الأشياء، أما باطنها فعجيب!

دهش حسين لتفسير الرجل، وأبتسم له بأعجاب شديد، وهمّ يقبّلُ رأسه معتذراً عن سوء فهمه، فمنعه وهو يضحك قائلاً:

- عجباً، تبول فيها ثم تأتي لتقبيلها؟! عليك أولاً بتطهيرها بالماء كما فعل سيد الخلق مع من بال، بقبلة المسجد.

- سأله مبتسماً فرحاً: وكيف ذلك يا شيخي الغريب؟!

- رد ضاحكاً: قل يا شيخي المجنون.. أو قل يا شيخي الكافر. ولم يترك مجال للرد وأكمل قائلاً:

- أن تتأدب في مجلسي ولا تتردد في شرب خمرتي.

- إبتسم حسين قائلاً: ولماذا لا تسجل خواطرك ومشاهداتك ورياضاتك في كتاب مثلما يفعل أكثر أهل الطريق؟ ثم أكمل مبتسماً: يا شيخي المجنون؟!

- أغمض عينيه وأسند رأسه بيده وقال: أحبائي، كتابي وحروفي وكلماتي وسطوري الي الخلق ورب الخلق. ثم تمتم قائلاً: الحب شجرة طيبة جذورها في الأرض وفروعها في السماء، وما بين الخلق والحق يختلف المحبون.، وتتنوع طرائقهم، والطريق واحد.

*****

يبدو أن غرائب الشيخ المجنون لا آخر لها، فهو في كل يوم يأتي بغريب. ولكن ما حدث الليلة فاق كل غريب! فقد أعاد حسين إلى سنوات طويلة إنفلتت من عمره إلى حلمه الغريب الذي إنزوي إلى ركنه البعيد في الذاكرة. إمرأة رائعة الحسن تجلس الي جوار الشيخ، وقف حسين في مكانه تسمرت قدماه، تصبب عرقاً، هتف في داخله وقد حجظت عيناه:

- إنها هي، هي سيدة حلمى القديم. وتمتم: أين أنت يا أخضر لترى بعينيك ما رأيته في حلمي القديم؟!

تعجب الجالسون لحالته.. وبالكاد تمالك نفسه، يحاول السيطرة علي قلبه الذي يريد أن يقفز من صدره وعقله الذي يريد أن يخرج من عقاله، ومال بنظره الي الأحذية المتراصة في غير نظام على عتبة الغرفة، يحاول عبثاً إعادة نظامها من جديد للهروب مما هو فيه، فما عاد قادراً علي الحركة، ولو أستطاع لولي من تلك الغرفة فراراً ومن الدار كلها. بل من القرية، من الدنيا اذا أستطاع، فالمفاجأة كانت أقوي من الأحتمال.

التقت عيناه بعيني المرأة المدهشة وكأن لحظة اللقيا سهماً نارياً رُشق في نافوخه، لم يقو علي البقاء فاستجمع قواه وإنصرف دون إجابة لمن سألوه:

- ما بك يا أستاذ؟! ماذا أصابك؟! الي أين؟!

*****

همست المرأة في أذن الشيخ أصيل:

- من هذا الرجل؟!

- نظر إليها الشيخ دهشاً: لم تسألي عن هويته رجل قبل ذلك؟!

- لا تؤآخذني، قلبي يحدثني أنني أعرفه.

- هناك من الخلق من يشعر الإنسان نحوهم بالألفة، دون أن يعرفهم أو ربما لم يلتقيهم من قبل، ربما كان للروح شأن في ذلك، وليس بالضرورة أن يكونوا أهل خير، بل ربما كانوا سبباً في شرور كثيرة، ولكنها الأقدار التي لا مهرب منها.

- ربتت علي كتف الشيخ وقالت: لا نؤاخذني، وأغفر جهل قلبي.

- فإبتسم الشيخ قائلاً: لا عليك.

إنزعج الشيخ في نفسه أيّما إنزعاج، وتساءل:

- أيكون هو؟!.. ربما! هل حان الوقت؟! ربما..!

وجعلت المرأة تتساءل في نفسها:

- من هذا الرجل؟! لكأنه عاشق قديم، قتله العشق مرات ومرات، عيناه حبلي، بأشواق وأسئلة ونيران محرقة ملأها شوق لرؤيته مرة أخري .

*****

ما إن خرج حسين من المجلس حتي جعل يسرع في خطواته، يرجو أن يهرول هرباً، أخذته قدماه إلى أحدي السكك الترابية، وسط الحقول في جوف الليل المظلم . إطمئن إلى أن السكة تخلو من الخلائق، اللهم إلا كائنات الحقول الليلية، جلس ثم تمدد ناظراً الي السماء وكأنه يطلب القوة والعافية. وهمس في نفسه:

- الواقع في بعض الأحيان أغرب وأعجب بكثير من الخيال! من كان يدري؟! ومن كان يقول؟! أن أري إمرأة في حلم منذ سنوات طوال، والآن أراها شحماً ولحماً، فهل هذا معقول؟! وماذا أفعل؟! أذهب اليها أم أغادر البلدة هرباً وكفي ما رأيته في سابق أيامي؟! وهل سأستطيع ذلك اذا أردت؟! وماذا سأقول لها اذا التقيتها ثانية؟! وأي حديث سيكون بيننا؟! وهل سيسمح هذا الطاغية الشيخ أصيل، أن يخلي بيني وبينها لبعض الوقت؟!

ثم نهض وكأنما يريد الفرار، والهرب هاتفاً: اللهم رحمتك!.. ثم قال وكأنه قراراً قد أصدره: سأذهب الآن اليها، سأروي لها كيف رأيتها فى حلمى وليكن ما يكون. ولكن ماذا سيقول الناس عني؟! ماذا سيقول الشيخ أصيل؟! ماذا ستقول هي؟!.. ثم همس لنفسه محذراً:

- أفق يا حسين لا تجعل الأغبياء يهزأون بك؟ ويتخذون سيرتك علكة يمضغونها في مجالسهم من أجل إمرأة حتي لو كانت، ما كانت! ثم ماذا تريد بعد من النساء؟! لقد عرفتهن جميعاً؟!..

- ولكن هذه شيء مختلف، نعم شيء مختلف!

ضرب حسين علي جبهته، قائلاً في مرارة شديدة:

- ليتني ما عدت الي تلك القرية أبداً... ثم ضحك فجأة، هاتفاً في نفسه:

- غريب قدر الإنسان، فما نحن إلا مجموعة من الصور والآراء المتباينة لو كشف عنها الحجاب لكانت مسخاً هزلياً عجيباً. فمن أنا في نظر عم عبده؟ في نظر كل إمرأة عرفتها أو تزوجتها؟! من أنا في نظر أبي وأمي وجدتي؟! من أنا في نظر أصدقائي وزملاء العمل؟! من أنا في نظر المحبين لي؟! ومن أنا في نظر الكارهين؟! ومن أنا في نظر من أصلي معهم وأركع وأسجد وأحضر حلقات الذكر؟! ومن أنا في نظر من أدخن معهم الحشيش ومن تجرعت معهم كؤوس الخمر؟! ومن أنا في نظر الشيخ أصيل والمريدين وتلك المرأة؟!

آه لو قام الإنسان بجمع وإحصاء آراء من يعرفونه لوجد نفسه: الذكي- الغبي، الناجح- الفاشل، المتسلق- النزيه، المنافق- المؤمن، البخيل- الكريم، الطيب- الشرير، العاقل- المتهور، القوي- الضعيف، ومرايا عديدة مختلفة بعدد من يعرفونا ستكّون مسخاً هزلياً عجيباً، اذا تجمعت في مرآة واحدة. ومن رحمة ربى، إن ذلك لا يحدث أبداً وأنه يسترنا وإلا صارت الدنيا مشفي كبير للأمراض العقلية والنفسية.

وضحك ساخراً:

- بل أنها كذلك ونحن لا ندري.! فهل يعرف المجنون أنه مجنون؟! كلا فلو عرف ما كان مجنوناً، إن صفحات التاريخ تحمل الغرائب، ولكننا لا نقف حيالها كثيراً. قادة وملوك «عظام» إشتهروا بالقوة والطغيان ، وكان ذكر أسمائهم كفيل ببث الرعب بين الناس وبإشارة منهم تكون المجازر والحروب، ثم نكتشف أنهم كانوا أضعف ما يكون أمام زوجاتهم، أو أنهم كانوا شواذاً، أو أن هؤلاء الطغاه يخشون مجرد النوم في حجرة مظلمة، حتي قيل أن التاريخ يصنعه المرضى سواء في ذلك الأمراض العضوية أو النفسية أو الروحية.

*****

في النوم عاوده الحلم القديم بكل تفاصيله، النهر والماء والمرأة، قام فزعاً بعد أن صفعه الشيخ أصيل صفعه قوية لا يدري من أين جاء الشيخ، هل خرج من النهر، أم انشقت الأرض عنه، أم خبأته المرأة تحت ملابسها؟!... لا يدري سوي الألم الذي أنهضه فزعاً. جحظت عيناه وصمم في عزم لا رجعة فيه أن يذهب إليهم وليكن ما يكون، ثم تحسس مكان الألم الذي أحدثه كف أصيل ثم تمتم:

- أتضربني يا كافر؟! أتضربني يا مجنون؟!

ذهب في الليلة التالية، فوجد الشيخ مغمض العينين صامت، جلس غير

بعيد، ولا يدري كيف واتته القوة والقدرة علي الإقتراب قبالة المرأة صاحبة القصة العجيبة. إمرأة رائعة الحسن تأخذ بلباب من يراها للوهلة الأولي، عينان نجلاوان تجمعت فيهما كل ألوان الحياة، في مزيج غير مسبوق يملأها بريق ولمعان، هو السحر بعينه، لا تستطيع مهما أُتيت من قوة النظر إليها والثبات أمامها إلا لماماً أو إختلاساً. وجه نقي البشرة، تعلو بياضه حمرة فائقة الروعة، ربما تحولت الي صفرة في بعض المواقف، لدنة الجسم وكأنها تخلو من العظام، تثير من يراها، وتفتح مآرب شهواته المغلقة لأشياء عديدة، ربما أولها تحسره علي حظة التعس الذي حدا به الي غير تلك الأسطورة الحسناء، أو الحسناء الأسطورية. وياللعجب، إلى جوار هذا الجنون الجسدي تمتلك تلك السيدة روحاً تحلق في سماوات وسماوات، وتفتح أبواباً للرحمة وتجليات للسكينة، لا يقدر عليها سواها وكأنها حورية إنفلتت من الجنة الي تلك الغرفة البسيطة!

تجلس ملتصقة تماماً بالشيخ، تربت علي كتفه حيناً، تتمسح به وكأنها قطة أليفة تداعب خصلات شعره، تمرر أصابعها البضة فوق شعر ساعديه، تدلك ساقيه الممدتين، تقبّلهما في مواضع عدة، تحتضن راحة كفه تلصقها علي خدها ثم تقبلها، وتبتسم له في دلال تعجز اللغة عن وصفه. والرجل لا حراك فيه، شارد الذهن، مغمض العينين، صامت وصامت أيضاً كل من حولهما من المحبين ربما لتعودهم هذا المشهد، غير أحاديث خفيضة الصوت يصّاعد من بين كلماتها، دخان السجائر ووصوت رشفات الشاي!

جلس حسين مبهوتاً، تعبث بعقله الأفكار، همس لنفسه:

- حقاً المرأة شيء رائع، لو رآها عبدة الأوثان لسجدوا لجمالها، فتنة حقيقية، والذي لا شك فيه عندي أن كل من بالمجلس يشتهونها. ربما كانت أكبر من أحلام الأشتهاء. آه، كم أرجوها، أرجو أن أكون في مكان الشيخ، كم أرجو نعيم تلك الأنثي الأسطورية، أن أسكر بمعسول كلماتها، يحولني

ملمسها الي كائن ملائكي أوشهواني، لا فرق، المهم أن تكون لي وأكون لها.
ثم هتف في نفسه وقد ملأته الغيرة: الله.. الله.. يا أهل الطريق! هذا هو الطريق وإلا فلا!! أراهن أن الشيخ هائم في بهاء ملكوت هذي الأنثي.

مر بعض الوقت، تحرك الشيخ، فتح عينيه، نظر في الجميع، ناداه مبتسماً:

- «أهلاً يا جاهل الفلسفة»...

شعر بإهانة بالغة لم يشعر بها من قبل، زاد من قسوتها وجود الأنثي الحلم، شعر بالسخونة الحارقة تلحف وجهه وتزحف الي عقله، كاد ينطق بكلمات جارحة ليرد تلك الإهانة وليكن ما يكون، فإذا بالشيخ يسبقه قائلاً:

- تعال هنا، سلم علي قمر الزمان.
- هتف في داخله: صدقت، صدقت، فعلاً أنها قمر الزمان وكل زمان.

ونسي كل شيء إلا الذهاب إليها، مد لها كفه التي إجتمعت في أناملها كل حواسه ومشاعره وقلبه وعقله. مدها وكلها رغبة حارقة في أن تحتويها بأكملها، تجوس خلال تضاريسها جميعاً. مدت يدها، بضة، ريانة، ناعمة كأوراق الورد البلدي، تركتها في يده فترة غير قليلة وهي تبتسم برقة ساحرة، تزيل تجاعيد القلب المتعب. وبصوت هامس، رَطِب مثل نسمات ليل صيف رائع، قالت:

- أهلاً.
- ثم نظرت الي الشيخ وقالت: يكفي هذا؟!
- إبتسم قائلاً: يكفي فقد أنطفأت نيرانه.

فسحبت يدها برفق- ولولا الحياء الذي ندم عليه- لتشبث بها طويلاً، ولكنه هتف رغماً عنه، مستنكراً قسوة الشيخ:

- إنطفأت يا كاذب؟! قل إزدادت إشتعالاً وحريقاً.

ضحك الرجل طويلاً وقهقه بصورة لم يألفها فيه الإخوان والمحبون، ثم

قال وهو يواصل ضحكاته:

- «الآن شربت خمري.

ثم أطرق قليلاً وقال في شبه غضب:

- لا تصف شيخك بالكذب، فالمؤمن لا يكذب.

- ثم أدناه منه وقال بصوت حنون: تتزوجها؟!

جحظت عينا حسين، أحتبس صوته، دار رأسه، شعر وكأن لفح نيران، يقترب من وجهه، الذي جعل يتصبب عرقاً. وهزه الشيخ بعنف زاعقاً:

- ما بك؟!

روي له ما كان منها منذ سنوات طوال، روي له ولها تفاصيل الحلم القديم، صفحة النهر الهادئة، إستحمامه، حالته التي أصبح عليها، ندياً كصباح الربيع، أخضراً كنور الفجر، واذا بها تقف باسمة علي حافة النهر تحمل ملابسه في إنتظار خروجه!

*****

ضحك الشيخ أصيل بصورة هستيرية كمن أصابته لوثة، ثم بكي بكاءً شديداً وأخذه في أحضانه وضغط بشدة تألم لها، ثم قذف به بعيداً، وقال زاعقاً:

- أهكذا تفعل بك النسوان؟!

- واستدار إليها قائلاً: أأنت فعلت به كل هذا؟! فالتزمت الصمت.

أغاظته قسوة الشيخ ولكنه إلتزم الصمت . وقال الشيخ:

- أراها تميل إليك وذلك يدهشني.. فلم يملأ عينيها رجل قط.

إجتاحه الغيظ مرة أخرى، ولكن ما أدهشه أكثر أنها كانت تسمع كلماته ولا يبدو في ملامحها تعبير ما!

- قال الشيخ: ليس لها سوي شرط واحد، لا تفسد عالمها الروحي، تعشق آل البيت تذهب إلى إعمار موالدهم، وتذور قبور من طهرهم ربي تطهيراً،

أعني بنت طريق.

- قال حسين، دون ترتيب: أخشي أن تقتلني..!

- فضحك الشيخ قائلاً: صدقت، المرأة مثل البحر الكبير، تأتي بالخيرات العديدة والأحزان الكثيرة.

ثم تفحصه طويلاً بعينين جاحظتين، وقال:

- كيف حكمت؟ وما هذا الفقه؟

دون ترتيب فكري قال:

- سيدة المجالس هذه- ولا يدري كيف وصفها بذلك- ولكن راق لها الوصف فأبتسمت. أما الشيخ فقد هز السكون بصوته القوى آمراً:

- تكلم؟!

- قال بثبات لم يعهده في نفسه: هذه المرأة لا يعيش معها سوى من لا يفهمها، أو بالأحري لا يفهم على الإطلاق كيف يعامل النساء، فلو تزوجت صاحب قلب قتلته! هذه بإخصار روح صافية، نقية ملائكية وكذا جسم مجنون معجون بالشهوة والإشتهاء، فكيف لعاقل أن يسبح في نهر النار؟! هي سيدة للحب، سيدة للعشق، سيدة لمجالس الرجال، بل لمصارع الرجال.

همس الشيخ في شبه غضب:

- بل العاقل من يسبح في نهر النار، وهل يأتي باللؤلؤ المكنون، إلا المغامر الجسور؟!

- باغته مشهدها: تغرورق عيناها بالدمعات، ويحمل ثغرها أجمل البسمات، بينما تضطرب خلجات وجهها.

شعر حسين بدوار شديد فوضع يده علي رأسه، حتي يثبتها في مكانها، وصرخ:

- اللهم رحمتك، من هذا الجنون؟!

- ضرب الشيخ علي فخذه وقال: عجيب أمر هذا الغلام، أشم رائحة

إحتراق قلبه، ويخفي علينا حاله! من أي طينة خلقت يا فتي؟! لا أراك تستأهل ما جئت له ولكنه قدرك!

ثم وقف الشيخ وخرج ومن معه ، وتركوا الغرفة خالية إلا منهما. فاقتربت منه والإبتسامة تعلو وجهها اللامع من أثر الدموع، غمرت وجهه بلهيب أنفاسها، وأريج عطرها، عبثت أناملها بشعر رأسه، شعر بصاعقة من النشوة تسري في كيانه. وسمع صوتاً يدوي، ربما كان صوت الشيخ يقول:

- أطفئوا النور البيت سيحترق.

تراءت له صورة «روضة» وهي تبتسم، ولمعت كلماتها:

- لابد وأن تتزوج فذلك هو العقل والكمال.

- همس في نفسه وكأنه يخاطبها: أي عقل وأي كمال؟! إقتربت قمر الزمان منه كأكثر ما يكون الإقتراب، وقالت بصوت مبحوح حزين:

- أين كنت؟! إنتظرتك منذ سنوات، كانت عجافاً، بائسة جدباء، حتي شارفني اليأس لولا كلمات الشيخ، فقد كان يؤكد لي أنك قادم... ثم عانقته بشوق جارف، وجعلت تقبله بلهفة لا حدود لها، إعتصرته بشدة حتي تفصد جبينه عرقاً، لعقته بلذة مجنونة، جعلت تتنفس من هواء زفيره وكأنها تشم مخدراً مدهشاً، وحسين في كل حال مستسلماً لا يقدر علي فعل شيء، وكلما هم بالكلام وضعت يدها علي فيه هامسة:

- إسكت..!! داعب النسيم أغصانهما وبللت قطرات الندي أوراقهما ولسعتهما حرارة الشروق والإشراق... وفجأة دخل الشيخ غاضباً، وقال في حدة أفزعته بعد أن جذبه من أذنه بشده:

- خذ عروسك وأدخل بيتك وأحذر أن تموت علي غير دينك، أيها اللص الخطير.

*****

في الليلة التالية لهذا الزواج العجيب، قال لها:

- أليس غريباً أن نتزوج هكذا دون إرادة مني، علي الرفض أو القبول؟!

- إبتسمت قائلة: أو نادم أنت؟!

- ليس ذلك ما أقصد، فقد وجدتني مستسلماً، غير قادر علي فعل شيء وكأنني مسحور، أو واقع تحت هيمنة غيبية لا قبل لي بها، أشد من ذلك غرابة هو الغضب العارم الذي واجهني به الشيخ! مسحت قمر الزمان بيدها علي خصلات شعره وقالت: - عندما ضاقت بي الحياة مع زوجي الغريب عني، شكوت لعمى الشيخ أصيل ـ فأنا تربيت بين أناملهـ فطلقني منه، وقال:

- زوجك الحقيقي قادم، ثم أغمض عينيه طويلاً، و قال بصوت كسير أفزعني: عندما يأتي زوجك سأموت في اليوم التالي لزواجكما! كان الشيخ ينظر لي عندما يطلبني أحدٌ منه، فلا أجد في نفسي هوى، وكان الشيخ أستحلفني بأغلظ الإيمان ألا أكذب عليه، وألا أكتم أحساساً برجل يطلبني، وأكد لي أن ما قاله عن موته مجرد حلم غريب رآه في نومه، فلا داعي لربط هذا بذاك فالأمور بيد خالقها. حتي جئت أنت ورأيت منك ما رأيت، وهمس لي الشيخ:

- أراه هذا!

- فقلت له: نعم هو.

- ولكن الضباب يملأ حقوله.!!

- الشمس الساخنة تمحو الضباب وتزيله.

- أقمر أنت أم شمس ساخنة؟!

- ....

- هو، هو! . «قالها الشيخ بضيق شديد»

- ....

- ولكن لماذا هو؟!

- كأنني أعرفه منذ زمان طوي.

- هل أثر فيك بحلمه القديم، ربما كان من نسج خياله؟!

- ....

- نعم هو، نعم هو، هو نعم، هو نعم.!!

أشرق وجه قمر الزمان وإبتسمت قائلة:

- ثم كان ما رأيت.

- شيء غريب، هل تذكري الحلم الذي قلته عندما رأيتك والحالة التي كنت عليها؟! عندما قصصت الحلم الغريب علي أهل المعرفة قال أحدهم: هي زوجتك، ولكن بعد أن يطمسها من ليس أهلها وستموت علي صدرها.

ففزعت قمر الزمان بصورة مدهشة وقالت:

- هل أصبح الموت ، قدري فيمن أحبهم؟!

- هذا كلام بشر، مجرد تفسير لا علاقة له بالغيب.

- المؤمن يرى بنور الله.

- أهلاً بقضاء الله، هيا لندخل بيتنا حتي لا أموت علي غير ديني- كما أوصاني شيخي- وإن كنت لا أفهم ما يقصده.

- سأفسر لك ما يقصد، فقد تربيت علي كلماته وإشاراته، هيا يا نور قلبي، خذني معك لأعيش بجوار آل البيت الإطهار، الي جوار أمي الحقيقية، السيدة زينب وإلى جوار الإمام الحسين، هناك حياتي التي رايتها في سنوات الإنتظار.

نظر حسين إليها وقال دون أن يدري:

- والي جوار روضة.

- قالت: ومن روضة؟!

- إمرأة من نساء الجنة.

- قالت في دهشة: نساء الجنة؟!

- نعم نساء الجنة!

- ومن تكون روضة هذه، لم أسمع عنها، ولا عن كراماتها قبل ذلك؟!

- هي إمرأة لها معي قصة حب غريبة، مثلها.

- ماذا؟!

- أرجو أن تتفهمي، أنت سيدة غير عادية، ولولا ذلك ما أخبرتك بشيء، غير ذلك أود أن أكون صريحاً، نقياً معك، منذ اللحظة الأولي وحتي آخر أنفاسي.

- ولكنها إمرأة!

- هي أخت لي.

- أنا لا أغار، بل أقتل، ولو كانت غير ما تقول، لوجد الجنون الي قلبي طريقه، وما أدراك ما يفعل قلب مجنون!

- وأنا زوج عاشق، وعاشق حتي الجنون!

- تعلم أن طريقتنا لا تنكر الإخوة في الله، ولكنها أخوة يوسف النجار ومريم البتول، عليها وعلي ولدها السلام، وليس علي طريقة العوام من البشر.

- هي كذلك.

*****

في الليلة الثالثة ، لهذا الزواج الغريب، ظل الشيخ أصيل طوال ليلته لا يقر له قرار، تارة يبكي، وتارة يضحك، ولا يجروء علي معالجة أمره أحد! إزداد إحمرار عينيه، وجعل يتمتم بكلمات لا يعرف أحد ممن حوله معناها:

- « يا خداي، يا خداي». **وهى لغة فارسية معناها :»يا إلهي»**

ثم جلس علي الأرض هامساً:

- «بنام خداي مهربان بخشنده». **وتعنى «بسم الله الرحمن الرحيم»**

وقبيل الفجر هتف ببيت من الشعر ، كمن يخاطب أحداً :

- درنيابد حال بخته هيجه خام :: جوته بايد بس سخن والسلام

ومعناه: إن الغر الساذج لا يدرك الأحداث الكبيرة الجِسام، والسلام.

وصمت طويلاً ثم قال:

- بحق ما سلبته مني، وبحق ما ستسلبه، لا تجعل البيت يخرب والبوم تنعق .

ظل الشيخ علي تلك الحال حتي مطلع الفجر، ثم وقف أمام دارالشيخ فؤاد- حيث يقيم حسين وقمر الزمان كما أمر الشيخ وأراد- وجعل يؤذن للصلاة وكانت هي المرة الأولي- رغم غرائب أفعاله-.

أمر الجميع بالذهاب الي المسجد لأداء الصلاة في جماعة، أما هو فسيصلي وحده بالدار يؤم النساء، فقد أصبح امرأة- علي حد قوله- ، وكان له ما أراد.

عادوا من المسجد فلم يجدوه، قال النسوة:

- ذهب قبل أن يصلي، ولم تجرؤ واحدة علي سؤاله، ولم يخبر عن مقصده سوي قمر الزمان، التي بكت بحرقة شديدة بعد أن نهاها عن الذهاب معه، ولكنها فقدت صبرها وقالت:

- الشيخ مريض، وسألحق به، ولن أعود حتي يشفى أو يموت وذهبت.

جن جنون حسين وجعل يعدو وخلفه الشيخ فؤاد وبعض المريدين للحاق بهما أو بها فلم يجدوا لهما أثراً، وكأن الأرض قد طويت لهما. وعاد الشيخ فؤاد ومن معه، بعد أن ودعوا حسين الذي أقسم ألا يعود لتلك القرية إلا ومعه قمر الزمان.

(نهاية الجزء الأول)